الصوت

رواية

مينا سعيد

الدار للنشر والتوزيع

2016

اسم العمل	الصوت
النوع	رواية
الكاتب	مينا سعيد
تصميم الغلاف	
إخراج داخلي	محمد علي إبراهيم
الطباعة	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشر	الدار للنشر والتوزيع
المدير العام	محمد صلاح مراد
تليفون	01125800467
البريد الإلكتروني	eddar_press@yahoo.com
فيس بوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع	
الترقيم الدولي	

الدار للنشر والتوزيع

2016

"لـــيـــتـــنـــــى أستطيـــع التخلـــص مِـــن الأفكـــار

التـــى تـــســـمـــم علىّ ســـعـــــادتـــــى؛ لكـــنـــنـــى

أشعر بالمتعة نوعا ما وأنا منغمـــس بها "

فريدريـــك شوبان

مؤلف موسيقى وعازف بولندى

(1810:1849)

على سبيل الاعتراف و الاعتراض!!

أن كان نجيب سرور يكتب؛

بدلًا من أن يُشَرَدَ و يُجن.

أن كان إدريس على يكتب؛

بدلًا من أن يُجَرَّمَ ويكتئب.

أن كان فرانز كافكا يكتب؛

ليهرب من السلطة الأبوية والوحدة.

أن كان محمد حافظ رجب يكتب؛

ليهرب من الغربة و العوز.

مينا يكتب؛

بدلًا من أن ينتحر.

وبما أن مخاوف كل كاتب تلاحقه،

إلى النهاية،

فربما هو قدر محتوم..!

بداية متعثرة

"يحيى المنقبادى" هكذا قدم نفسه إلىّ، داخلا إلى حياتى فى غفلة من الزمن ومنى، وغادرها حتى قبل أن ادرك كنّه هذا الدخول السريع، تاركا خلفه كارت تعريفى، كُتب على الواجهة منه إسمه فى المنتصف، وتحته بالبُنط الدقيق جملة (رجل أعمال) وفى الظهر أرقام التليفون والفاكس، والإيميل.. بالإضافة إلى مظروف تقليدى كبير.

حاولت.. لكنه لم ينهض، حاولت ثانية، وأيضا فشلت.. فكيف الفكاك من القتيل الذى يحويه المظروف.. ها هى إيفا غرين، بثدييها العاريين اللدنين، تنظر إلىّ بشبقٍ، وتدعونى إليها؛ حاولت.. فشلت ثانيةٍ، مؤخرة الحظ تضرط فى وجهى، فبحق زيوس ما الذى يحدث لىّ اليوم!!

لقد إتصلتُ بعاهرتى المعتادة؛ ولكنها إعتذرت منى.. آخر لفة من حشيش قد دخنتها مساء أمس، ولو أني أعلم أن كل هذا سيحدث لىّاليوم؛ لوفرتها له، تفقدت الكومودينو والثلاجة فلم أجد فيهما ولا حتى غطاء زجاجة من الواين أو الفودكا، العادة السرية هى الوحيدة الواحدة المتبقية إذن.. متعة رخيصة،

ومتوفرة.. لكنها متعثرة الآن.. أنه جسدى اللعين لا يطاوعنى، أو لم يعد يطاوعنى بعد.

شارون ستون بشعرها الأشقر القصير تبحلق فىّ، وبدلا عن مايكل دوغلاس تهجم علىّ، تفكك لى أزرار بنطالى بسرعةٍ وتمرسٍ، تنزله وتنزع ما ارتديه مِن تحته، أفشل كذلك.. ولا حتى تلك الآلهة الشقراء تقدر على أن تنهضه الآن، ذهنى مشتت تماما، بعيدا عنى مسافرا.. وكسفينة غارقة قابعة فى الأعماق؛ ذهنى يقبع بالجثة بداخل المظروف.

4

الشامبو نفد هو الآخر.. جورج قرداحى بلباقته المعهودة، يخبرنى بأريحية "لقد نفدت وسائل المساعدة الخاصة بك".. حينما سَمعتُ دقات الباب؛ لم يكن ليخطر على بالى أن الأمر هكذا.. دخل الرجل الأربعينى الأسمر بعطره الفرنسى، وبدلته الإيطالية، وحول رقبته تلتف كوفية حمراء، بشعرٍ إسودٍ أشعث ولحية مشذبة رمادية.. متأبطا مظروف ورقى كبير، لونه بيج، أشبه بالأظْرُف الحكومية، من فورى ادركت أننى مشرف على أمر جلل، كنت أظنه محاميًا لأحد الخصوم فى إحدى القضايا -التى تخصنى- والمتداولات فى إحدى درجات التقاضى

المختلفة؛ لكن خيالى لم يقودنى أبدا إلى أن الأمرً متعلقٌ بانتحار أحد أصدقائى، واحدٌ من رفاق مقهى البورصة بوسط البلد.

نعود ثانية إلى إيفا غرين، ها هى تحاول من جديد، تتهضه أخيرًا.. تحاول، اُحاول، أريد وأن اكُمل إلى المنتهى.. يفشل، يرتخى، الأربعينى ثانيةً، كيف جلس فى هدوء وعظمة على الفوتيه هكذا، واضعا ساق فوق الآخرى.. فى بساطةٍ و رقيٍ، وكيف ألقى بالمظروف أمامه على المنضدة الزجاجية فى سلاسة أخاذة.

إيفا غرين.. ثدييها الباضين، متكورين، مشدودين، وحلمتيها منتصبتين، خصرها النحيف.. تقلدها، لكنها تفوق فينوس عظمة وإثارة، تخفى يديها البيضاوين فى جوربين أسودين، تقف ومن خلفها الظلام.. تتبخر من أمام عينيَّ؛ ليظهر الرجل الأربعينى ثانية.

"لقد جائنى.. وترك لى هذا الظرف من أجلك.. ورحل".

كاد أن يصيبنى الإغماء، ها هى إيفا غرين على ركبتيها أمامى، تفكك لى ازرار البنطال، تتخلص منه ومما تحته، تفاجئ إيفا بصورتها بالمايوه معلقة بين قضيبى والخصيتين، تضحك منى،

ترقدعلى الأرض عارية تماما، تدعونى إليها بنظراتها المميتة، ترى من يكون؟! أخبرنى الرجل أنه قد أحضر لى هذا الظرف من صديقى المنتحر، وأن أحدًا قبلى لم يفتحه، ولا حتى رجالات المباحث الجنائية يعلمون بوجوده من الأساس، وكيف أنه يجب أن يُسلم الأمانة إلىّ كما هى رغبة صاحبى.

لم أعلم ماذا علىّ أن أفعل.. فابتسمت، واخبرته أنه من المؤكد حدوث خطإٍ ما، وأن كل هذا لا يتعدى كونه مجرد سوء تفاهم سخيف.. فهو نفسه لا يعرفه معرفة حقيقية، فبحسب كلامه أن تلك هى المرة الثالثة فقط التى يراه فيها.. حتى أنه لا يعرف إسمه، فلما يعطيه ظرفًا من أجلى؟! ولِما يكلفه بهذه المهمة من الأصل؟! لكن الرجل قد أظهــر لى واجهة المظروف، رافعا حاجبيه قائلا "اليس هذا هو؟".

5

اسمك الثلاثى وعنوانك؟ هنا فقط تيقنت من أن كارثة قد وقعت لأحد اصحابى بالفعل، فرؤية اسمى الثلاثى على المظروف "إبراهيم عبد السلام متولى" وتحته عنوانى بالتفصيل، جعلنى اوقن من أن ما بداخل هذا المظروف –وايا كانت ماهيته– فأنه

يخصنى، ألقى الرجل بالمظروف ثانيةٍ على المنضدة الزجاجية، ومِن ثم ألقى بالكارت التعريفى الخاص به فوقه.

اخبرنى أنه قد مر عليه منذ حوالى الإسبوع، وأنه كان فى حالةٍ غريبةٍ، وليس كما رأه فى المرتين السابقتين.. كان شعره طويلٍ منكوشٍ يظهر من تحت آيس– كاب اسمر ممزق، تاركا لحيةٍ مشعثةٍ، مرتديا جاكيت – رمادى فاتح – رث، وبنطال قذر فقد لونه الأصلى منذ وقتٍ بعيد، وأنه وحين فتح فمه؛ ظهرت فى مقدمة أسنأنه العلوية سنتين معدنيتين فضيتين، لم يكن قد رأه بهما فى المرتين السابقتين.

"وأخبرنى أنه راحل فى رحلة أخيرة، رحلة ليس منها فكاك، وليس لسالك دربها من طموح فى عودةٍ، وإنها مكتوبة على الجبين.. لم تكن العلاقة بيننا قوية إلى هذا الحد؛ لكنه فاجأنى إذ ألقى بنفسه فى حضنى وبكى، اخبرنى عنك بوصفك صديقا له من مقهى البورصة، وقال لى أنه سَيُعلِمَنِى فى اى وقت تحديدا علىّ أن اسلم هذه الرسالة لك، احرجت منه، قال لى أيضا أنه لن ينسى لى هذا المعروف أبدا طالما بقى على قيد الحياة، وهرول مبتعدا فى حركة عصبية، تاركا هذا المظروف بين يدى، على الا اسلمه لأحد الاك،يدا بيد.. وها أنا أفى بإبلاغ

الرسالة وتسليم الأمانة، ليستريح فى مرقده.. لا اعلم لما اختارنى أنا بالتحديد لأوصل هذه الرسالة، ولا اعلم تحت اى خطر كان، أو أى مصير بائس كان يتهدده حينما اسلمهانى؛ لكنك من المؤكد تعلم لما اختارك أنت بالذات". مازلت لا أستطيع الهرب مِن طريقتى فى الهرب، فكما قيل قديما فمدمن الجنس؛ يبقى دائما مدمنَ جنس، لا فكاك لى أنا الآخر.. انتصاب، أرقد فوق إيفا غرين، أسحب تركيزى من الرجل الأربعينى، والمظروف والمنتحر الراقد بين اوراقه، لأتوحد معها ثانيةٍ.. حبل الخيال ممتد، حبل الخيال مشتد،يشتد بعنف، حبل الخيال يشتد بالأكثر.. حبل الخيال ينقطع، ينفرط.. ويظهر لى ثانية الرجل الأربعينى، ببدلته الإيطالية وعطره الفرنسى.. يتهيأ للرحيل، ينفرد مقدما لى يده مصافحا، أضع يدى فى راحة يده السمراء، و أرجوه بنظرتى المنكسرة الا يتركنى هكذا من دون المزيد من الإيضاح.

"كانت هــذه هــى المــرة الثالثة التـــى اراه فيهـــا، أول مـــرة لـــم نتبـــادل ولا حتـــى كلمـــة

واحدة، فى مقهى حواديت خلف قصر ثقافة روض الفرج، كنتُ جالسا فى اليمين مِن المقهى، فيما كان هو جالسا فى اليسار منه.. فى يدى رواية رأيت رام الله، وفى يده رواية الحالم، نظرنا إلى بعضنا البعض فى نظرة تقليدية، تبادلنا فيها الإبتسامات، فأنت تعلمُ أن القارئين نادرون فى القاهرة، فمن بيده كتاب، وحين يتقابل مع غيره بيديه كتاب، يعلم أنه مشروع صديق مؤجل.. ولهذا فى المرة الثانية حين إلتقينا وكان فى يدى الصخب والعنف، وفى يده خريف البطريرك، تهيأت للكلام معه، فجلست بالقرب منه كخطوة أولية.. لكنه هو من بادرنى بالحديث عن وليام فوكنر والرواية الأمريكيـــة، واستمرت محادثتنا معا إلى ما يتخطى الساعتين، افترقنا بعدها، دون حتى أن نتبادل الأسماء.. ثم إختفى بعد هذا اللقاء، إلى أن أسقطه من ذهنى تماما ونسيته.. ما يقرب منشهرين وعاد ثانيةٍ –أو الأصح أن أقول ثالثةٍ– هذه المرة بهذا الشكل الغريب، وتلك الهيئةالمزرية.. لكننى عرفته على فورى، وهرعت لأسلم عليه، وأستفسره عما حل به، كان متعجلا للغاية، ولم يقل لى إلا بعض العبارات الغامضة التى سبق وأن ذكرتها لك.. أسلمنى هذا الظرف ورحل، أما باقى ما حدث فقد علمته من زين القهوجى".

يتوقف الرجل الأربعينى، مرتسمة على شفتيه ظل إبتسامة باهتة.

أقول "هناك أمل إذن الا يكون قد إنتحر.. فليس معنى إختفاؤه أنه يبقى إنتحر،،.

يردُ "لقد ألقت الأمواج به على شاطئ النيل.. استخرجوا جثته من النهر منذ أول أمس، لم يكن فى حوزته ما يستدلوا به على شخصيته، حتى موبايله كان قد إنتهى هو الآخر.. كانت جثته طافية ناحية ضفاف شاطئ الكيت كات، المياة قد أتلفت الجثمان، والأسماك كانت قد إلتهمت أصابعه كلها.. فى بداية الأمر لم تجد المباحث الجنائية أحدا من أقاربه أو معارفه للتعرف عليه، لكنهم وفى النهاية قد استدلوا على شخصيته.. ومن دون صلاة للموتى دفنوه –لم يدفن فى مقابر المؤمنين – لقد رفض القائمين على الأمر ذلك –بصفته منتحرا– هذا ما قد أخبرنى به زين القهوجى، فعلى الفور تذكرت الظرف الذى أسلمهونى وعليه إسمك وعنوانك، فذهبت إلى بيتى، إستخرجت الظرف من تحت مرتبة فراشى حيث كنت مخبأه، وضعت نفسى فى تاكسى و منه إليك على الفور".

"لكن إسمه؟! أنت كل هذا لم تذكره لى؟!".

"لا أعرف إسمه.. لهذا بأختصار لم اذكره لك، أو تعلم فحين قال لى زين أن (صاحبك المثقــف) قد إنتحـــر..

صُعقت واخُـــذت، ولـــم اسألـــهحتى عن إسمه، كل ما

7

قد جال ببالى وقتها هو المظروف، أن اسلمه إليك، وأن اتخلص منه، اعذر صراحتى، لكننى اطلعك بصدق على ما قد حدث بالفعل".

وقفت ذاهلا.. حل الصمت بيننا، تحرك نحو الباب، ومن ثم نظر إلىّ نظرةً ذات مغزى قائلا "باى" ومرق من الباب، خارجا منه، كما دخل منه منذ قليل، وبين دخوله المفاجئ، وخروجه السريع قد تغير كل شيئ فى حياتى البائسة.. تاركا لى ذلك المظروف البيج وعليه اسمى وعنوانى، وبداخله يقبع صاحبى المنتحر، راقدا منتظرا من يحاوره.

ما أن فكرت فى الأمر الا وقد هرولت إلى حيث المنضدة الزجاجية، إلى الكارت الموضوع على الظرف، أخذته متحاشيا النظر للظرف البيج الكئيب.. قرأت الرقم عليه، أحضرت موبايلى لأتصل به، وأترجاه أن يعرف من القهوجى إسم هذا

الصديق المنتحر؛ ليطلعنى عليه، لكننى لم اتلق غير صوت آلى يخبرنى أن "الرقم الذى طلبته مغلقا أو غير متاح،

حاول الإتصال فـــى وقـــت لأحق" وهكذا وفى كل محاوله لاحقة كنت اتلقى نفس الرد.

اخترقها عدة مرات سريعات، تتلوى من تحت ثقلى، أرفس بقوة، تصرخ بقوة، تنهج عاليا، أنهج عاليا، تخرج منى آهة، تتبعنـــى بعدة آهـــات.. إنتصاب أخيرًا، لكن من يا ترى؟! ففى مقهى البورصة هناك بوسط البلد إعتدت منذ سنوات مضت أن اُجالس العديد من الأصدقاء.. والرفاق، قال أنه قد مر عليه منذ حوالى إسبوع، شعره طويل مهوش، لحيته مشعثة، ملابسه قذرة، وسنتين – فى مقدمة أسنأنه – معدنيتين، من يا ترى تنطبق عليه تلك المواصفات من رفاق المقهى؟!

عُمَرُ المسيح، لابد وأنه هو من فعلها.. فعُمَرُ مجنون تمام الجنون، بالإضافة إلى أن معظم المواصفات تنطبق عليه؛ الشعر الطويل، اللحية، كذلك جنونه المتفرد، إعتقاده الحالى أنه أفضل لأعب بلياردو فى الوجود.. إعتقاده السابق بأنه السيد المسيح، ولحد اخر مرة قابلته فيها، كان يترك لحيته، ويصفف شعره

كماالمسيح عيسى، هو الوحيد مِن على البورصةمَن له أن يتخير نهاية كلاسيكية كالغرق بالنهر.

ياله من يوم اغبر.. عُمَرُ المسيح!! نعم، فأنا لم اراه منذ ما يقرب من العشرة أيام، يا خسارتك يا عمر، لكن مهلا، الم اضع له إعجابا على صورة قد نشرها منذ يومين؛ إذن كيف وأن يكون هو؟! من المؤكد أن أحدا اخرا غير عُمَرُ المسيح من فعلها، لكن ثم أن لم يكن عمر؛ فمن عساه أن يكون إذن؟

8

مَن مِن الرفاق تنطبق عليه المواصفات؟ اعصُرُ ذهنك، لتعملى أيتها الذاكرة الخردة المتعهرة، الا تتذكرين غير الاثداء والمؤخرات العارية،والمشاهد الجنسية لإيفا غرين وشارون ستون.. من منهم مختفى؟! أيعقل أن يكون هو، لكن هذا لا ينطبق عليه وصف السنتين الفضيتين فى مقدمة الأسنان، وما فى هذا؛وهل كان هذا الوصف ينطبق على عُمَرُ المسيح هو الآخر؟! إذن لا بد وأن يكون هو؛ مؤمن الملحد، مؤكد.. هو مؤمن إمام بعينه، فبعد أن علم أبوه أن إبنه قد تخلى عن الدين نهائيا ومطلقا، وأعلن الإلحاد منذ أربعة سنوات، وجاء إلى المقهى وعمل الفضيحة إياها منذ حوالى الأسبوعين.. وهو

الآخر مختفى، حاولنا كثيرا الوصول إليه منذ ذاك اليوم، لكننا وفى كل مرة عجزنا عن العثور عليه أو التوصل إليه.

مؤمن ملحد..

ولا يؤمن بالثواب أو العقاب أو الحياة ما بعد الموت.. بل وكثيرا ما قد تحدث عن الإنتحار معى ومع صديقته – وللحق– ومع كل المقربون منه، لابد إذن وأنه وفى لحظة من اليأس وإنعدام الأحساس بالأمأن قد فعلها.. بحق زيوس، هل ألقى بنفسه فى النهر؟! لما لم يأتى إلىّ هذا الغبى العاهر، لما؟! لما لم يأتى إلىّ مباشرة كما كان يفعل دائما مع كل مشكلة تواجهه، لما؟! ياله من يوم أغبر، ما طلعت له شمس، لقد إنتحر مؤمن الملحد إذن.. وفى النهر؟! فى النهر أيها الفتى المجنون؟!

لكن مهلا.. إنتحر، وإنتشلوا الموبايل الخاص به وقد أتلفته المياة، كيف يعقل هذا؟! فمؤمن لم يكن يكره شيئ فى حياته بقدر كراهيته للموبايل والكمبيوتر – والتكنولوجيا بشكلٍ عامٍ –ثم فأنا متأكد مِن أنه لم يمتلك موبايل يوما ما فى حياته، فكيف يستخرجون معه من النهر موبايل، لقد كان هذا وحده هو سر سخريتنا منه، حتى أن بعضا من رفاقنا رواد مقهى البورصة قد أطلقوا عليه رجل العصر الحجرى.

لا يمكن أن يكون مؤمن الملحد هو من فعلها.. ولا هو عُمَرُ المسيح.. من يتبقى؟! من مختفى منهم؟! من صاحبى المنتحر.. الجواب يقبع على المنضدة الزجاجية، عالقا بين دفتى ذلك الظرف البيج، لكن كيف لى أن آتي بجراءة فضه، ترى من هو هذا الرفيق الوغد المنتحر؟! إن أعصابى آخذة فى الإنهيار.. وشفتاى ترتعشان.

لأسُرع من الأمر، لأسُرع من الرتم.. فالإيقاع ساقط، ها هى ظهرها إلى الحائط مواجهة لى تترجانى أن اقذف.. تترجانى أن أنتهى لاريحها.. لأجعل من الإيقاع إيقاعا لأهثا.. أريد أن اهدأ، أريد أن أبرد، ابصق فى يدى، حركات عصبية آليه، مازال كالحجر الصوان، لا يريـــد أن يلقـــى ما بداخله.. لا يريـــد أن يهدئنى، أريد أن...

9

أهرب من الواقع.. اقبل مؤخرتك أيها الخيال الا تتركنى وحيدا، فريسة سهلة للواقع بحق زيوس الا تتركنى وحيدا..

بحق زيوس، اريده أن يأخذنى بعيدا ولو لبضع دقائق معدودات.. بعدها ليحدث ما يحدث، بعدها لتسقط الشمس فى البحر ولنستمع للتششش العملاقة والأخيرة.. بعدها لينبت من

الآرض الأشوك ناطحة السحب لتخنق السيارات والعمائر والأبراج العالية.. بعدها لتبيد الآرض وما عليها، بعدها لأموت، وافنى، واهلك، واضمحل، واتوارى، وانتهى.. بعدها لأقرأ ما بداخل الظرف من اوراق.. واستمع إلى صوت صاحبى المنتحر.

ثدياها لدنان، بيضاوان تشوبهما الحمرة.. كرمانتين براقتين فى وسط حقل أخضر نضر، وقد حان وقت نضوجهما، ووحدى أقطفهما لتــوى.. كان لا يريد أن يبدأ؛ والأن لا يعرفكيف ينتهى، مازلت معذبا.. ومازالت إيفا تتأوه، تصرخ، اكثر،

اعمق، افعلها واريحنى.. لا يريد أن يأتى، فهو الآخر متعثر، مثلى فى هذا العالم المُترب.. لا أمل فى هذا مطلقا.. ولا سبيل للهرب من صاحبى المنتحر الراقد فى المظروف البيج الكئيب، كآبة الأظرف الحكومية والقضائية.. توقفت، لا أمل فى هذا.. لا أمل.. لأخرج مما أنا فيه، لأواجه الواقع المشيئوم، ولأذهب حيث المظروف البيج المتضخم.. لأفضه الآن، لابد من أن أتشجع أخيرًا، وابدأ، لأواجه صاحبى الغارق.. ليحدثنى صاحبى المنتحر عن نفسه.. ولأرهف السمع له.

10

إنتحار يوسف الصديق

المجموعة الأولى من الأوراق

ملاحظات شكلية/

فى ورق مطبوع، مترب، وقد اصفرت أطرافه.

كنت أخدع نفسى مقنعا إياها باننى أستعد لسفر، سفرٍ طويلٍ فى طريق عسير غير ممهد.. سفر حيث البداية، وسفر حيث النهاية، أليس جميعنا و فى النهاية مسافرون على تلك الآرض؟! عبر تلك الأجساد الأرضية البالية.. لكن ما الذى يتعين علينا وأن طال السفر؟!.. الا و أن نستعد للسفر.

كنت أسال الله واحدةٍ ولم يستجيب لى؛ كنت أساله أن يستدعينى من سفرى هذا الذى طال، ويريحنى من طول التجوال.. وأن يدعنى أذهب إلى هذا المكان البعيد الذى ينتظر الجميع، هذا المكان الخارج عن المعقول.. والخارج عن التخيل، حيث تصمت جميع الأصوات.. وتخف موجات الآهات تدريجيا إلى حد الإنقطاع، آهٍ يا هذا المكان.. آهٍ أيها البعيد المنال.. وآهٍ من تلك التنهيدة الشتوية التى تخرج معها بخرا من جوفى، بخرا من البحر بداخلى، وآه من بخار الماء.. الذى لا يُحصل السائل أو الصلب.. الذى ليس هو بالماء أو الثلج.. الذى لا يُحصل الارض أو البحر، بل يظلٍوحده معلقا هكذا فى الهواء.. و آهٍ آه من الهواء و تقلبات الهواء التى لا تنتهى ابداً..

هذا المكان البعيد القروى حيث الهدوء الرخامى، ما أروع هذا التعبير على لسانى"حيث مكان فى هدوء الرخام" فالرخام هادئ أكثر منه بارد، وأنا أشتقت إلى الهدوء، اشتاق إلى مكتبة بها كل ما قد كتب، أو حتى لم يكتب له وأن يكتب، بها كل ما قد نطق به، أو حتى ما لم يحدث ونطق به، وصفحة يحيا على وجهها كل ما كان، سواء كان واقعا.. أو خيال.

وديوان يقرض فيه كل يوم بيتٍ جديدٍ.. بيتٍ حزينٍ كما نظرات العذراوات.. كما اغنيات الجدات.. كما إنكسار الموجات.. كما ارواحٍ راقصات على قصيدةٍ مستوحاةٍ من صرخات وآهات من اطفالٍ موجوعين وموجوعات.. كما مدينةٍ مهزومة.. وامهات ملكومة.. واطفالٍ مشردين و مشردات.

أنا آخر كاتب من تلك الحقبة المنحوسة.. أنا آخر نبى آتٍ إلى هذه المدينة المنجسة، أنا آخر كلمة حق وقفت فى الحلق محبوسة.. لما اقرض نثرا و انثر شعرا؟! لا أريد أن اكتب بهذه الطريقة – وبحق– لا أريد وأن اكتب من الأساس، لا أريد الا أن اجلس وحدى صامتا هكذا، منحنى الرأس، واضعا فمى فى التراب، ناظرا إلى الآرض.. إذ ربما يتذكرنى الله، عله.. لكن هل هذا ممكن حقا؛ أقصد أن يرجع الله و يتذكر؟!

12

رسالةإنتحار يوسف الصديق

بقى لى فى محبسى ثلاثة عشر عاما، مروا علىّ كثلاثة عشر ألْفِ عامٍ، يمتد بى العمر؛ ولا يريد أن يتوقف، لا يريد أن يرحمنى وينتهى، اواه يا ابى.. كم اتوحشك يا يعقوب.. كم أشتاق إلى حضنك، إلى عطفك، إلى حلمك، وحتى إلى زجرك، أنا يوسف يا أبى.. أكتب إليك رسالتى الأولى من مصر.. والأخيرة من عالم الأحياء، قبل أن أعبر القنطرة.. وأنتحر.

لا داعى للقلق عليك يا أبى؛ فأنا لا اعلم أن كنت ماتزال على ظهر الارض ام انك قد سبقتنى، وعبرت القنطرة أنت الآخر.. احاول أن اطمئن نفسى بتلك الكلمات، بقى لى عدة أيام لا ارى نوما يا أبى، متيقظا دوما، ولكننى أيضا خارج عن الحياة، أو على أقصى تقدير على حوافها، كُنت أعلم انك تعلم انى مُت، كنت أعلم انك تعلم اننى عبرت إلى حيث الجانب الآخر.. حيث راحيل، لم اكن أريد لك الحزن على موتى مرتين.. أحقا أعطوك قميصى الملون ممرغا بدماء الحمل،وما الفرق بينى و بين الحمل يا أبى.. أنه نفس الفعل، أنه سحب الحياة بيد الرجل.

من يحاكمنى.. هل الله؟!.. ومن يحاكم الله إذن؟!

هذا ما قد صنعته يداه.. عالم ملئ بالوحوش والمتوحشين، قل لى لما لم يقبل اُضحيه قايين قديما.. أحقا لانها كانت كما قيل لنا نباتية؟! وهذا بالطبع لا يرضى يهوه؛فيهوه لا يرضى الا بالدماء.. لكن يبقى السؤال، هل له أن يكتفى بالدماء الحيوانية وحدها؟! هل تكفى دماء الحيوأن البرئ لتشبع وحشيته؟! بالتأكيد قايين كان السؤال والجوابمعا.. دائما ما قلت لنا أنه لولا الحقد لما قتل الاخ اخاه.. لكن هل لك أن تخبرنى يا أبى من هذه المرة الذى زرع الحقد فى قلوب الاخوة، من الذى فرق بين الاخوين.. هل كانت الحية أيضا هى الملومة تلك المرة؟!

أيا يعقوب أمازلت تتذكرنى؟! أمازلت مكلومًا على ابن راحيل البكرى؟! محبوبتك الأولى والأخيرة، ترى كيف بقى الصغير بنيامين؟ هل ورث عنى هذا الشعر الناعم المهوش الطويل؟ كما ورثته أنا عن راحيل.. ألم تجرى العادة أن يكون الاخ الأصغر شبيها بالأكبر.. لا بلدى قبلتنى، ولا مصر ضمتنى.. يا غربتى! فى الفجر ليلة أمس شممت رائحة احبها، رائحة عرقك، التىتوحشتها كثير، واذا بها رائحتى.

13

حقا اشتاق إلى خيمتنا فى الصحراء.. إلى قبيلتنا، والنار المشتعلة فى الحطب فى امسياتنا الليلية.. لا أريد أن أحكى كثيرا من التفاصيل حتى لا اوجع قلبك، فيكفى أن تعرف أننى غريب سجين يا أبتاه.

من حوالى ثلاثة أسابيع مضت، رأيت انعكاس وجهى فى لوح مرآة، فلم أتعرف على وجهى من الوهلة الاولى.. لقد مضى الشباب أبى وخط المشيب رأسى، وكيف بنيامين الصغير؟! هل إمتهن الرعى مثلك ومثل الأجداد؟! ام ماذا؟! أتذكر جيداعشقه للمنحوتات كأمه تماما، امازال متعلقا بتلك المنحوتات كما كانت راحيل متعلقه بها، أن مصر مليئة عن آخرها بالمنحوتات العملاقة والمعابد.. كُنت أعبد يهوه.. ومازلت أعتقد إلى وقتنا هذا أنه الاله الواحد الحق الحى؛ لكنى فقط أمسيت لا أثق فيه،أتوحشكم كثيرا.

أجلس وحيدا صامتا.. متذكرا و متفكرا، كيف بدأ الأمر؟! لقد بدأ بحلم، أصبح ينتابنى الشك فى الفترة الأخيرة بخصوص تلك المرحلة من حياتى.. أكان حلم، ام خيال؟ ام وهم مطلق؟! أكانت نبوءة وكذبت.. ام رغبة مكبوتة وتسربت فى صورة تخيلات..

لكننى أعود لأقسم – لك بحق الاله الواحد الذى تعبده– لقد رأيت الحلمين، كأننى ارى فى اللحظة والتو حزمتى منتصبة وأمامها حزم اخوتى منحنيةٍ لها، ساجدة، اكاد أن اراها الأن فى الحال، والمسها.. الشمس والقمر وإحدى عشر كوكبا ساجدةٍ لى.. لم اختلق الأمر أبى.. لم أختلق الأمر.

لم اكذب عليك أو على اخوتى بشأن هذين الحلمين.. لكننى وبعد كل تلك السنوات الطويلات.. ينتابنى الشك، ويسيطر علىّ التشوش، أقسم لك بصدق الحلمين وأننى قد رآيتهما.. ومع هذا لا اصدق ذلك، أشك وأتيقن.. ومن ثم أتيقن وأشك، أكان من الله، ام من الشيطان، ام من نسج الخيال؟! بعد أن باعنى اخوتى بثمنٍ بخسٍ، عشرون قطعةٍ من الفضة، أثمن كلب حراسة ام حمار جر؟! ألِى هذا الحد رخيصٍ تافهٍ فى أعينهم، كيف لى أن أغضب من الإسماعيليين وأهلى هم البائعون! وكيف لى أن أغضب من فوطيفار خصى الفرعون و رئيس حرسه؟! أو كيف لى أن أغضب من زوجه؟! واخوتى هم من باعوننى؟! كيف لى أن أغضب من اخوتى وبيت أهلى وأنت، أنت لم تحمينى يا أبتاه –لا شك فى حبك، لا شك– ولكنك لم تتمكن من حمايتى يا أبتاه.

لا اشك فى حبك يا أبى؛ ولكنك فقط وحين حكيت لك عما رأيت لم تُصدقنى يا أبتاه، وكيــف لى أن اغضب منك؛ والله مُسبــب كـــل الأسبــاب قــد تخلــى عنى.. أنه وحـــده

14

الملوم.. أستميحك عذرا يا أبى، فلا أريد أن اقسو عليك، ولا أريد أن اوجع قلبك معى، لكننى لم اجد من يُعزينى، ويحن على وجع قلبى، يا أبتاه.. لقد سقطت حزمتى.

المصريون يخصصون وقتا وجهدا كبيرين للتفكير والتدبير بخصوص المستقبل، لا اقصد مستقبل حياتهم؛ بل مستقبل ما بعد الحياة.. لذا يحنطون جثامين موتاهم لاعتقادهم فى البعث.. الحياة الآخرى، أنت أيضا تعتقد فى هذا يا أبى.. أتذكر هذا جيدا، لقد خلقت فى العصر الخاطئ أبى.. عصرنا عصر العبودية، عصر البيع يا أبى، عصر البيع.

أردتك وأن تعلم يا أبتاه اننى حاربت؛ وحاولت التأقلم..

وحاولت أن أعيش، أقسم لك اننى حاولت.. وفشلت، فأغفر لى يا ابى، أستحلفك بحبك لراحيل أن تغفر لى، فإبن راحيل قد بلغ وقت الرحيل.. أتذكر مقولتك أن اليأس خيانة وكفر.. وها أنا

مقيدا باليأس.. وها أنا أخون وأكفر، فلم يتبقى لى يا أبى الا حلم نهائى، حلم اخير.. أتمنى الحياة الثانية يا أبى – التى تعتقد فيها، ويعتقد المصريون كذلك فيها – أن حقت، و وجدت.

لا اخدعنك يا ابى.. نعم لقد مرت علىّ أيامٍ جيدةٍ.. حيث تعلمت الكتابة و الزراعة بأسلوبهم، تعلمت لغتهم و ثقافتهم.. كنت فيها الخادم الاهم فى بيت العزيز فوطيفار.. نعم لقد عشت أيام حلوة شعرت فيها أن السماء تسكن قلبى.. وأن يد الله تعضد يمناى.. حتى هنا؛ فى محبسى كان الله يدعمنى.. لكن إلى متى.. إلى متى؟!

فكل ما اعطهونى الله؛ كانت صحبة ورد.. مجرد صحبة من الورود لمريض يحتضر على فرشة موته، لكن هذا لم يعد كافٍ يا أبى، لم يعد كافٍ، لقد تملكتنى رغبةٍ حقيقيةٍ فى الموت والهلاك، ليلى كنهارى.. بطئ كما هى حركة سلحفاء عرجاء.. جفانى النوم إلى الآبد، لكن أوتعلم يا أبى ما هو المضحك والمثير للشفقة؛ هو أن جزء من نفسى مازال متمسكا بالحياة.. جزء مختفٍ بعيدا من نفسى،جزء غريب به حب للحياة على كل ما فيها من كراهية، فأجدنى تأخذنى امواجا من الخيال، فأتصور أن فرعون سيستدعينى كما استدعى بعض المساجين زملائى،

لأســـاعـــده كما ساعـــدت زمـــلائـــى المساجيـــن، اُفســـر له رؤيـــاه واحلامه كمـــا افـــســـرها

15

لزملائى.. تخيل يا أبى عمل هذه الآلية المخادعة المقرفة فى النفس الأنسانية، تخيل يا أبى هذا الكم الهائل من الهراء المثير للشفقة والاشمئزاز، كم يتمسك التعساء بأسباب تعاستهم وشقائهم.. بدافع كئيب لعين يُدعى الأمل.. الأمل!! فتبًا للأمل!! ولأبويه المخادعين معه!! كنت أسرح متخيلا أن لى زوجة اسكن إليها.. انجب منها اولادا يحملون اسمك واسمى.. تخيل كم هذه التخيلات المثيرة للشفقة؟! كنت لأربيهم على المحبة والإحترام والتعاطف، كـُـنت لأسميت البكرى "منسى" لينسينى كل ما قد اصابنى من تلك الحياة.. ينسينى كل تعاستى فى ضحكته.. ينسينى كل شقائى فى بسمته.. لكن يا أبتاه.. ما باليد من حيلةٍ.. هذا الله وهكذا هى حكمه.

غريبٌ فى ارضٌ غريبة أموت يا أبى.. عند الفجر، غدا..

سيجدون كلبٌ ميتٌ جديدٌ ملقى فى حجرة معتمة كما جحرٍ لكلبٍ وحيد مشرد، أنا هو ذا الكلب الميت يا أبتاه، كنت أريد أن ابقى مفخرةً لك.. سبب سعادة لك وحتى لاخوتى، كنت أريد ولو أن

أعمل شيئا مفيدا لك ولعشيرتى وللبشر جمعاء.. هه، كنت أريد و أن يُقال أن هذا الرجل الناجح هو بن يعقوب.. كنت أريد أن اوقف حربا.. انقذ ابرياء، أو أن اتصدى لمجاعة، أو لفيضان النيل.. كنت أريد أن اكون كمثلك، بطلا، وكمثل إسحق والجد الأكبر إبراهيم.. لكن الله اله أبائى وأجدادى قال فكان، وما من يرد قوله.. وفى قوله قد تخلى عنى.. آهٍ يا يعقوب آه.. لقد سقطت حزمتى..

لقد سقطت حزمتى.

البريد الفرعونى

مؤخــــرا قـــد اكتُشف عشرة الأف رسالة فرعونيــــة، محلية ودوليــــة، فيما يشبـــه نظـــام البريد فى غرفـــة مجاورة لقدس الاقداس بمعبـــد الالـــه بتاح المكتـــشف هـــو نفسه حديثا على الحـــدود الغربية لأســـوان، حيث كان المتحف يرقد تحت طبقات من الرمال المتحجرة والتى قد غطته لآلاف من السنوات واكتشفه عالم المصريات اليابانى جونى اكوروساوا أثناء تنقيبه عن مقبرة تخص إحدى ملوك الأسرة الرابعة عشر، ويعد من أهم الإكتشافات الأثرية فى العالم، حيث تضم رسائل بالغة الأهمية من عدة حقب متنوعة.. تعد ارثا ادبيا وتاريخيا عظيما، وتعد أهم تلك الرسائل وأشهرها على الاطلاق هى تلك الرسالة المسماة بـــ(رسالة يوسف) وهى هذه الرسالة التى يرى البعض أن لها صلة بالمجاعة الكبرى التى كادت أن تجهز على البشرية جمعاء؛ لولا فكرة (السيد) التى تمكنت من إنقاذ البشرية من الفناء، وبربط تلك الرسالة برسالة آخرى لأحقة

عيها نكتشف أنه كانت هناك ربما ثمة فرصةٍ عظيمةٍ لتجنيب الإنسانية المجاعة الكبرى، وهى تلك البردية التى خطها ساقى فرعون لزوجه، ليحكى فيها عن الظلم الذى نالهوالمحنة التى قـــد تعرض لها على يد الفرعون وفترة سجنه وتعرفه على الرجل الأجنبى المدعو (يوسف) وكيف أنه قد ساعده وفسر له حلمه، وكيف تحقق كل ما قاله له، ويحكى فى رسالته أنه اخبر فرعون عنه حين فشل المنجمون والسحـــرة والمفسرون، فى تفسير حلم الفرعون السابق على المجاعة الكبرى، وكانت المفاجأة هى اكتشافهم انتحاره منذ حوالى ثلاثة اسابيع فقط، وكيف يؤكد الساقى أن يوسفالأجنبى هو الوحيد الذى كان له – لو كان مايزال على قيد الحياة ساعتها– أن يفسر الرؤية للفرعون، ويقصد بها الحلم المنحوت على الجدارية الأمامية من المعبد، والذى الأن نعتقدفى أنه ربما كان رؤيةٍ مشفرةٍ آتية إلينا من الكون لأنقاذنا؛ لكننا ولسوء الحظ لم نتمكن من تفكيك رموزها.. لنكتشف اليوم ضياع فرصةٍ حقيقيةٍ على البشرية، ومن المؤكد كذلك أنه لكان الكثير قد تغيرفى تاريخنا، بل وحاضرنا، لو اننا قد تمكننا من

تفادى تلك المجاعة الكبرى، التىقد قسمت البشرية والتاريخ اجمع.. إلى تاريخ ماقبل المجاعة، وتاريخ ما بعد المجاعة.

مجلة المصريات

الصــــــادرة مــــن العاصمـــــة الغربيـــة

30/ 6 /3550 مجاعية

17

سرى للغاية

تقرير مخابراتى رقم (an346)

المخابرات الأممية

الشرقية

بسم الحيوانية التى ننتمى إليها جميعا

أولا/ من الملاحظ لأعيننا فى الفترة الأخيرة ازدياد مستمر فى دعوات عبادة الاله مرة اخرى، سواء كانت هذه العبادة مقدمة لالهٍ واحدٍ كأله الإبراهيميين، أو لعدة الهة كالالهة الهندوسية، التى تحاول الظهور على خشبة المسرح من جديد، لذلك لزم إحاطتكم علما بما يجرى على الأرض ورصدته أعيننا.

ثانيا/ لذلك نرجو وئد الفتنة فى مهدها؛ بإلقاء القبض وإعتقال كل من يتكلم أو يكتب أو يبشر أو يدعو أو يذكر أو يشير أو يرمز أو يحرض أو يحض على فكرة الاله مرة اخرى، ونخص بالذكر التركيز على الجهات

الاتية: (المدرسين فى المدارس والجامعات، الصحفيين فى الجرائد المستقلة الإلكترونية، القائمين على النوادى الرياضية والإجتماعية بل وحتى النواد الجنسية، صفحات التواصل الجديدة الغير مفلترة) كما نرجو من طرفكم دحض اكتشافات اليابانى جونى اكوروساوا واظهارها كونها لا تتعدى فرقعات إعلامية، وفبركات وتلاعبات بالحقائق التاريخية الراسخة التى أقر العلم الحديث صحتها وحقيقتها، وإنها لا تخرج عن كونها دعوة ثانية للتمسك بالخرافة، كذلك معاقبة مجلة المصريات برئيس تحريرها وكاتب المقال و رئيس بابه، وتنزيل مقالات اخرى فى نفس العمود، ومِن نفس الكاتب تؤكد تكذيبه للمقال الأول و عبثية افكاره و التحقير من اكوروساوا.

ثالثا/ يمنع طبع أو نشر الخطاب المسمى بـــ(رسالة يوسف) بأى وسيلة من وسائل الطبع أو النشر أو التوزيع؛ لما فيه من ضلال مبين، ودعوة صريحة للوثوق فى القدريات والروحانيات، والرجوع لفكرة الاله مرة اخرى.

رابعا/ نحيطك علما بأننا – وتحت ضغط البرلمان الجديد، وبالرغم من محاولاتنا القوية المستمية لألغاء الأمر أو حتى على الأقل تعطيله – على مشارف أصدار قانون جديد يمنع نهائيا وتماما تناول لحوم البشر حتى ولو كانوا من السود أو الصفر أو الاطفال دون الرابعة عشر، وذلك فى اطار اتفاق – غير معلن – بيننا وبين الليبراليين لمساندتنا ضد دعاة الاله الوحد، ودعاة تعدد الالهة على حدا سواء.

<u>ملحوظة ختامية/</u> يرجى التأكد من أن مبعوثينا – وكذلك مبعوثيكم إلينا – من حملة الوشم المخابراتى الأممى، تنفذ الأوامر الواردة فى تلك الرسالة فور وصولهاإليكم.

هنا بدأ الصراع بين شركة التــرقـــــوة المسماة بـــ(المفتاح الصغير) كبرىالشركاتالعملاقة فى الشرق للإستيراد والتصدير والاتجار فى اللحوم السوداء – التى يعتمد عليها الغرب كليةٍ وتعتبر عامل أساسىلأمنه الغذائى – وبين بعض أعضاء كتلة

الليبراليين فى البرلمان –برلمان الأزمة كما اطلق عليه فى صحف تلك الفترة – كانت المعركة قد بدأت بين رئيس إدارة الشركة وعضوها المنتدب مستر ار. تى الخرطومى من ناحية، ومن الناحية الآخرى باتريك. جى السكندرى رئيس كتلة الليبراليين البرلمانية وهو المحامى الاسطورى الذى كان قد خاض العديد من المعارك القضائية الشهيرة.. ويعتبر المحام المثلى الجنس أول من طالب قضائيا بالغاء بعض أعنف القوانين على مر العصور، انتصر للحريات.. كقانون الحق فى الاتجار وتعاطى المواد المخدرة والمسكرة.. ونجاحه هو وكتلته البرلمانية بمساندة من المستقلين فى الزام الحكومة بتنفيذ حُكم قضائى نهائى مُوجِب بإبطال قانون التناول والاتجار باللحوم الأدمية.

لذلك قد لقبه رجل الشارع بلقب (المحامِ الاسطورة) لكنه وفى تلـــك المرة قد اقترب أكثر مما ينبغى، أكثر مما قد قدر له و أن يقترب.. اقترب من الأمن الغذائى للغرب من ناحية، ومن بعض أشرس رجال الأعمال الفاسدين على مر التاريخ الحديث، كان باتريك راقدا فى فراشه حينما رن هاتفه الجوال معلنا عن قدوم رسالة له، كانت الرسالة من (لا رقم) وهذا الغريب فى الأمر.. شعر بأنقباض فى صدره حينما فتحها..

"من يقترب من الشمس.. يحترق، وقد اقتربت بما يكفى"

قام منطورا ليطمئن على عشيقه فوجده يطل من المطبخ المفتوح على الصالة يُحضر الفطور مبتسما.

لكن مؤرخى التاريخ الحديث يؤكدون – أو على الأقل أغلبهم– أن البداية الحقيقية للأحداث كانت مع ظهور (رسالة يوسف) على سطح الساحة الثقافية والإجتماعية وما تبعها من مهاترات ونقاشات ومقالات–لم يستطيع أحد أن يوقفها– بشأن هذه الرسالة والرسائل الآخرى المكتشفة معها..

لكن قله من المؤرخين يزعمون بأن البداية الواقعية للأحداث جائت من خلال المداخلة التليفونية المشيئومة التى اجراهاباتريك. جى السكندرى مع البرنامج الإقتصادى.. البرنامج الذى قد اعتاد على استضافة مستر ار. تى الخرطومى بشكل دورى فى اخر كل سبت من نهاية كل الشهر.

الـــــشـــــاعـــــر والـــــقـــــاص والـــــروائـــــيـــــة

المجموعة الثانية من الأوراق

ملاحظات شكلية/

فى ورق مطبوع، مترب، وقد اصفرت أطرافه، العبارات بالبنط الغامق جاءت هكذا مضافة إلى النص.

وقف أمام كافيه ورستورأن " شوبان " بوسط البلد لبرهةٍ–والذى كان صاحبه يفتخر دوما فى كل جلساته أن **فريدريك شوبان** لا ينقطع عزفه أبدا ومطلقا من الكافيه– ثم مرق إلى داخله من بابه الزجاجى المُفيم.. لم يكن مقررا للقاء أن يتم بالداخل، بل كانا قد قررا مسبقا أن يتقابلا فى تمام التاسعة أمامه، ليذهبا مباشرة لمقابلة الناشر، حيث يقع دار النشر الذى يمتلكه على بعد عدة نواصى من شوبان، لفحته موسيقى شوبان الشابة الثائرة أول ما وأن دخل، جلس إلى منضدة مجاورة للسياج الزجاجى تمكنه من رؤية القادمين، نظر فى ساعة يده فوجدها ماتزال الثامنة وخمس دقائق، ما أن توجه بنظره إلى النادل حتى جاؤه الأخير متابطا إحدى الصوانى الفضية، قال النادل بإبتسامة متمرسة مطبوعة على وجهه:

- اؤمر يا فندم.
- لو سمحت هاخد سلطانية رُمان بكريم شانتيه.

- للأسف يا فندم ماعندناش رُمان، ممكن حضرتك تبص على المانيو لو حضرتك تسمح.
- لا خلاص، شاى أخضر.
- حاجة تانية يا فندم (انحنى النادل نصف انحناءة).
- لا شكرا.

نظر إلى الحقيبة الصغيرة التى قد وضعها على الكرسى المجاور له، وبشكل لا شعورى تحسس جلدها الخشن بكف يديه؛ فأقشعر بدنه لذلك وشعر بشعيرات قفاه تنتصب، فى تلك اللحظة بالتحديد طارت من ذهنه كل الامور والاشياء عدا الرمان بكريم الشانتيه.. اغتم، شعر أن العالم أجمع يضطهده، يقف ضده، ضد رغبته الوحيدة، رغبته الأكيدة فى الحياة كلها، حبات الرمان الحمراء وعليها كريمة الشانتيه بالفانيليا المثلجة، وملعقةٍ فضيةٍ صغيرةٍ، أو لو حتى كانت بلاستيكية، ليست هنا تكمن المشكلة.. هذا كل ما فى الأمر، هل هذا بالكثير؟! إنها رغبته الأكيدة والوحيدة من العالم كله الآن، فكما أن عيسو قد باع بكوريته قديما بصحن من العدس؛ فهو الأن على تقبل تام لبيع اى شيئ، اى شخص، اى فكر، اى ايدلوجية، واى معتقد مقابل سلطانية من حبات الرمان مغطاة بكريمة الشانتيه.. شعر أنه قد أصبح على اخره، كان على وشك البكاء، وضع مرفقه مستندا على

حافة المنضدة، وقام بتروٍ مقاوما أن تفر دمعة من مقلتيه أمام المتواجدين، سأل نادل آخر عن مكان المرحاض؛ فأشار له الأخير على إتجاهه، ذهب إليه هذه المرة مهرولا كأنه مهاجم من اسهالٍ طارئٍ، مرق إلى أحد الحمامات، وأغلق عليه بابه.

21

جلس على المقعد، وراح فى البكاء، إلى أن علٍ نشيجه، خرج شاب من الحمام المجاور له ووقف لبرهة متحيرا، الا أنه سرعأن ما تشجع وطرق عليه الباب قائلا:

- فى حاجة يا استاذ؟!
- ايـــــوه؟
- حضرتك تعبان يا استاذ، اندهلك حد من بره؟
- لأ لأ أنـــا كويس.. أنا كويس.

خرج الشاب ومر صامتا من أمام عامل النظافة، وإتجه إلى منضدته وبجوار أصدقائه جلس، متحيرا ساهما، هل يخبر احد النادلين؛ ام يصمت.. لكنه حسم امره –كما حسمه حين طرق الباب– وإتجه صوب نادل ينزل طلباتٍ على مقربةٍ منه وأخبره عنه.. إتجه النادل بدوره إلى الكابتن – رئيسه المباشر– واخبره عن الأمر، فسحبه الكابتن من يده واتجها سويا إلى المرحاض،

مرا على عامل النظافة فأمره الكابتن أن يبقى لازما لمكانه.. كان ما يزال يبكى لكن بصوت هامس، وكانا هناك حمامان مغلقا الأبواب، وقفا الكابتن والنادل متحيرين؛ أيهما به يا ترى الرجل الذى قد جائا من أجله، وخلف اى من البابين تكمن المشكلة، فأمر الكابتن النادل أن يلصق اذنه بالباب عل وعسى؛ فعلى الفور أطاع.. والصقها على الباب الأول، فسمع صوتٍ نسائيٍ يشدو مترنما بأغنية سيد درويش (اهو ده اللى صار/ وادى اللى كان/ مالكش حق تلوم علىّ).. كان أعذب صوت قد سمعه النادل طوال حياته.. فقاوم النادل رغبة صادقة فى أن يلتصق بهذا الباب إلى الابد وإنسحب مسرنم إلى حيث يقف الكابتن، وهمس له شبه ممغنط:

- أنه ملاك ينشد.

نظر إليه الكابتن شذرا، ثم وكزه بكوعه فى جانبه كى يفيق، وذهب بنفسه تلك المرة ليلصق اذنه بالباب، ويستمع، فركز كل أعصابه فى اذنه الملاصقة، اشرأب على أطراف أصابعه ليلتقط أى صوت.. أى همسة، أى خروشة؛ فلم يستمع شيئا، فأثقل بجسده على الباب ملتصقا بالأكثر، حتى كاد أن يفرغ الهواء بين اذنه ولحم الباب الخشبى، وهنا لاحظ خروشةٍ تشبة صوت

إنغلاق أو إنفتاح سوستة البنطال، وفجأةٍ إنفتح الباب؛ فسقط الكابتن على وجهه إلى الداخل.. فيما خرج عجوز أصلع يتقافز، مرتديا نظارة كعب كوباية، ويمسك بيده موبايل يشدو بصوت **فيروز** الملائكى.. صرخ العجوز من الخوف، وصرخ الكابتن من الصدمة والخوف، فيما بقى النادل على وضعه مسرنم كما كان.. ما أن سقـــط الكابتـــن، حتى فز قائما وكأنه

22

مصنوع من المطاط، فيما هرول العجوز خارجا؛ توجه الكابتن إلى الحمام الثانى مطرقا بقوة على بابه.. لبرهة أيضا لم يستمع لأى صوت، شعر بسكون مطلق يحيط به، ثم جاؤه صوت صارخ من الداخل:

- انا اتسميـــــــــــت.
- بتقول ايه يا استاذ؟!
- الشاى الأخضر اللى شربته كان مسموم، أنا بموت.
- يا نهار إسود!!

هنا التفت الكابتن إلى النادل؛ ولكزه ثانيةٍ فى جانبه صارخا فيه أن يفتح الباب، فحاول النادل لكنه لم يستطع؛ لأن الباب كان مغلقا من الداخل.. تفاجئ الكابتن بنفسه يطرق الباب بكلتا

قبضتيه وهو يبصق على النادل الواقف بجواره، ثم لمافشل فى فتح الباب؛ قال مخاطبا من بالداخل وهو ينهج ويشر عرقا من جبينه:

- يا استاذ ساعدنا.. افتح الباب من جوه.
- مش قادر.. بموت، أنا اتسميت.. آه يامه.. آه يا با.. أنا بموت.

خرج الكابتن بنفسه هذه المرة ليستدعى أى واحدٍ من طاقمه من شأنه المساعدة فى هذا الموقف الأغبر، فيما تبعه النادل.. فلم يتبقى فى المرحاض غير الشاعر وبابه منغلق عليه، نظر لأعلى فوجد السماعة التى تبث موسيقى شوبان حتى فى المرحاض _من حق الأغنياء إذن أن يتبولوا و يتبرزوا على مقطوعة من الموسقى المناسبة للحدث – ولكن هل أنغم شوبان هى الموسيقى التصويرية الملائمة للحدث؟! أخرج الشاعر ذاته من دوامة تلك الأفكار العبثية محاولا التركيز على الوضع الراهن.. ففى غضون بضع دقائق سيتواجد هنا جمعٍ كبيرٍ وسيكتشفون أنه سليمٍ معافٍ، وأن كل ما قاله لا يتعد الادعاء الكاذب السخيف.. تصور نفسه وهو يُطرد عشرات المرات شر طردة ويلقى به إلى قارعة الطريق، أمام المارة بالشارع، وانه وفى كل مرة

ستصادف وأن يتواجد بلياتشو يعبر الشارع، وسيضحك عليه حتى يقع على ظهره ارضا ويرفس بقدميه فى الهواء، ثم ينهض منطورا ليأتى إليه وهو ملقى على الارض ليضرط فى وجهه.. تلك كانت هى اللحظة الأكثر رعبا التى قد تعرض لها طوال حياته.. فلا يجب وأن يسخر منه احدا ايا من كان، أو أن يطرده احدا ليلقى به على قارعة الطريق أمام المارة، ليأتى ذاك البلياتشو اللعين ليضرط فى وجهه ساخرا منه أمام الجميع.. خاصةٍ وحين يبقى معه ثمن المشروب.

فكر قليلا.. وقـــادته أفــكـــاره إلى أنه لا مناص من بعــض الترجيـــع حتى يُسبـــك الدور

23

عليهم؛ حاول أن يُرجع فلم يستطع.. حاول جاهدا، وضع اصبعه فى حلقه؛ فلم يستطع.. حاول أن يتذكر اى شيئ مقرف عله يساعده؛ فلم تسعفه ذاكرته،وهنا وجد نفسه فى خانة اليك، أصبح ولا بد من أن يضع يده فى عين المرحاض ليقرف نفسه، أنه يبحث عن اى درب من دروب الاشمئزاز عله يقوده فى نهايته إلى القئ المرجو، ففعل كذا مرة؛ لكنه أيضا– ولسوء الحظ – لم يستطع، ولم يمكنه هذا كله من الاستفراغ.. عاود البكاء–لكن

هذه المرة لعدم قدرته على التحكم بجسده –ضرب الحائط بقبضة يده؛ فنفذت يده مــن الحائط الخشبى الرقيق المدهون باللاكيه الأبيض إلى الحمام المجاور له، وهنا فقط تأكد من أن مشكلته تتفاقم ببقاؤه فى هذا الحمام،سمع صوت الكابتن مطمئنا ومشجعا؛ إذن لقد عاد.

عاد الكابتن وحيدا هذه المرة، بعد أن أخبره مساعد الشيف الشاب، أنه كان يعمل صبى نجار فى صغره، وأنه سيجد أية عدة ليستعين بها، وسيحصله حالا، وقف الكابتن يشتِم غاضبا ويصدر أصوات من فمه احتجاجا على تأخر مساعد الشيف، لكن ما أن آتى مساعد الشيف – بكامل طاقمه الأبيض وبطاقيته العالية المنفوشة – مصاحبا للنادل؛ حتى دخل فى اثرهم احد الزبائن وهو يفكك من حزامه وينزل بنطاله، ليسقط لباسه الداخلىمهرولا إلى احد الحمامات – تصادف أن يكون الحمام ذا الثقب فى حائطه،اى الحمام المجاور لحمام الشاعر – صارخا فى غير وضوح:

- أنا اتسميت.. أنا اتسميت.

شعر الكابتن بسخونةٍ فى اذنيه وقفاه و مؤخره ورأسه، وأحس أنه على وشــك أن يفقد وعيه، فياله يوم من دون الأيام أغبر..

حاول أن يذهب إلى الرجل فوجده مايزال يتأوه ضاربا – هو الآخر – الحائط الخشبى الرقيق بيده، ويحاول جاهدا أن يتبرز لكنه وفى كل مرة يفشل.. هذا فيما كانت **البريلودز لشوبان** تصل إلى ذروتها،مع العلم أن كل ذلك كان يدور والباب مايزال مفتوحا، فالرجل لم يشده وراءه، ثم أطل منه باكيا متشهنفا مرددا "اتسميت، أنا اتسميت" اقترب منه الكابتن أكثر، محاولا طمأنته –وليشاهد كذلك ما يحدث بالمرة– فقام الرجل منطورا من على القاعدة وتحرك كالبطريق –حيث كان البنطلون وما تحت البنطلون قد اصبحا فوق الحذاء مباشرة يقيدون حركته– بيد أن الكابتن قد تراجع خطوة إلى الوراء.. فرجع الرجل مرة اخرى إلى قاعدة الحمام وأخذ يحزق بشدة إلى أن أحمرت اذنيه و وجنتيه، ضرب الحائط الخشبى ثانيةٍ بقبضة يده؛ فاخترقت يده الحائط ومرقت إلى حيث الشاعــر فى الحمام المجاور له،ولما راى الشاعر تلك اليد التى تطاولت، وتجاسرت، واختــرقــت الحائط– الــذى اصبح يميــزه بالمناسبة ثــلاثــة

24

ثقوب كل ثقبٍ منها فى حجم قبضة اليد – جن جنونه؛ فأمسك اليد المعتدية بقوة، وتشبث بها؛ فصرخ الرجل فى رعب معتقدا

أن شيطانا قد أمسك به؛ وقام منطورا مرةٍ آخرى– وكانا النادل ومساعد الطباخ يقفأن مبتعدأن عنه –فتقافز الرجل مرتعبا كالبطريق؛ ثم وقع على وجهه صارخا ساقطا على الكابتن الواقف أمام الباب، والذى بدوره هو الآخر قد تحول إلى الصراخ من الخوف والمفاجأة، وقبل أن ينهضوه العمال– النادل ومساعد الشيف – كان الرجل البطريق قد أحدث نافورة صغيرة حيث تبرز على الكابتن وأغرقه من برازه السيال،فيما وقف الشاعر متبسما –ابتسامة صفراء– حين فتح باب حمامه وخرج، ليجد نفسه فى موقف سريالى تماما،

اشبه بإحدى اللوحات السريالية الإيروتيكية من بدايات القرن المنصرم..

رجلٍ واقفٍ–وبين قدميهرجل اخر راقدا – مستندا على نادل وطباخ، والطباخ بيونيفورم كامل،ومرتديا طاقيته البيضاء، والرجل عارٍ من أسفلوبنطاله ولباسه معلقين أعلى حذائه، وفخذيه متسخيــن بالخراء تماما.. فيما كان الرجل الملقى على الارضية مغطى بالخراء هو الآخر من صدره وحتى ركبتيه، مرتديا بدلة كاملة بالبابيون الأحمر.. شعر بحرقان فى جوفه،

اضطراب فى معدته، وبشعورٍ لا يطاق من القرف والغثيان، زائد رغبة عارمة لا مثيل لها فى القئ.

فكما كان منذ عدة دقائق كل ما يتمناه هو الاستفراغ؛ كان يكافح جاهدا الا يحدث هذا الاستفراغ الآن، وضع كلتا يداه على فمه، واخذ فى التجشؤ، ثم وبجهد جهيد استطاع أن يتمالك نفسه لثوانى معدودة؛ ومن ثم استفرغ كل ما قد ابتلعه مذ الصباح على الكابتن المسطح ارضا.

جلس الكابتن على الارضية وقد غطاه ما قد غطاه.. ظل يضرب بيديه الارضية ويرفس بقدميه فى الهواء، وهو ينطق بعباراةٍ غير مفهومةٍ، بعضها شبية بالفرنسية ثم قال صارخا:

- أنا، أنتوا.. سايبنى أنا.. سايبنى كده؟!

وهنا هرولا إليه النادل ومساعد الطباخ، تاركين الزبون فى شبه حالة اغماء، ونصفه الأسفل عاريا متسخا، بعد أن اسقطا الزبون على الارض، وذهبا ليقيما كابتنهما، حين دخل زبون اخر صارخا وهو يزبد و يرغى:

- أنا بموت.. الأكل كله مسموم.. أنا مخنوق، أنا بموت، أنا اتسميت.

كانا النادل ومساعـــد الطباخ قد اقاما الكابتن نصف قومةٍ؛ لكنهما ما وأن دخل الزبون

الأخير؛ الا وقد تركاه ليسقط ثانيةٍ.. متجهين صوب الزبون الجديد، الذى اخذ يردد الشهادتين، وهو يبكى ومن برهةٍ لاخرى تتخلل جملتى الشهادة كلماتٍ غير مفهومةٍ، اتضح أن تلك الكلمات هما كلمتين اثنتين فقط سوسو و نونو فقد كان يحاول أن يخبرهم أنه يريد رؤية صغيرتيه قبل أن يفارق الحياة.. هدأ الرجل قليلا ثم بدأ يردد قائلا "هموت، مخنوق، اتسميت" فأسرع النادل ومساعد الطباخ –الذين قد تعاطفا معه كليةٍ– يفككا له ازرار الجاكيت، فالقميص، إلى أن ارقداه ارضا بالفالنـــة الحمالات البيضاء ماركة الشوربجى، ومازال الرجل يردد من دون انقطاع ولا تغيير "هموت.. مخنوق.. اتسميت ،،.

فيما وقف الشاعر منزويا فى ركن المكان، مبتسما فى حبور لكل تلك المواقف السريالية التى تحدث من حوله، التى وأن كان لا يفهمها مطلقا الا أنه يقدرها حق تقدير.. فما الذى يحدث؟! فهو أول من ادعى أنه قد تسمم من الشاى الأخضر، وهو حتى لم يذقه، أو يرتشف منه ولو رشفةٍ واحدةٍ.. حتى أنه اساسا قام

قبل أن يأتيه الشاى إلى منضدته.. وهكذا تذكر بيتين من الشعر لـــــ **تى. اس. اليوت**من **الأرض الخراب**.. يقولان:

يـــخـــيـــل الـــىّ انــــّا فـــى زقـــــاق الـــفـــئــــران

الــــذى فـــقـــد الـــمـــوتـــى فـــيـــه عـــظـــامـــهــــــم

ظل يرددهما، أو لعلها يترددا وحدهما هكذا فى سريرته لمئات المرات المتتاليات. قام الكابتن هذه المرة بقوته الشخصية معتمدا على نفسه، واتجه إلى حيث المرآة العريضة التى تغطى الحائط العريض المقابل لأبواب الحمامات، ذهب إلى إحدى الحنفيات واخذ من مياهها فى محاوله لتنظيف ما يمكن تنظيفه، لكنه لم يجد الا أن الطين يزداد بلةٍ مع كل محاولة؛ فقام بخلع البابيون الأحمر وتشممه، فالجاكيت وتشممه، فوجد تحته القميص متسخا أكثر من الجاكيت؛ فخلعه هو الآخر متشمما إياه، ثم نظر إلى الفانلة الحمالات التى كانت يوما ما من الأيام بيضاء.. وكاد أن يبكى؛ فخلعها كذلك، ثم خلع البنطلون ووقف بلباسه التحتانى المتسخ هو الآخر لكنه ابقى عليه ثم وفجأة مرق إليهم من الخارج نادلا اخر مهرولا مفزوعا، ليبلغه أن الزبائن بالخارج هائجة، احدهم يطلب الشرطة والآخر يطلب الإسعاف؛ لانهم

يعتقدونأن الطعـــام مسمم، وأن اللحم الذى قــد تناولــوه لحم حمير، وأن الدجاج ما هى الا قطــط!

26

ما أن سمع الكابتن بهذا؛ الا وقد انــدفع خارجا.. عــارٍ من كل ما كان يرتديــه عــدا لباسٍ متسخٍ بالقئ والخراء، وبابيونه الأحمر الذى كان قد ارتداه على عجل حين هم بالخروج..كان يجرى بين المناضد، راسما على وجهه ابتسامةٍ محترفةٍ ودودةٍ، متكلما بكل هدوء – مطعما جمله ببعض العبارات الفرنسية المجاملة – محاولا أن يطمئن الزبائن ويهدئ من روعهم.

كان منظر الزبائن وهم يجرون، مهرولون، مندفعون من باب المطعم، على موسيقى مقطوعة **فيونيرل مارتش** funeral march مشهد نادرا لا يراه المرء كل يوم.. فكأنهم يصورون فى لوكيشن **لـــــسبيلبرج**، فيما جلست عجوزٍ – تعدت السبعون – وحيدة إلى مائدتها، كما هى، ومن حولها الموائد فارغة، والكراسى مقلوبةٍ على الارض، والصحون المهشمة تملأ المكان عن اخره، نظرت فى دلال إلى الكابتن – الواقف على حافة مائدتها – وقالت غامزةٍ بعينها:

- سو كيوت، سو سيكسى.

حينما عاد الكابتن إلى المرحاض ثانيةٍ، وجد أن الزبون البطريق كان قد ارتدى ملابسه، ووقف ليستعدل من هندمة نفسه أمام المرآة.. فيما راى الزبون الآخر مايزال مرتميا على الارضية، وأن كانت رأسه متدلية على فخذ النادل، فيما كان مساعد الطباخ – جاثيا على ركبتيه – عند قدميه.. وثلاثتهم يبكون، فيما كان مساعد الطباخ يتشهنف مرددا:

- هتعيش يا ابو نونو، هتعيش يا ابو سوسو.

والزبون يردد دون إنقطاع:

- هموت، مخنوق، اتسميت.

فيما بقى النادل يربت على كتفيه، ويمسد له شعره، ويرتل:

- اهو ده اللى صار/ وادى اللى كان/ مالكش حق تلوم علىّ....

حينما خرج الشاعر متأبطا حقيبته الجلدية، مدفوعا بالزبائن الخارجين، الهاربين من التسمم، أو من العرى، أو ربما من اى شيئ اخر غير مفهوم، كانت سيارات الشرطة والمطافئ والإسعاف قد اقبلت على شوبان.. فيما كان صديق الشاعر قد

جاء هو الآخر يتبختـــر من بعيـــد متجه إلى حيث المكان المتفـــــق عليـــه؛ لكنــــه فوجـــئ بالشاعـــر

يهرول مع الآخرين هربا من المطعم؛ فتوجه إليه مندهشا مستفسره عن الأمر، فتأبطه الشاعر ساحبا إياه رجوعا إلى حيث الجهة المقابلة لدار القضاء العالى و وقفا عند محل عصير محروس المقابل له يحتسيين السكلانس ويلتقطين انفاسهم.

أخيرًا اخبر الشاعر صديقه بما قد حدث.. حيث أنه لما وجد نفسه قد بكر قليلا مرق إلى داخل شوبان، وكان جالسا إلى مائدته يتناول سلطانية من الرمان الأحمر بكريمة الشانتيه فى اجواء عادية رتيبة، وإذ فجأةٍ تحلق فوق رأسه ذبابة سخيفة، تـــزن وتزن زنًا سخيفً.. ومن ثم تسقط غارقة في السلطانية؛ فيشعر بالقرف والاشمئزاز من الطعام ومن شوبان، ومن كل شيئ، ويقرر الخروج فورا.. لكن القدر لا يمهله إلى أن يخرج، ليهرب من هذا المكان المقرف.

فإذ يغزوا هواء المطعم عشرات الذبابات اللتى يحلقن فوق الرؤوس.. هذا بالطبع ما يستدعى حالة من الاشمئزاز والنفور من عموم المتواجدين، فكيف يكون هذا؟! فمن المفترض أنه

مقهى ومطعم محترم كما هى سمعته الشائعة.. كانت اعداد الذباب المحلق تتزايد بأستمرار، وسرعة فائقة، حتى غطى كل شيئ وكل احدٍ، اختنقت الأجواء واظلمت الدنيا.. تصايحت النسوة، واخذ الرجال بالضرب باللكمات والتشليتات، ومع حالة الهلع وحلكة الظلام تلك قد تحول الجمع إلى أن يضرب فى بعضه البعض بدلامن أن يضرب فىالذباب، لكنه وبوحى لا يعلم مصدره وجد نفسه قد ارتمى على حقيبته- التى تحمل قصائده- واطبق عليها محتضنا إياها بقوة وبجنون، من ثم قام هو الآخر واخذ يشلت و يلكم كل من حوله.. وفجأةٍ ذهبت عنهم جحافل الذباب، كما قد جائت فجأة.. ذهبت إلى حيث لا يعلمون؛ فهرب الجميع إلى الخارج وهم يبكون، ويصرخون مرتعبين ومرتعدين، وعلى الباب قابل صديقه فى الميعاد المتفق عليه سلفا بينهما.. عند التاسعة تماما.

ولما انتهى من الحكى، كان قد صدقه صديقه تماما، كان كل ما حدث لا يتعدى حد الطبيعى والمألوف.. فذهبا سويا متجهين إلى الناشر.

تمشيا الشاعر وصديقه عائدين إلى حيث دار النشر، اثناء عودتهم مرا أمام شوبان ثانيةٍ، كانت سيارة شرطة واحدةٍ

مازالت تقف أمامه، وكان قد مر ما يقرب من النصف ساعة، سمعا احد باعة الكتب المفترشين الرصيف المقابل له، وهو يخبر صديقه أنهم قد عثروا على متفجرات بالداخل وتمكنوا من إبطال مفعولها، خلف الصديقين شوبان من ورائهم، واتجها إلى إحدى العمائر القديمة بوسط البلد، والواقعة على بعد عدة نواصى منه.. واحــدة مــن تلك البنايات ذات الأسقــف العاليـــة

والمبنية فى العهد الإسماعيلى على النسق الفرنسى، مرقا من بابها الصغير وصعدا على سلمها الرخامى الملتف إلى طابقها الأول حيث يقع دار النشر.

كان بابها مفتوحا، مردودا.. باب من ضلفتين خشبيتين قديمتين، علق عليه لأفتتين إعلانيتين، أولهما لدورة فى كتابة السيناريو يلقيها سيناريست خمسينى شهير، والإعلأن الثانى عن كتاب جديد أصدرتهدار النشر لكاتب عربى يتعامل معها لأول مرة، ما أن دخلا من بابها حتى وجد الشاعر إنها مكتبة أكثر منها مكتب، حيث رُصت الكتب على ارفف خشبية من الناحيتين، ووضع مكتبً صغيرً مقابلا للباب، وبجوار المكتب القيت اوراقا لكتب

غير مطبوعة علت من الارض وحتى السقف، ثم أتجها إلى اليمين، حيث مرقا إلى قاعة اخرى، فى اخرها مكتب الناشر، وعلى جانبى المكتب وضع مقعدين، بعدهما رُص انتريه مهربد من كثرة الإستهلاك، كانت الدار قد امتلئت بالعديد من اللوحات التى علقت على جدرانها، احدهما لوحة كاريكاتورية تجسد مالك الدار، واخرى لشاعر شهير، وباقى اللوحات عبارة عن نسخ تقليدية من لوحات سريالية شهيرة، اغلبها **لـــسلفادور دالى..** وتقليد لبورتريه ذاتى **لاغوان شيلى..** بالإضافة إلى لوحة غريبة.. وسر غرابتها فى انها تقترب من روح أعمال **اغوان شيلى** وكأنها نسخة اخرى من لوحة **الاسرة او(العائلة)** التىقد رسمها فى 1918، الا انها نسخة مختلفة.. نسخة غريبة، ليست مقلدة، وليست أصلية، كأنما ربما كانت بروفة للوحة الاسرة بيد شيلى نفسه.. كأنها رؤية مختلفة لنفس الفنأن ولنفس الموضوع.. مثيرة، من ينظر لها ولو نظرة واحدة تستحوذ عليه كليةٍ، تلك اللوحةقد لفتت نظر الشاعر أكثر من غيرها.. وإستحوذت عليه تماما؛إلى أن استطاع تدريجيا أن يسحب تركيزه منها، و ينتبه للحديث شيئا فشيئ.

كان المكان مزدحما عن اخره، لا مكان لقدم فيه فمن تمكن من الجلوس جلس، ومن افترش الارضية قد فعل، ومن لم يستطع

استمع واقفا من مكانه، كان الجمع مُكون من العديد من الشخصيات العامة، من روائيين، وقصاصين، وشعراء، وبعض السينمائيين –اشهرهم ممثل ستينى– وتشكيليين، وصحفى شهير بجانب أنه قد تحول إلى مُقدم لبرنامج فضائى فى الاونة الاخيرة..

حينما دخلا كان الجمع يصخبون ويصفقون بقوة وحبور كبيرين.. ثم سمعا أحدهم يقف بجوار المكتب قائلا:

- اهدءوا يا جماعة.. لا نستطيع أن نستكمل كلامنا هكذا!

تعرفا عليه على الفور؛ فهو ذاك القاص الشاب الذى قد صدرت له منذ فترة ليست بالبعيدة مجموعة قصصية غريبة بعض الشيئ.. حيث جائت فى تلك المجموعة

عشرة قصص لا يتكلم فى اىٍ منها الا عن النباتات، فأبطال قصصه هى نباتات يحركهن الهواء ذات اليمين وذات اليسار، وتتقلب عليهن الفصول، وتتساقط الأمطار فى الشتاء، وتتيبس وتتساقط اوراقها فى الخريف.. كان الشاعر يرى أنه ممل للغاية، بل أنه أبو الملل الشرعى،وحياة نباتاته مملة مثله، تخلو

من اى شطحات خياليةأو ادخالها فى اجواء من الاسطورية مثلا ككلية ودمنة.. ما علينا من مجموعته القصصية تلك، التى قد نقرأ واحدة منها فى ما هو لأحق.

كان ينز فى عرقٍ؛ فأستعدل من نظارته، حك لحيته المشذبة، ثم تنهد تنهيدةٍ سريعةٍ واكمل حديثه الذى قد قاطعه تصفيق الحضور و صخبهم قائلا:

- اليوم هو 14 يوليو.. ويا له من يوم عظيم، فمذ مايقرب من مائة عام فى مثل هذا اليوم تأسست الدادائية بشكلٍ رسميٍ.. بملهى فولتير بزيورخ، أنا اؤمن أن التاريخ لا يعيد نفسه؛ لكننى اؤمن كذلك أن الانسأن دائما واحد، وما دعاهم فى 14 يوليو 1916 مايزال يدعونا اليوم، فنحن هنا محبوسون كما كانوا هم هنالك.. فشرقنا الأوسط اليوم يتطابق مع اوروبا فى بدايات القرن الماضى، فأين نحن من كل ما حدث، ويحدث من حولنا؟

فالموت من حولنا فى كل مكان..
الدماء من حولنا فى كل مكان..
العفن من حولنا فى كل مكان..

رفاقى ماذا علينا أن نعمل لنعمله؟! انكون ايجابيين ام نبقى هكذا سلبيين؟! ما نحن بصدده اليوم أشنع وأبشع مما كانوا هم فيه وقت الحرب العالمية الأولى،كيف إنحدرنا إلى هذا الحد؟! وكيف تحول واقعنا إلى هذا الخراء؟!

المجتمع مذنب.. الحكومة مذنبة.. الدين مذنب.. الانسأن مذنب.. الفن، (صمـــــــــــت) والفن مذنب هو الآخر،ونحن مذنبون، يجب وأن نبدل، نغير من كل ذلك.

اننا هنا اليوم فى دار كليوباترا للنشر والمعلومات.. ندعوكم من اجتماعنا هذا لأحياء الدادائية العدمية هنا من القاهرة.. من وسط البلد.. الدادائية الافريقية الحديثة.. **فلتحيا الدادائية..دادا..دادا.. دادا.**

ما أن قال هذا الذى قاله؛ الا وقد راح جموع الحضور فى موجة من الصخب والتصفيق اشد من الموجة الأولى وأكثر هياجا.. كان الشاعر قد إنصرف عن التابلوه المعلق وأخذ يصخب هو

وصديقه مع جموع الحضور.. كانت اجواء الحماسة قد اشتعلت فى الجميع.. فنظر الشاعر و صاحبه أحدهم للآخر؛ فإذ بالشاعر يبكى متأثرا بما قد سمعه لتوه، فقال له صاحبه:

- لما تبكى يا رجل؟! أوتعلم حتى ماذا تعنى الدادائية؟!
- لا.. اطلاقا.. لكننى دادا.. اكتشفت فحسب انى احب الدادائية يا رجل.

كانا يقفا فى منتصف المكان، بين المكتب والمكتبة، فى ذيل الحاضرين لكنهما احسا بالطاقة الرهيبة الطاغية التى فردت جناحيها على كامل المكان، تلك الطاقة التى ضاق بها المكان فأصبحت تفيض منه فيضا.. عاود القاص كلامه ثانية:

- دعونى اقرأ عليكم ما قرأه **تريسان تزارا** الكاتب الرومانى مؤسس الدادائية على رفاقه فى بيانهم الأول الصادر فى 14 يوليو 1916 "لقد فقدنا الثقة فى ثقافتنا، كل شيئ يجب أن يهدم، سنبدأ من جديد بعد أن نمحى كل شيئ، فى ملهى فولتير سيبدأ صدام المنطق، الرآى العام، التعليم، المؤسسات، المتاحف، الذوق الجيد.. بأختصار كل شيئ قائم".

ماذا اخذنا من حاضرنا بكل ما فيه، وكل ما قد نشأنا عليه غير الموت والاقتتال؟! بماذا نفعتنا العادات والتقاليد السابقة؟! وبماذا قد نفعنا رضوخنا للحكومات العربية واستبعادهم وتهميشهم لنا؟.. انظروا إلى شوارع القاهرة، أمعنوا النظر إليها.. زحام، تلوث، قهر، ظلم، محسوبية، شللية، رشوة، بلطجة، تحرش، إغتصاب فى الشوارع بـــل وحتى بالاقسام، بماذا نفعتنا الأعراف والتقاليد اليوم؟!.. لا للتقاليد البالية.. لا للعادات القبلية.. لا للحرب لا للفقر.. لا للرأسمالية.. نعم للدادا.. مليون نعم للدادا الافريقية الحديثة.

وهنا مرة اخرى قامت الجموع ولم تقعد.. صخب وحبور لتأسيس الدادائية الحديثة، تحرك احد الروائيين اليساريين الكبار، و وقف مكان القاص الشاب؛

فتزايد الضجيج والتصفيق، ثم اشار الرجل راجيا الهدوء من جموع الحاضرين.. وبالفعل هدأت الموجة إلى أن استقرت أخيرًا.. فبدأ الروائى حديثه ملوحا بيديه:

- "إننا مثـــل ريـــاح غـــاضبة تـــمـــزق ثـــيـــاب

الغيــوم والصلــوات، إننا نهئ لمشهــد

31

الدمار العظيم، التحلل والتشتت، إننا نُعد لنضع نهاية لتلك المرثاة، ونبدل الدموع بجنيات البحر.... دادا محو الذاكرة، دادا محو المعمار، دادا محو الرسل، دادا محو المستقبل، دادا الايمأن الكلى والمطلق بكل اله وجد فى لحظةٍ عفويةٍ". من البيان الثالث للحركة.

نعم يا رفاق نريد أن نقول أن (دادا هى الحل).. نعم يا اسنام الجمال، نعم يا اشرع السفن، نعم يا صحن من الملوخية بالأرانب الحية ذوات الفراء الأبيض، نعم أيتها الجوارب التى لم تخلع من قدمى رحالة لأكثر من عامين، نعم أيها الدادائيون.. **"اننا نبصق على البشرية"**.

لتذهب التقاليد، الاعراف، العادات، والاخلاق الواهية إلى الجحيم.. وكل مجموعة القيود الفكرية والمجتمعية تلك، التى قد ساقتنا إلى هذا المجتمع، حيثالشعب يحيا فى العراء.. بل فى الخراء،إذن لنجعلهم يتذوقون الخراء كما اذاقوه لنا.. الحل فى الدادا.. الدادا خراء، إنها خرائنا.. لنذيقهم خرائنا.

كان الصخب يتزايد ويعلو مع كل كلمة؛ إلى انأصبح الوضع جنونى، ومنبئ أنه فى طريقه إلى مزيد من الجنون.. الجنون الصحيح، الجنون الصريح، وهنا ضرب الناشر بقبضتيه على مكتبه حتى هشم زجاجه، و فز منطورا صارخا:

- **"اننا نبصق على البشرية"**(وبصق بالفعل فأغرق اوجه المقابلين له) فمن الأن فصاعدا نريد وأن نتغوط على كل الالوأن المختلفة لنحكم غابة الفن بأحكامنا و قوانيننا.. نحن قادة السيرك، بأختصار كل ما أريد أن اقوله بعد كل ما قيل اليوم.. اننا نؤسس للدادائية الافريقية الحديثة من هنا،وعلى ايدى نخبة مصرية وعربية من اعلام الفن بمختلف دروبه.. (صمت يفكر لبرهة، ثم اكمل) إن، أن الدادا هى البراز وانتم الطياز.. فأهلا بعصرنا الحديث، نعم لمستقبل دون عنف، دون حرب، أو فساد، أو عنصرية، أو رأسمالية، أو تجار دين، ومن دون رجال أعمال مصاصى دماء الشعب المصري.. مرحبا بعصر الطفولية والبراءة.. لتحيا الدادا.. تحيا الدادا.

ثم اخرج زجاجة شمبانيا من الدرج الأسفل للمكتب وفتحها؛ فأزدادت الجموع صخبا وصفيرا.. وبــدأ فى صب بعض

الكؤوس، فيما فتح القاص زجاجة اخرى، وظهرت علب البيرة، وطفتا على السطح زجاجتين من الويسكى، ثم سحب الممثل الستينى نصف فرش حشيش من جيب جاكتته الداخلى.. و قد رستا علبتين سقارة 12% فى

32

يدا الشاعر و صديقه.. وفى غضون ساعةٍ واحدةٍ من الزمن كان جميع الحاضرين من نساء و رجال فى حالة من السكر، أو التخدير، أو من الاثنتين مختلطتين معا،على كل حال كان أغلب الحضور فى حالة من النشوة قلما يصل إليها احد، كانوا فى منتصف الدرب بين السماء والارض، أو ربما كأنهم مخيمين فى الارض الخلاء التى اقامها الاله بين الجنة وجهنم.. دفع الشاعر سيدة جالسة على احد الكراسى و وقف عليه متطوحا، و قال بصوتٍ عالٍ:

- ليهدأ الجميع.. لتصمتوا كلكم.. ولأنشد لكم قصيدة جديدة.

لكنه ما أن جاء ليلقى قصيدته المزعومة تلك، الا ولم يستطع الا أن يسقط مغشيا عليه فى حجر امرأة جالسة بجواره.. وكانت الروائية العربية.

كان يشتم رائحةٍ غريبةٍ.. رائحة مميزة، لا هى بالرائحة الحلوة، ولا بالكريهة، إنها عرق الأنثى، ليست اى انثى.. بل انثى حقيقية، مزيج بين رائحة الشيكولاتة ورائحة غزالةٍ فى موسم التزاوج، مع رائحة كرائحة البحر؛ لكنها قطعا ليست رائحة البحر.. أو ربما كانت رائحة عادية تماما.. مجرد رائحة عرق ممتزج بالعطر، كالتى تشتمها فى المواصلات العامة.. لكنها _وفى تلك اللحظة بالتحديد – لم تكن كذلك بالنسبة للشاعر.

فحينما أفاق الشاعر وجد نفسه فى عربة ملاهى كهربائية.. تجلس بجواره على المقود تحفة فنية.. كان أول ما قد رآه ابط به شعيرات صفراء ونصف ثدى أبيض لدن، واقعا فى حضنها وهى تقود سيارتها الكهربائية، ومن فينة لاخرى تجذبه إلى حضنها لتعدل من رأسه الملقى على صدرها، بعد كل تصادم مع السيارات المتخبطة،ما أن افاق الا و فوجئ بعربة صفراء يقودها القاص قادما نحوهم، حاول؛ فلم يستطع كبتها، فظهرت شهقة الشاعر، تصادما بعنفٍ وغشمٍ؛ فضُرب فم الشاعر بتابلوه العربة الكهربائية.. فقطع سنه العلوى شفته السفلى،تحسس شفته وتذوق دمه، وبهدوء قال:

- مش عرفة تسوقى ولا تتنيلى (صمــــــت).. هاتينى مكانك.

ابتسمت له المرأة وردت عليه فى لهجةٍ عربيةٍ بالموافقة.. توقفت عربتهم فى وسط الحلبة حيث تتصادم معها باقى العربات، تحركت المرأة أمامه فى حركة اخاذة، لكن وفى كل مرة يقتربا من تبــادل مكانيهما تصدمهما إحدى العربات.بعد تصادم عنيــف

33

اخر؛ اصبحت تجلس على فخذيه متأوهةٍ.. دخل شعرها عبر فمه الدامى، شعر بحرقة فى معدته، وحركة فى صدره، ودقا عنيفا بقلبه، أشار القاص من عربته الصفراء للعربات الآخرى الا يرحموا عربة الشاعر والمرأة.. فتوالت التصادمات التى قيدتهما،وحاصراتهمافى مكانهما إلى أن إنتهى الدور.

توقفت الكهرباء؛ فتوقفت الحركة.. لم ينزل احدا عن عربته، فيما نزلت المرأة من على فخذى الشاعر تاركه له المقود، جالسة بجواره.. وقبل أن يمسك بالمقود كانت الحركة قد عاودت وبدأ دورا جديدا،كان القاص بعربته الصفراء مقابلا له على اقصى اليمين؛ قادما عليه بمهارة محترف.. وكانت عربة

الشاعر والمرأة لا تريد وأن تتحرك؛ كان الكهرباء لم ترجع لها حين رجعت لباقى العربات الآخرى.. وقبل أن تصدمها العربة الصفراء تحرك متفاديا الإصطدام.. كانت السيارة الأن تُهاجم من كل النواحى، لكن الشاعر وفى كل مرة كان يتفادى الإصطدامات فى اللحظات الحرجة، وأخيرًا بدأ فى مهاجمة بعضهم، كل هجماته موفقة، وفى كل هجمة كانت تتأوة المرأة بجواره فرحة مستثارة، قائمة نصف قومة وملوحة بيديها فى الهواء، كذلك كان قائد السيارة التى يشُن الهجوم عليها يتأوه هو الآخر متوجعا، بدأ الشاعر فى استعادة تركيزه شيئا فشيئ، لاحظ أن واقعه قد أصبح كالحلم.. أو ربما الأصوب أن نقول واقعا متأحلم، لم يكن خيالا، فهناك فارق بسيط بين الحلم والخيال، لكنه يظل مدركا له مع ذلك، كان اليوم من بدايته كالحلم، من أول أن إستيقذ الشاعر باكرا، إلى هذه اللحظة فى تلك العربة،راى الممثل الستينى فى عربة حمراء، فضربه بعربته إلى أن ادماه هو الآخر.. ومن ثم تابع الناشر بعربته الزرقاء التى كان يقودها فإصطدم بها.. فأدماه كذلك،ثم ضرب عربة خضراء فأسقط من على متنها الصحافى الفضائى، أصبح الأن جميع السائقون ينزفون فيما عدا القاص، قائد العربة الصفراء، كان جميعهم يتصادمون ببعضهم البعض.. بهيستريا من الفرح

والإثارة المخلوطين بالخوف والرهبة، ما عدا عربتين اثنتين، عربه الشاعر وبجواره المرأة، وعربه القاص الصفراء امامها، كانت العربتين متقابلتين،وكل منهما على وشك البدء فى معركة اخيرة حاسمة، الا أن الكهرباء قد توقفت فجأة، فتوقفت الحركة كذلك؛ وانتهى اللعب إلى هذاالحد، على الأقل فى هذه المرة لهذا اليوم.

- أوتعلم لما اركبتك معى؟! لقد رفضك الجميع، ولكنى قد قبِلتِك.. واخترت أن تركب معى.. متى اخر مرة ذهبت فيها إلى الملاهى؟.. أوتعلم يا صغيرى؛ مــن وقت أن وقفت على الكرسى لتتلــو قصيدتك فسقط فى حضنى؛ وأنا أشعر تجاهــك بنــوع من المسؤولية.. كنــت معك من أول وأن دخــلت إلــى الدار مــع

34

صاحبك، تابعتك.. و رأيت البسمة على شفتيك، والدموع فى عينيك.

أوتعلم.. بأنك تذكرنى بشخصا ما، شخصٍ احببته قديما، كنت اراه كل يوم نحو العام، لكننى لم اراه ولو مرة واحدة طوال حياتى، ولا اظننى اراه، لأنه ببساطة ليس

واقعى، شخصية آكل الخطايا فى فيلم **the order**(2003) الفيلم الذى مثل فيه **Heath Ledger** دور الكاهن.

كل يوم حين يجئ الليل.. بعد أن ينام الجميع، حيث تبدأ القطط فى مواءها المخيف، وتبدأ الكلاب الضالة فى عواءها النابح.. كنت أستيقذ من نومتى، وأذهب حيث مكتبة الفيديو كاست الخاصة بوالدى، واخذ منها **the order**واشاهده.. فى أغلب الأيام كنت اعيده عدة مرات، فى بعض الأيام شاهدته لخمس مرات فى اليوم الواحد، إلى أن حفظته عن ظهر قلب، كما احفظ اسمى، وإلى الأن أقدر على إعادة كتابته تماما كما كتبه **Brian Helgeland**ولو لى أن اخرجه لأخرجته بنفس رؤيته تماما.. لا شيئ ناقص ولا شيئ زائد، هذه الشخصية الأخاذة.. بالتأكيد، آكل الخطايا" وليم عدن ".. تخيل أن تأتى المانيا بمثل هذا الملاك الشيطان **Benno Furmann**آكل الخطايا، كنت فى غم و قهر.. معذبة دوما.. لأن المشكلة الجوهرية باقية.. ولاننى لن اجد وليم عدن ابدا.. فحتى لو تقابلت مع الممثل، فهذا لن يشكل

فارقا، بالطبع سيكون ممتعا، لكنه مع ذلك لن يشكل فارقا.. لقد اردت دوما أن اتقابل مع عدن.. آكل الخطايا. بالتأكيد الفيلم ليس كامل نهائيا فى كتابته، وأن كان ممتاز فى صناعته، لكن فى المجمل أنه آسر تماما.. فأجواء الفيلم تجعلك تغفر كل اخطاء السيناريو، الإنتحار.. أليس هو اروع فكرة فى الحياة كلها، الموت والفناء والهلاك،أليس هذا هو رجاء كل حى من تلك الحياة الطويلة الشقية والمملة.

لكن هناك فارق بسيط بينك وبين **Benno furmann**.. أنه آكل الخطايا، اما أنت فشيئ بداخلى يخبرنى بانك صانع الخطايا.. لكن ما هنالك فى ذلك؟! اليس جميعنا اولاد ادم وحواء صناع للخطايا، إنها الخطية الأصلية يا صاحبى، الآرث الثقيل.. اتحب الخطيئة؟ مؤكد انك تحبها، فأنت انسأن فى النهايـــة.. كذلـــك أنا احبها، بل اعشقها عشقـــا لا يوصف، ولا يقاوم.. أريد ان

35

انتحر؛ لكننى اخشى ما قد يلى الموت.. الا تذكرك تلك العبارة التقليدية بأفكار هاملت الجنونية؟! لكن مهلا، فلا يبدو عليك انك من الهاملتيين؛ بل يبدو جليا انك من

العطيليين.. أنت اقرب إلى النموذج العطيلى..أنت تغار، أليس كذلك، هل تغار من الناشر؟! ينتابنى احساس قوى انك تغار من احد هؤلاء الحضور من حولنا.. أتعرف من هو الذى أعتقد حقا انك تغار منه؛ أنه القاص.. لقد فاز مؤخرا بجائزة **إبراهيم اصلان** للقصة القصيرة هذا العام، لكنه فى رآيى فاتر، فاتر تماما، ازمع أن اتقياءه من فمى.. بينى وبينك كذلك لا اعتقد أن قدراته الجنسية اقوى من قدراته القصصية.

كان يجلس إلى منضدة – تشبه كثيرا مناضد شوبان – فيما عدا البادج – بجواره الروائية التى كانت تجلس معه فى العربة الكهربائية مذ قليل.. اما الأن فكان الجميع يجلسون إلى عدة مناضد فى الكافيتيريا الملحقة بالملاهى، وكان الشاعر المصرى والروائية العربية؛ يجلسا وحدهما إلى منضدة منزويةمطلة على نافورة صغيرة متراقصة، كانت جلسة غريبة، هى تتكلم وتتكلم فى مونولوج طويل لأهث تتخلله فترات صمت، فيما هو ساكن وصامت طوال كلامها، وكان على رأسه الطير، موزعا نظراته بينها وبين النافورة فى هدوء منقطع النظير، ثم قال لها فى هدوء كذلك:

- اللوحة.. لا اعلم لما حينما نظرت متطلعا إليها، تذكرت افكار قديمة كنت قد اهملتها وتناسيتها عن قصد منذ زمنٍ مضى! الشيطان بيصعب علىّ، فليس له من امره شيئ، الله تعالى يقول كن فيكون،الله هو من اراد كل هذا.. الارض، البحر، الامواج، الحيوانات، الفضاء، النمل.. الناشر والقاص والروائية، الشاعر.. وأنا أصغر سناعن الأن كنت اؤمن أن الشيطان مضطهد من قبل الله، ثم ادركت فجأةٍ أن لا شيئ يهمنى على الاطلاق، واننى لست بمهتم على الاطلاق.. جميعنا دمى تتحكم بها يد طويلة، قادرة، واحدة، يد القدر.. اخبرينى، عن لوحة شيلى كل ما تعرفينه عنها؟

- مؤكد تقصد لوحة شيلى فى دار كليوباترا، مؤكد كذلك لا تقصد البورتريه الذتى المقلد الخاص بشيلى نفسه.. لوحة الاسرة نسخة كليوباترا ستظل إلى ابد الآبدين لغزٍ محيرٍ لكل من يراها،كنت جالسة من حوالى سنة فى الدار، وكان ثرى خليجى خبير فى اللوحات العالمية، قد حُكى له عن تلك اللوحة فى موطنه، وحينما جاء إلى القاهرة، ذهب خصيصا إلى الدار، وفى نيته أن يشتريها أن

وجدها– أصلية ونادرة–كمـــا يحكون ويتحاكون عنها، لأعلى سعر

36

يطلبه حائزها.. اى الناشر، وبعد ساعتين متواصلتين من التحديق والبحلقة باللوحة؛ بكى الثرى الخليجى مترجيا الناشر أن يبيعها له بأى رقم ينطقه لسأنه – ولو أن احدا قد حكى لى هذا لما صدقته، ولكننى رآيته بأم عينى– قام الثرى الخبير منطورا ثائرا؛ وأمسك بقميص الناشر مهددا.. ثم نزل على ركبتيه – كل هذا أمامى، وأمام جميع المتواجدين، وتستطيع أن تتأكد من ذلك بنفسك– فجأةٍ واستمر فى الترجى والاستذلال.. لكن الناشر أصر الا يبيعها له، أو يبيعها لأى مشترٍ غيره، بعدها سمعت من إحدى الروائيين – من مواطنى الثرى الخليجى– أنه قد ذهب إلى سفارته و طلب تدخلا دبلوماسيا من أجل الحصول على هذه اللوحة..

أو لوحة الاسرة المثالية كما عَرَفَهَا الثرى الخبير، لكن وبعد عدة محاولات، ومباحثات، وتوسطات عديدة لم يرتضى الناشر أبدا ببيعها، ولم يستطع أن يقنعه احدا، وهكذا عين للوحة حارس شخصى استمر فى حراستها

ستة أشهر بحالهما، إلى أن زال الخطر عن اللوحة واطمئن قلبه.. فأصرف الحارس، وفرش إحدى الغرف بسرير قديم متهالك للتواجد مع اللوحة دائما فى الدار للتمتع بها ولحمايتها..

تلك اللوحة هى الدليل المادى على وجود الحياة الثانية – فلما ابحث أنا عن آكل خطايا من وجهة نظرك؟! – حيث رسمها **ايغوان شيلى** بعد موته بحوالى مائة عام.. كان يزور القاهرة ساحر إيطالى؛ وبالمصادفة كان هذا الساحر قد قرأ رواية لكاتب مصرى شهير واعجب بها ايما اعجاب.. ولمح لمنظم العروض –المسؤول عن حفلات الساحر فى البلدأن العربية والشرق اوسطية– أنه لو تقابل مع هذا الروائى سيكون فى منتهى السعادة.. كانت فى تلك الفترة هناك رواية مثيرة للجدل منشورة حديثا للروائى الشهير من اصدارات كليوباترا للنشر والمعلومات؛ فتحدث المنظم للناشر.. فعزمه الناشر هو والساحر والمترجم ومن معهم، ليقضوا حفل توقيع الرواية معهم فى الدار، فوافقوا،وحضروا.. وحضر الكثير فى هذا اليوم، من يريد مشاهدة الساحر الإيطالى

العالمى، ومن يريد رؤية الروائى المصرى العالمى هو الآخر، فطالما وأن الساحر معجب به هكذا وقارئ شغوف له؛ يبقى عالمى بكل تأكيد، حتى أن هذا الروائى صاحبنافى تلك السنة قد حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الادب، واصبح النقاد ينشدون بعبقريته ويسبحون بحمده بعد أن كانوا يلعنون سلسفيل من انجبوه للدنيا.. المهم انهم وبعد أن تقابلا، تكلما سويا، وتناولا طعامهما متجاورين، عرض الساحر عليهم أن يقوم بأى لعبة سحرية من أجلهم، اى خدمة سحرية، خارقة للمعقول وخارجة عن المنطق.

37

كان الناشر قد اشترى فى اول ذلك الاسبوع بورتريه لشيلى وقد قرأ عنه احد الكتب وتأثر كثيرا بموته شابا فى الثامنة والعشرون من عمرهبالانفلونزا الإسبانية أو ربما بمرض جنسى فتاكلا احد يعلم، كان يتسائل لو أن شيلى قد كتب له وأن يعيش لأكثر من ذلك، فكم كان سيكون مقدار انتاجه، وهل سيختلف، ام يبقى كما هو ذاتى و سريالى إلى هذا الحد.. فقالها هكذا مباشرة أول فكرة قد خطرت على ذهنه "لتحضر لنا الأن روح ايغوان شيلى"

ترجم له المترجم الخاص به، فقام الساحر وقال "اتونى إذن بصباع من الطباشير الأبيض، وديك له عرفٍ احمر، وستة شموع سود، وافرغوا لى المكتب رجاءا" هكذا فى ظرف نصف ساعة كان ايغوأن شيلى بينهم يبرطم - بلكنته النمساوية- غاضبا محتجزا فى جسد الساحر الإيطالى،وبالصدفة كان احد الحضور طالب فى فنون جميلة ومعه ادواته.. فتقدم مرتعدا وأعطاها للساحر الإيطالى- أو ربما لشيلى الحبيس بجسد الساحر- فأخذها منه، واخذ رويدا رويدا فى الهدوء.. ورسم هذه اللوحة الفاتنة، التى اسماها الثرى الخليجى لوحة"الاسرة المثالية" والتى اخذت قلبك منذ أن رآيتها اليوم، ككل من رآها من ذى قبل.

اتعلم اليـــوم هذا الناشر المختل يجرى التجارب مع دجال سودانى حول امكانية استحضار روح اشهر اديب مصرى راحل.. من اجل كتابة رواية من عالم الموتى، رواية اخيرة عن عالم ما بعد الموت، تخيل تلك التجربة الغرائبية، ومقدار البيع والتوزيع الناتج عنها، قد يتخطى العشرة ملايين نسخة، بل ربما المائة مليون.

- ايه.. **ايريد تحضيرنجيب محفوظ؟!**

- بل روح **يوسف إدريس**، فهو يبغض **محفوظ**، ويفضل عليه **إدريس**، ما علينا من اللوحة وكل هذا الكلام عن اللوحة الذى لن ينتهى ابدا.. فهذا المكان وهؤلاء الشخوص، مليئين عن اخرهم دوما بغرائب القصص وعاديتها، وطالما تحدثنا عنهم فلن تفرغ تلك الحواديت لساعات وساعات.

أريد وأن احكى لك عنى.. كنت صغيرة يوما ما بعيدا، لكننى قد قطفت الثمرة وقضمت منها منذ عدة سنوات، أتيت من وطنى البعيد إلى القاهـــرة وكلى أمـــل

فى أن امتهن التمثيل، كبنات بلدى من اللاتى جئن من قلبى، واشتهرن، وها حالى،روائية متوسطة الشهرة والشباب والمال.. وربما الجمال، هل يعجبك اللون البنفسجى؟ لا عليك، لا اريدك أن تجيب، اريدك فقط و أن تستمر فى مجالستى،أوتعلم عما كانت روايتى الأولى تدور؛ عن مخنث..

امرأة لديها الأعضاء الأنثوية والذكورية معا.. احرزت الرواية بعض النجاح بين الأوساط الثقافية، ويوم أن اتى إلىّ مخرج سينمائى يريدأن يؤفلم الرواية، والمدهش فى الأمر أنه عرض علىّ أن نكتب السيناريو معا، وبالفعل قد كتبناه، والأكثر ادهاشا أن المخرج ومن دون أن اطلب منه قد اسند إلىّ دور صغير لطبيبة نفسية متخلفة و رجعية.. لكن الرقيب قد رفض الفيلم مدعيا أن فكرة الفيلم بوهيمية أكثر من اللائق، وأننا فى مجتمع متدين.. شرقى، وأن هذا لا يتناسب معه.. فيما بعد علمُت من مصدر ثقة أن هذا الرقيب نفسه لديه الأعضاء الذكورية والانثوية معا، لكن لا تخبر احد رجاءا.

طالما فكرت فى الإنتحار.. ومازلت افكر، عشرون ثلاثون برشامة، قطع الشرايين، التحليق من برج القاهرة، الغطس فى النيل إلى الأبد.. اى فعل من شأنه أن يأخذنى اى حيث الرب،إلى حيث الأبواب الآبدية، لكن و دوما كان ينقصنى آكل خطايا.. شخصا ما يعطيك الخلاص، كمسيح خصوصى لك، يأتى فى الساعة الاخيرة، وقت الإحتضار، ليحمل الخطايا والاخطاء عن كاهلك إلى كاهله،ليخلصك من حملك الثقيل، يفديك..

ويرسلك برئ كالأطفال.. ففكرة الثواب والعقاب مرهبة بحق، فكيف لله أن يحاسب الانسأن دون أن يختار هذا الانسأن الحياة من الأصل.. اى ارادة حرة فى الأمر؟! هكذا نلقى كخيل غير مدرب فى مسابقة اجبارية من دون اختيار، والتى تكون عاقبتها رهيبة تماما كخوضها.. مسابقة واحدة وحيدة، يخرج منها فائزا واحدا وحيدا، فيما الآخرون إلى الهلاك يقتادون.. أين العدل فى كل ذلك؟! لقد انتفى شرط الرضاء.. واصبح العقد منفسخا من ذاته.. يا صاحبى.

لهذا اريدك وأن تأكل خطاياى ساعة احتضارى.. قررت أن يقع الإنتحار فى 29 من الشهر الحالى.. عليك أن تكون حاضرا لتأكلها.. لتأكلها كلها إلى اخر فتفوتة منها.. لا تعتقد اننى اهذى، أو اقول ما اقوله تحت تأثير من الشرب والدخأن اللذين كانا فى الدار.. كل ما هنالك اننى قد وجدتك أخيرًا على ارض الواقع.. آكل الخطايا الخادم بالقاهرة، والخاص بى.

39

- أين صاحبى الذى كان معى فى دار النشر؟

- الحقيقة أن صاحبك هو من اقترح فى الدار أن نأتى إلى ههنا، فبعد أن فقدت وعيك مباشرة.. ذهب إلى حيث الناشر جالسا على مكتبه، ضرب بقدميه مدبدبا على الارض قائلا وقد اخذ فى البكاء "ودينا الملاهى، خدنا الملاهى يا بابا" فضج الحضور بالضحك؛ فيما بقى هو يبكى متشهنفا، فقام الناشر من وراء مكتبه و ربت على كتفه، واحتضنه ممسدا له شعره، وقال "البسوا يا عيال علشان هاخدكم الملاهى" فضج الحضور مرةٍ اخرى، وقاموا متخبطين، دائخين، يرقصون ويغنون، فقط هذا كل ما قد حدث (ثم أشارت بيديها إلى الأعلى) أنظر أنه من وقت أن جاء إلى ههنا وقد اعتلى الارجوحة العالية ولم ينزل من عليها اطلاقا حتى لحظتنا تلك، لتنظر إليه، أنه هناك على حدود السماء.

قام الشاعر من جوار الروائية من غير ولا كلمة واحدة.. هرول متجها نحو الارجوحة "العَجَلَة" العالية وعيناه متعلقتان بصاحبه، وهو على حدود السماء كما قالت تماما، لكنه قد أخذ فى النزول تدريجيا إلى الارض.. فيما وقفت الروائية على منضدتها وأخذت تصرخ إلى الشاعر "لا تنسى موعدنا يا آكل الخطايا" وكان الشاعر قد تحول إلى الجرى الصريح، ما أن وصل إلى

الارجوحة العملاقة؛ الا وكانت مركبة صاحبه قد نزلت هادئة على الارض.. فقفز بجواره وأخذت الارجوحة العَجَلَة مرة اخرى فى الحركة، واخذت المركبة فى العلو منجديد، حالة من الصمت التام، كان الحياة قد توقفت عن كل ما هو حى و يتحرك على الارض، عدا الارجوحة الصاعدة بهما، لكنها وحتى تلك الارجوحة لا يصدر عنها صوت.. صمت لا يتخلله صرخة طفل، أو صوت كبير، أو حتى خشخشة الملابس، أو خروشة تليفون، أو صفير الهواء، أو حركة المحركات.. لبرهة توقف الصوت، توقف الصوت تماما، وحل صمتٍ مهوبٍ.. وفجأة عادت كل الاشياء إلى طبيعتها من جديد، فتكلم صاحب الشاعر قائلا إليه بتروٍ:

- "لقد رفضك الجميع؛ لكننى قبلتك" ألم تقل لك هذا؟!
- بلى.. لقد قالت، لكن كيف عرفت؟!
- هه.. فقط هذا ما قد تعودت وأن تقوله للجميع.. فهلم لننزل من تلك السماء المغيمة يا صاحبى.

- لكننى مازلت أريد وأن أجلس لبعض الوقت.. أن المنظر مبهر، أنت مللت فقد بقى لك فترة طويلة راكبها، أنا حالا ركبتها، لنجلس دور اضافى.

- لننزل الأن أيها الشاعر.. ثم و بعد برهةٍ سأدعك لتعود إليها ثانية.
- حسنا.

نزلا الشاعر وصديقه من على الأرجوحة العملاقة إلى الارض ثانية، ترجلا من مركبتهم، حيث وجدا القاص والروائية والناشر جالسين الأن إلى منضدةٍ واحدةٍ، ما أن اقتربا منها حتى صرخت الروائية ملوحة بحبور "ها قد عاد آكل الخطايا" تبسم لها ولم يدر بما عليه أن يجيبها فصمت، وانضما إلى جماعتهم، فجلسوا جميعا فى حلقة واحدة، كان الناشر يحتسى الشاى، والروائية العربية أمامها شوب من عصير مانجو، فيما كان القاص يتناول سلطانية رمُان مفرط مغطى بكريمة الشانتيه.

كان يلتهمها بتلذذ وتأوة مبالغ فيه.. وكأنه يغازل ملكة جمال ايرلندا.. كان يقدم استعراضا كاملا متكاملا لتناوله إياها، استعراض اوبرالى مثير لا تنقصه الا الملابس الاوبرالية وفقط.. اوبرا فرط الرمُان، احس الشاعر بأهانة بالغة.. وكان نصل خنجر مسموم وقد رشق بقلبه، لم يشعر بنفسه الا وقد هجم على السلطانية ممسكا بها بكلتا يديه صارخا فى القاص أن يتركها له.. شعر القاص أن الموضوع أكبر من مجرد صراع

على حبات الرمأن المغطاة بالكريمة شانتيه.. أنه صراع على الأنثى، صراع على الشهرة، صراع على النشر، وحصد الجوائز والتكريمات، أنه صراع على اعتراف المجتمع بأحدهم من دون الآخر، فتشبث هو الثانى بالسلطانية بكل ما اوتى من قوة.. وعلى غفلة إنقطع التيار الكهربائى وأظلمت الكافيتيريا، فتزايدت الضربات والصرخات، لكن سرعأن ما عمل المولد و اضاء المكان من ثانى، كان الشاعر ممسكا بكل قوته فى رقبه الناشر.. فيما القاص رافعا السلطانية بكلتا يديه على فمه، يلتهمها التهاما، ويشر من جانبى فمه عصير الرمان الأحمر مع كريمة الشانتيه البيضاء سائلة على وجنتيه ومغرقةٍ نظارته، وتشرشر من ذقنه، وقد انتهى للوقت من التهامها، فهبدها على المنضدة أمامه مهشما زجاجها، وسطح زجاج المنضدة قائلا فى انتصار:

- The original sin يـــا صاحبى كانت حبات الرمان،
أعتقد حقا فى انها كانـــت الفاكهـــة المحرمة،
لـــى قصـــة فـــى مجموعتـــى الآخيـــرة اسميـــتهـــا
شـــجـــرة

الرمان ليتك تطالعها، لعلك تفهم شيئا.. هيا يا حبيبتى.

اشار القاص إلى الروائية؛ فقامت معه.. وقد وطبعت قبلة على اصبعها، ووضعته على شفتى الشاعر، الذى ما أن لمست شفتيه اصبعا الا وقد ارتخت قبضتيه من على رقبة الناشر المتألم المتأوه،ثم قامت لتعبث بيديها فى شعر القاص وتتضاحك بصوتٍ عالٍ، مشيا خطوتين معا، ثم التفتت إلى الشاعر ويدها تلتف على وسط القاص قائلة له "29 منه، لا تنسى أيها الـــ sin eater.. فأنا فى الانتظار، سيفرحك هذا كثيرا".

ثم ذهبت مع القاص، فيما جلس الناشر يلتقط انفاسه،والشاعر وصاحبه بجواره، إلى المنضدة، قال الناشر فى هدوء:

- الله ينعل ديك اهلك يا اخلى، كنت هتموتنى، أنا دفعتلها مليون جنية.. لما المرا دى تنتحر، هبقى غنى،هعمل ثروة؛ تخيل روائية تكتب رواية مستوحاة من سيرتها الذاتية، اللى كلها اساسا جنس وشهوة وادمان وضياع .. وكمأن تنتحر بعدها، عيبها الوحيد الأوحد بقى انها مازالت مؤمنة بالجنة وجهنم وكل هذا الهراء اللى بالك فيه.

تخيل أن **بيرة فى نادى البلياردو** بيعاد طباعتها و نشرها ليومنا هذا بعد يجى خمسون عام على كتابتها، طبعا **وجيه غالى** كان روائى متمكن.. فين أيام ما كان الروائيين بينتحروا من غير وجع قلب وطلبات**!!** طبعا أنا قرأت بعض من قصائدك، أنت شاعر مختلفوموهوب بشهادة كتير من الأساتذة الكبار، لكن طبعا مانتش **محمود درويش،** الشعر حياة خيالية، مش حقيقية، أنت فاكر لو نشرت ديوانين تلاتة هتاخد وضعك.. أبدا يا صديقى، دى الأرفف عندى هتقع من كتر الكتب، روايات وقصص وشعر ومسرح وترجمات ودراسات نقدية وادبية، ولا حد يعرفهم، حتى امهم ما تعرفهمش.. مش ده المهم، المهم هو البروباجندا اللى اصدقائك وصحبتك الحلوة هتعملهالك فى الوسط الثقافى والفنى، صدقنى فرصة عمرك وجت لغاية عندك، انك تكون آكل خطايا، طبعا كده وكده.. قدام الروائية الخُبل دى بس، نص ساعة، كأنك شفت شوية من مانتش الجونة وبتروجيت عند الحلاق غصبٍ عنك.. نصف ساعة تقبض فيها مِيت الف جنية.. أنت الوحيد اللى هى عايزاه –من يوم أن عرفتها– واختارته علشان

يعملها الطقس بتاع اكل الخطايا ده، فكر فى الموضوع بتروٍ فكر ورد علىّ..

أنا منتظرك فى الدرا.. واديك عرفت العنوان.

42

كان الشاعر صامتا ساكنا، فى عالم اخر، لا يستمع مطلقا لكلام الناشر.. فيما كان صاحبه منكفئ محتضن سطح المنضدة، هز صاحبه، فأعتدل فى جلسته، فقال له الشاعر بصوتٍ خفيض:

- لقد تناولت الرمان بكريم الشانتيه، مرتين اليوم، لكن حقا كان هذا الذى تناولته الأن مذاقه أفضل من الذى قد تناولته فى شوبان سابقا، فالذباب هناك كان لا يطاق، لكن هذا نظيف، كما أن مذاقه أحسن.

ثم عاوده الصمت من جديد، صدقه صاحبه تماما هذه المرة أيضا.. كأنه رآه بالفعل يلتهم الرمان أمامهم جميعهم مذ قليل.. ثم قام صاحبه منطورا وقد وقف أمام الناشر وأخذ يدبدب بقدميه على الارض، يبكى متشهنفا وقد قال له"بابا أنا زهقت، ياللا نروح" فقام الناشر يستعدل من ملابسه قائلا "ياللا يا حبيب بابا" وانصرفا معا.. فعاد الشاعر إلى حيث الارجوحة العَجَلَة، ومرق إلى ذات المركبة، التى اخذته تلك المرة كذلك وصعدت به إلى

حدود السماء.. وفجأة انقطع التيار الكهربائى ثانية،سمع احد العمال فى الأسفل يصرخ قائلا "تعطل المولد، وانقطع النور" فجلس صامتا هادئا لبرهة، لكنه عاد ليلتقط صوتٍ خافتٍ اتيٍ من خلف سحب السماء المختفية فى الغيوم، ارهف السمع.. فإذ بها موسيقى من مقطوعة **فيونيرل مارتش funeral march لشوبان،** وإذ على غفلة تأخذه دوامة رهيبة من الاكتآب والسوداوية واليأس.. اراد على اثرها وأن يلقى بنفسه من أعلى.. من حدود السماء، لكنه قد تراجع فى اللحظة الاخيرة؛ إذ ادرك حاجته هو الآخر لآكل خطايا!.

43

رجوعا إلى مقهـــى البورصة

جلستُ إلى منضدتى المنزوية – والمعروفة – منتظرا قدوم رامز ممتاز، حسب ميعادنا المتفق عليه، وحين طارت إحدىالذباباتمحلقة فى الأجواء، وحلت واقفة على عظمة أنفى؛ تذكرت على فورى جحافل الذباب تلك– التى قد جائت فى النصف الأول من قصته الثانية– المحلقة فوق الرؤوس فى فضاء مقهى شوبان، ذاك المقهى الذى لم يكن بأى حال من

الأحوال الا رمزية لمقهانا هذا، الجالس إلى منضدته الآن، احتسى كوبى الأول من الشاى بالنعنع، مقهى البورصة.

بعد أن انتهيت من قراءة النص الأول (إنتحار يوسف)كنت ما ازال متشككا؛

ولكننى وبعد أن خلصت من قراءة (الشاعر والقاص والروائية) النص الثانى من المظروف البيج الكبير، كنت قد اصبحت فى حُكم المتأكد من هوية المنتحر. فلم يكن لأحد أن يكتب هذين النصين الاه، ببساطة بالغة، لأنه قد استوحى أغلبهما من علاقته بنا، علاقته بىّ.. تلك العلاقة التى أقل ما توصف؛ توصف بالمعقدة، أما بالنسبة لمؤمن الملحد وعُمَرُ المسيح؛ فكنت كذلك قد تيقنتبشكل نهائى من استحالة أن يكون لأحدهما صلة بتلك الكتابات الواردةبذاك المظروف، فهذا النص الدادائى بإمتياز، والمُنبنى على أحداث واقعية مرت بنا سويا - تلك الأحداث الحقيقية والغريبة فى ذات الوقت- والتى لا يعرفها احدٍ غيرنا، لا بد وأن يكون - هذا النص الأصلى- خاص بالشاعر ممدوح البصراوى، وحده ولا غيره، ذاك الشاب الشيوعى الأسمر المليح، والذى كنت قد قابلته منذ فترة طويلة لم اعد أتذكر منذ متى بالتحديد كانت، بدار نشر نفرتيتى - وليست كليوباترا كما

أسماها هو فى نصه– لصاحبها الناشر المعروف أحمد هشام، بشارع قصر النيل بوسط البلد.

فإنتحار يوسف الصديق ما هو الا اسقاط واضح على إنتحار البصراوى، أما عن لمــاذا يوســف الصديق تحديدا ولا احد غيره، فقــط ربما أظن أنه الإختيار الأكثر

ملائمة ومنطقية فبالنسبة لشاعر مثل ممدوح البصــراوى، يوسف الصديق، ذلك النبى المُعترف به من قبل الديانات الإبراهيمية جمعاء، والحائز على اهتمام من الكتاب والشعراء لم يحزه غيره من النبيين والرسل، حتى أنه المفضل فى كل الشخصيات التوراتية للمصريين، فللواحد أن يتأمل فقط كم يوسف فى عائلته؛ ليدرك كم يعنى "يوسف"لدينا نحن المصريين، وإلى اى مدى نجله، ثمالم يعتقد فى نفسه أنه حسب تعبره الأشهر "شبهُ نبى" الم يختار عنوأن "نبى من دون نبوءات" عنوأن لديوأنه الأول المرفوض، لكن يبقى هذا البتر الغير تقليدى، الغيرمبرر، احجية كبيرة تفرك عقلى بغشاوة،ولا تجد به ما يفككها، أو يكشف عن حلا لها، لم اطيق صبرا لأقراء المزيد – فطالما كان الإنتظار عدوى اللدود– ففور أن انتهيت

من (الشاعر والقاص والروائية) طلبت رامز، وحددت معه موعدا، بعد ساعةٍ واحدةٍ على مقهانا القديم.. مقهى البورصة.

الآن، وبعد كل ما كان،لا استطيع أن انكر، أو اتنكر للأمر.. فللوهلة الأولى ومنذ أول مرةٍ وقعت نظرتى عليه؛ وقعت كراهيته بقلبى، ظهر هكذا مرة واحدة من العدم، كالشيطان الغضوب.. معرفة صديق مشترك له ولهشام، وحتى هذا الصديق بدوره؛ لم اكن فى هذا الوقت البعيد أعرفه معرفة حقيقية، لقد كان رامز من المترددين حديثا على نفرتيتى، وكنت قد صادفته عدة مرات سابقا فى الدار وخارجا عنها.. فجل ما كنت أعرفه عن رامز ممتاز أنه ابن صديق قديم –كان مقربا للغاية– من أحمد هشام، وأن هذا الصديق –والده– كان مخرجا مسرحيا شيوعيا أيضا، وقد مات بالمعتقل فى أيام السادات.. ولأن رامز هذا هو أول واحد جاءنا بهذا الشيطان الغضوب؛ كرهته هو الآخر لهذا الشأن.

"انت تؤذى نفسك؛ اذ تحاول تؤذينى".

هذا هو آخر ماقد سمعته منه، وبتلك الكلمات البسيطة كشفنى تماما أمام نفسى، فأكتشفت حقيقتى، ببساطة هكذا، مجرد عضو ذكرى ينز حبرا، لا اقصد تحديدا كونى كاتب يكتب كتابات

ذكورية لمجتمع أبوى منغلق.. لكننى وبصورة فجة حقيقية كنت مجرد شيئا، شيئ تجسد كليةً فى ثقافة رمزية العضو الذكرى لدينا نحن الشرقيون، هكذا وفى غفلة منى ومن الزمن، كشفنى على حقيقتى، كان اكتشافا متأخرا، لقد كنت هذا الشيئ فقط إلى أن نطق هو فى وجهى بتلك الكلمات، وتشكل الهواء المعزوف على اوتاره الصوتية، والخارج من فيه أصواتٍ، والأصوات أحرف، والأحرف كلمات، وكأنه قد نطق بكلماتٍ سحريةٍ.. تبدلتُ معها، وكأنهم قد شقوا صدرى، وانتزعوا رئتىّ اللتان قد افسدهما الزمان، وابدلاهما برئتىّ فـــرس

عربى صبى، وأصيل، فتبدل احساسى بالهواء؛ فتبدل احساسى بالحياة، وحين تبدلت المدخلات؛ تبدلت المخرجات.. الوضع أشبه بأن تُنزل لحاسبك الشخصى برنامج مُشغل فيديو حديث، ذا تقنية فائقة، ترى ذات الفديوهات القديمة هى نفسها، ولكن برؤية مختلفة، نقية واضحة تجعلك لا تكاد تصدق انها هى نفسها ذات الفيديوهات والمشاهد القديمة التى قد مللتها، ومررت عيها دوما من دون أن تشد ايا منها اقل انتباه منك.. أتذكر نفسى جيدا فى

أول مرة لى أرتدى النظارة فيها، وأتمشى عائدا من عيادة الرمد إلى البيت، أتمشى فى شارعى، الذى لم اراه بهذا الوضوح نهائيا من ذى قبل، لأرى الوجوه والمحال والعربات والباعة والملابس والألوأن والأشياء بعينٍ مختلفةٍ، و رؤيةٍ مغايرةٍ، كنت اعلم اننى أفقد نظرى شيئا فشيئ، ولكننى كنت مُصر على عدم الكشف عند الطبيب، فطالما خشيت من اننى لو ارتديت نظارة طبية؛ أن تُغيرمن شكلى للأسوأ.. لكنها فقط غيرت من رؤيتى، وأبقت على خلقتى، كما كانت بإضافاتٍ بسيطةٍ، إضافات ذات نظرةٍ مغايرةٍ للعالم من حولى، هذا ما حدث لى، لكن بعد أن رحل، وغاب تلك الغيبة الطويلة، قد عادتا لىّ تدريجيا رئتىّ القديمتان.. الفاسدتان، وعُدت إلى ما كنت عليه، مجرد شيئ، شيئ يمكن تلخيص هويته الحقيقية والختامية فى كونه مجرد عضو ذكرى ينز حبرا.

لا اعلم لما قد جاءا النصين مبتورين هكذا، فأنتحار يوسف الصديق لا يتعدى كونه بداية لعمل ما.. ربما قصة طويلة أو رواية، لكنه لا يقبل أن يكون على هذا النحو، وخاصة منه هو بالتحديد، كذلك لا اظن أن كل ما قد جاء فى (الشاعر والقاص والروائية) يتعدى فصلٍ واحدٍ، من روايةٍ طويلةٍ، فكل ما ذكره – ولم يذكره حقا – لا يتعدى 10% من كل ما مررنا به معا،ثم

فأنا لا أعلم لما أغرق هكذا فى السريالية؟! ولما لم يكتب مباشرة عن ما حدث بالفعل؟! فالمنتحر لا يخشى من شيئ، ولا من احدٍ،فلما أبدل اسم الدار الحقيقية من نفرتيتى إلى كليوباترا، ولما لم يذكرها صراحة؟! كذلك مقهى البورصة قد حوله إلى مقهى شوبان، ولم يذكره هو الآخر صراحة، لما لم يذكر اسمه هو ذاته فى متن النص؟! أو اسمى، أو اسم هشام، حتى أنه لم يذكر جُلنار صراحة هكذا، بل أنه قد أكتفى بالإشارة لها بالروائية العربية، كما اكتفى بالإشارة لرامز بـــ(صاحبه) ولما جعلنا نحن الدادائيون فى نصه الغرائبى هذا؟! بالرغم من اننا نحن لم نكن هكذا؛ بل كان وحده هو المتحمس للدادا، معتزا بفنانيها وكتابها، والمبشر لعودتها الممجدة.. إلى الأن لا افهم لما قد غير فى الوقائع التى عشناها سويا، و رمز لكل ذلك فى نصه الملتبس هذا، لقد أبقى على الشخوص الحاضرة للواقعة؛ لكنه قد غير من كلامهم ومواقفهم.. ابدلها و لخبطها و رمزها، هــل كان ينتوى عرضها للنشر؟! ولكن يبقى السؤال الأهم بالنسبة لى؛ لما

لم يبعث بها لأى احدٍ غيرى، لما أنا بالتحديد؟ لماذا؟!

كنت قد حاولت كثيرا الإتصال بيحيى هذا، مَن فتح علىّ كل هذا الكم الهائل والبائس من التساؤلات، والتى مازلت أبحثلها عن إجابات فى عالمنا هذا الواقعى، اوفى عالم آخرا من التيه السريالى من تأليف ممدوح البصراوى، جاءنى يحيى وألقى بهاكلها هكذا فى لحظة من الزمن وفى ذاك المظروف البيج الكئيب كآبة الأظرف القضائية والحكومية، المعلنة عن أحكام نافذة كالقدر، المعلنة عن كارثة آتية لا محالة، ولا مجال للتهرب منها،وتركنى هكذا وحيدا فى مصارعتها الغير المتكافئة، ورحل ببساطة ماضيا إلى حال سبيله، كما رحل ممدوح قديما هو الآخر، وهكذا وجدت نفسى فى مطاردة أشباح الماضى، والغاز الحاضر، والذين بدورهما قد غلفا المستقبل بحلة من الغموض والريبة، لكننى وبصدق مع النفس أولا وأخيرًا، كنت فى محاولة حقة لإدراك ما سيحدث، أكثر منها لإدراك ما قد حدث.. حاولت كثيرا الإتصال بالأرقام الكثيرة على ظهر الكارت الذى يحمل اسمه، وكانت الأجابة واحدة دائما "الرقم الذى طلبته مغلقا أو غير غير متاح، حاول الإتصال فى وقت لاحق"

حاولت الوصول إليه عن طريق الفاكس فوجدته ناقص رقمين، والإيمل كذلك لم يكن له من اى وجود على الشبكة الالكترونية،

هكذا وجدت نفسى اطارد الأشباح، لتحكى لى قصص السراب حيث صحراء التيه.

الجلوس على مقاهى وسط البلد بالقاهرة؛ يجلب لك السعادة، سعادة غامرة، لكنها عابرة.. إذ انك أول وأن تخرج من حيز هذا العالم القديم وتغادر المقهى، والمنطقة، تشعر على الفور بأنك كنت مسافرا؛ وقد عدت حيث القاهرة الحقيقية، بوجهها العابس، ومعاملاتها غير الودية، ورائحتها العطنة الملوثة.. كل المقاهى بوسط البلد محببة إلى قلبى، التى جلست عليها مرارا، والتى لما جلست عليها سوى مرة واحدة، وعدت، بل اننى نادرا ما كنت أكتشف مقهى أجهله أو لم أجلس عليه بمنطقة وسط البلد، لكن يبقى أقربهم إلى قلبى مقهى البورصة، دائما الحوارات على تلك المقاهى واحدة.. الفن، الادب، السينما، السياسة، الاقتصاد، كذلك الأجواء واحدة، والروائح هى الآخرى واحدة.. روائح الدخان المنبعث من شيش السلوم، والشيش بنكهة الفاكهة، والمشروبات الساخنة، القهوة المظبوط، والشاى (ابو سكر بره)، وأصوات الكركرات، طقطقة الحجارة، نداءات الجارسونات، وتقليب الأكواب، الحركة، المباريات الأوروبية فى خلفية الأحداث، وضربات الاواشيط على رقعالطاولة والدومينو.. المبانى الإسماعيلية، ظل القدم المحيط بك.. لكن

يظل الوضع مختلف بعض الشيئ فى مقهى البورصة، فمقهـــى البورصة بها كل هذا، ويزيـــد.. بها شبـــاب

47

أراد الحياة فى وسط ظل الموت، بها تجارب فى وقت الصمت، بها بعض من المنطق الضائع فى هذا الزمن الهزلى، بها أصدقائى،ربما هذا فقط ما بها، أصدقاء، أوقات، وحكايات.

الأن أحتسى الكوب الثالث لىّ من الشاى بالنعنع، بالإضافة إلى اننى أتجاذب أطراف الحديث مع رامز ممتاز.. لم اود وأن احادثه عن الأمر مباشرة هكذا، إنما فقط كنت أشرع فى إستدراجه، ليأتى بكل ما فى جوفه من تلقاء ذاته.

- ..... عبث، الوضع فى منتهى العبث.. حرب، إرهاب، براءات وإعدامات، مشكلات طبقية وإقتصادية وإجتماعية، كمبوندات بنص مليون وأنت طالع، اسكان شباب فى وحدات 35 متر، كهول عل الكراسى، وشباب فى السجون، وقف برنامج ريم ماجد للمرة اللى مش عارف كام، فيما أحمد موسى يغرد منفردا.. محض عبث.

- بس ما تنكرشى أن أخيرًا فى شوية استقرار.. على الأقل يا أخى بقينا أحسن من الأول.. نحمد الله؛ ادينا قاعدين فى وسط البلد اهو ومفيش لا غاز مُسيل للدموع ولا أمن مركزى.
- أنا مش متفائل أبدا باللى بيحصل ده.
- أنت بس علشان شيوعى شايف الدنيا سودا كده.. هه، قصدى حمرا!!
- هى حمرا فعلا!! فاكر أنت لما كانوا كل شوية يقولولك مصر رايحة على فين، ومصر إلى أين، والهرى ده، أهى بقى مصر دلوقتى لا رايحة ولا جاية، خلاص ركنت صف تانى واتسحب منها الرخصة..فاكر اللى كنا بنقوله فى نفرتيتى من سنتين تلاتة؟! اهو بيحصل النهاردة بتفاصيل أكثر رعبا.
- فاكر طبعا.. ده انتوا كنتوا مصدعينا، كل اسبوع تعملوا لنا ندوة – يا الهى على الذاكرة الخردة– كان أحمد هشام مسميها ايه؟!
- لقاء الخميس.

- ايوه لقاء الخميس.. فكرتنى.

- ده أنت اللى فكرتنى.. تقعدوا تشربوا وتحششوا و تشتموا و تزعقوا وفى الاخر تتجادلوا انهى أجمد غابرييل غارسيا ماركيز ولا ماريو فارغاس يوسا، يااااه على دى أيام.. سيبك أنت، انتوا لسه بتتقابلوا فى نفرتيتى؟
- هى هى نفس القاعدة كل خميس وحياتك، البيرة والدخأن و نفس الصراعات الثقافية، لحد الاسبوع اللى فاتبس كانوا بيتجادلوا مين أجمد كوينتن تارنتينو ولا بول توماس أندرسون!!
- والله وحشتنى يا إبراهيموفيتش.. و وحشتنى أيامكم.
- احنا موجودين على طول أنت اللى مختفى، يعنى أن ما كنتش أكلمك وأطلب أقابلك ما تفتكرناش أنت أبدا كده.. فكرتنى أنت بإبراهيموفيتش دى، صاحبك الشيوعى هو اللى طلع علىّ الأسم ده، وبعديها كلكم بقيتوا تقولوا لى زي ما بيقول لى..وهو التانى اختفى؛ الا قولى صحيح هو فينه دلوقتى؟

اكتست ملامح رامز ممتاز بالأسى ما انطق لسانى بجملتى الأخيرة، سرح فى عالم آخر، وهو ما يزال جالسا على مقعده بجوارى تركنى، و راح بعيدا إلى اخر الكون فى رحلة عجائبية

خاطفة، فلم تكن العلاقة بينهما علاقةٍ عابرةٍ، فما كان يجمعهما لا يمكن وأن يدع ولو ثقب ابره، يمر منه ما كان من شأنه أن يفرقهما.

فيما كان هو فى غاية الشرود والحنين، كنت أنا فى غاية الإثارة والفضول، صحيح اننى لم اكن أتصور وأن ينتحر هذا الشاب الملئ بالحياة –الملئ عن اخره به – لكن ما كان قد كان.. وما جئت إلى هنا الا لمزيد من التأكد، فتأكدى النهائى –الغير محاط بأى ذرة من الشك– من هوية صاحب الرسالة؛ هو وحده من شأنه وأن يُعلمنى بما على فعله، لقد كانا صديقين حقيقيين، فمن ساعة وأن قرأت الرسالة؛ والسؤال لا يتغير، ولا يُجاب عليه كذلك؛ لما قد ارسل لى بالمظروف؟! وأنا البعيد عنه المختلف معه، لما لم يبعث به لرامز ممتاز أقرب صديق له فى الحياة؟! وأن كان الغرض هو نشرها؛ فلما لم يبعث بها لأحمد هشام مباشرة على نفرتيتى؟! ولو كان ينتابه شعور بالشك فى امكانية أن ينشرها هشام له؛ فلما لم يبعث بها لأى ناشر اخر بخلافه.

أتذكر جيدا انهما كانا لا يفترقان ابدا.. دائما معا، يأتيان معا و يرحلان معا، حتى اننى أتذكر أول يوم دخل فيه ممدوح إلى

الدار،وفى يدهرامز ممتاز يقدمه لنا، وأتذكر كذلك اخر يوم رأيتهما فيه معا، يوم أن كنا فى نفرتيتى نحتفل بعيد ميلاد أنور الزغبى وترجمة روايته الاخيرة للإيطالية ونشرها بمكتبات روما و ميلانو.

عيد ميلاد أنور الزغبى.. دار نفرتيتى

كنا نجلس سويا فى نفرتيتى، ممدوح وجُلنار وهشام و رامز وأنا وحضورٍ كثيرين، للإحتفال بعيد ميلاد أنور الزغبى الروائى الشهير، والذى توافق يوم عيد ميلاده مع صدور ترجمة روايته الاخيرة –المنشورة عن دار نفرتيتى– بالإيطالية.. بعد أن تناولنا التورتة، وغنينا له (يالا حالا بالا بالا.. حيوا ابو الفصاد) دار الحديث فى مواضيع عدة، ولكنه قد رسى أخيرًا على شاطئ السياسة، فالوضع كان على اشده، مضطرب للغاية فى تلك الفترة، قال هشام فيما هو يلف سيجارة من الحشيش:

- البهلوان ده هيضيع البلد من غير ما يحس!.

اشعل السيجارة وناولها لأنور، الذى بعد وأن سحبأول نفس منها – وكان نفس عميق بالمناسبة، جعل من شعلتها تحمر، ومن اوداجه تنتفخ– قال متبسما، بهدوءه المعهود، المثير للإعجاب:

- تعرف، المشكلة انهم دايما بيشبهوها بالتورتة.. بس هى ماتشبهاش، هى مبارة فى الأول والأخر.. بس الدورى فى النهاية ما يخرجش عن اتنين؛ يا الأهلى يا الأهلى برضو، الزمالك كل فين و فين لما يخطفها سنة، اهى هى كده!! لو لأزم نشبهها بالأكل فمينفعش تبقى تورتة، ممكن فرولاية.. ولا حتى تنفع فرولاية!! هى رُمانة، رُمانة كهرمانة، فيها حبوب كتير، بس برضو هيأكلها فى الاخر لأعيبة الفريق اللى هيكسب لوحدهم من دون شريك.
- طيب واحنا بقى مين؟!
- احنا الملايين.. هه، لا احنا بقى يا سيد ممكن غزل المحلة، يعنى هنهبط هنهبط درجة تانية لا جدال فى الأمر.

50

- لعلمك الموضوع المرة دى مختلف، شكلنا واقعين فى النموذج الإيرانى و داخلين على قيادة الملالى.
- تقصد النموذج الرومانى، تشاوتشيسكو.. مش بقول لك حبة رُمان.
- يعنى مين هيركب فى الاخر؟!

- ما قلنا اللى فى ايده النبابيت.
- طيب والديناميت؟
- الطيارات والمدرعات اقوى.
- والفلوس؟!
- دى بقى هتتحزم وترقص للى هيركب فيهم.
- مجلس الخراء هو اس المصيبة (هكذا قال ممدوح).
- وبعدين؟! (هكذا قلت أنا متسائلا).

فعاود أنور الزغبى كلامه بأنفعال هذه المرة:

- ولا قبلين.. (وحل صمت طويل) الفكرة فى حبات الرمان انها كتيرة، ولونها كهرمان.. وبتقشعر البدن، تعرفوا أن فى اعتقاد قديم أن الرمأن هو الفاكهة المحرمة اللى خرجت ابوناأدم ونسله من الجنة، طبعا ممكن ترمى حبيتين اللى تحت، بس الفكرة بقى أن اللى معاه الرمانة هيأكلها عن اخرها لوحده، طول عمرهم وهى ماشية كده، بقالها ستين سنة على كده.

ثم ابتسم أنور فى رقة ومسكنة، وقال بدلع المريض المتقبل لمصيره المحتوم راضيا، والمستسلم لما هو فيه مؤمنا، كما قالها عبد الله قديما لعزيزة فى الحرام:

- الواحد من كتر الكلام عن الرمان؛ ريقه جرى عليه.

فتبرع أحمد هشام، وقال وهو يضرب بيمناه على صدره، و بيده اليسرى يرفع زجاجة بيرة بأعجوبة:

- والله.. شوف والله.. لأجيب لك اجدعها رُمأن فى التو واللحظة.

حاول هشام أن يقوم من على كرسيه؛ فاندلق منه على الارض فاقدا توازنه تماما، ضحك، وضحكنا جميعنا، حاولنا أنا وممدوح البصراوى أن نعدله ونقيمه،لكننا فيما نمسك به، ونقيمه نصف قومة؛ قد أطلق ضراطا عاليا، فتركناه ليسقط ثانية فى وسط حالة هستيريا من الضحك والصخب، ذلك الضحك الذى لولا تأثير الحشيش والشرب لما بقى هكذا.

انسحب ممدوح البصراوى من لسانه، متبرعا هو الآخر؛ أن ينزل بدلا عن أحمد هشام؛ ليحضر بضع حبات من الرمان من السوبر ماركت القريب ويرجع سريعا، فأشار علىّ هشام أن انزل معه لأوصله بعربتى؛ لأنه لم يكن يمتلك سيارة خاصة مثلنا.

وفى العديد من المحال والسوبر ماركت الكبرى ننزل و نطلب و نسأل و نبحث، بل ونقارب حد الشحاذة؛ من أجل حبة واحدة فقط من الرمان.. ولكننا وفى كل مرة لم نعثر ولا حتى على ثمرةٍ واحدةٍ، كان هذا امرا طبيعيا جدا فى مثل هذا الوقت من العام، فقد كنا فى غير موسمه، وحتى لما كان فى موسمه منذ عدة أشهر مضت؛ كان شحيحا، فقد جاء موسم الرمان هذه السنة مضروبا.. معى فى تابلوه العربة زجاجة جون ووكر محتفظا بها، لمثل لتلك المواقف السخيفة، المغلفة بسوء الحظ ومشكلات التوقيت، أرتشف منها رشفة –أو ربما عدة رشفات، على حسب صعوبة الموقف، وحجم هذا الضيق– كلما عَلِقتُ فى إحدى الطرقات بشكل فج لعدة ساعات، أو كلما بُوغِت بضيقٍ مفاجئ على الطريق ناجما عن إحدى تلك الهجمات الغير المبررة، لإحدى تلك الذكريات الغير المفلترة.. بالتأكيد كان بأمكاننا أن نعود أدراجنا فى اى وقت نريد للدار، معتذرين بعدم وجود ولا حبةٍ واحدةٍ فى الأسواق.

وهذا ما كان يجب علينا وأن نفعله، وياليتنا فعلناه؛ لكان انتهى الأمر عند هذا الحد، لكنا لم نكن ساعتها لنرضى بمثل تلك الحلول الوسطى.. فممدوح لم يكن معتاد على الشرب، وأصر وأن نطلع على سوق العبور من أجل الاتيأن بالرمان من هناك،

فهذا هو أكبر سوق للفاكهة فى مصر كلها، تحمست للفكرة كما مراهق عثر على من ترغب فى المضاجعة، المهم اتجهنا بالعربة صوب هناك، وفى الطريق؛ كدتُ أن اصطدم بحافلة – لكنها قد مرت على خير– فتبادلنا المقاعد وقاد هو باقى الطريق.

52

وأيضا هناك لم نتمكن من العثور ولو حتى على ثمرةٍ واحدةٍ، فبالإضافة إلى أن أغلب المحال فى السوق كانت قد غلَّقَت أبوابها؛ فحتى تلك المحال التى كانت ما تزالت مفتوحة قد اكد لنا الباعة القائمين عليها استحالة العثور ولو على ثمرة رُمان واحدة بالسوق، أو خارجا عنه، ولو حتى كانت فاسدةٍ، كنا قد اتينا على كامل الزجاجة فى طريق عودتنا إلى الدار بوسط البلد، وكان ممدوح مايزال هو من يقود بنا.. نظر الىّ ضاغطا بيديه على المقود، وبقدميه على دواسة البنزين –وهو يزيد من سرعة انطلاقنا– قائلالى بعينتيه المغربتين، وبلسان ثقيلٍ:

- انى احبها.
- وأنا كذلك احبها.
- أضاجعتها؟

- ولما تسألنى هذا السؤال،

أتريد وأن تتزوجها؟! (صمـــــــت).. هيا أجبنى؟!

- هل ضاجعتها؟

- ما الذى يحشرك أنت؟ ما الذى يهمك فى أن كنا قد فعلناها سويا ام لم نفعلها؟!

- أنت مَن أصريتُ على رفض "نبى من دون نبؤات" أليس كذلك؟! لقد أخبرنى الشاعر.. اعترَفَ لى أنه حتى لم يلقِولو نظرةٍ عابرةٍ على ديوانى.

- نعم.. وها أنا أيضا أعترف لك، فأشعارك مقرفة، أشاعر أنت ام مُخرج، أعَلِمَتُ الأن لما أبغضك.. لأنك وغد عديم الموهبة، لا تعرف ماذا تريد على وجه الدقة، أتظن بنفسك انك نجيب سرور؟! ها.. فحقا لا اظن أن فيك ما يشببه؛ الا وحده المصير البائس المشترك.

- ألانت صاحبى أنت؟!.. يا لك من وغد ابن زانية.

- الأن أقول لك من الزانية؟! هى الزانية يا صغيرى، ولا احدٍ غيرها، لقد ضاجعتها مرارا، وهشام فعلها، و رامز صاحبك الشيوعى قد فعلهـــا معهـــا هو

53

الآخر، بل وحتى أنور الزغبى –ذلك الذى رجله والقبر– قد قضى منها وطرا كذلك.

- أوتعلم.. انك أكثر كاتب وغد قد قابلته طيلة حياتى.

ضغط بقدمه على دواسة الفرملة، وسحب بيده فرامل اليد، فإذ بالعربة تدور حول نفسها؛ حتى كدنا أن ننقلب، إصطدمت شفته السفلية بالمقود فَفُتِحَتُ ونزفت، شدنى الحزام بأحكام فبقيت فى مكانى متجمدا من دون اذىٍ، نظرت إليه، و وضعت سبابتى ملامسا شفتيه وقد تلوثت بالدماء اللزج، ابتسمت.. ثم تحولت الابتسامة –سريعا كالقطار اليابانى الفائق السرعة– إلى ضحكةٍ صاخبةٍ مجلجلةٍ.

فتح بابه، وترجل من السيارة، وإذ به يتجه نحوى، وهو يعرج، وجسده كله يرتعش فى غضبٍ؛ ففككت حزامى وهرولت مبتعدا عن السيارة، لم اكن أعلم أين نحن على وجه التحديد – ربما كنا فى مكان ما على حدود مدينة نصر– كنـــا منتشيين،

محششين، سكرانين،

وبالتأكيد كنا غاضبين.. كطفلين مشردين، يتصايحا فى وسط خرابة قذرة، متعاركين على كسرة خبز عفنة، ساقطة من فم كلب أجرب.

اختل توازنى؛ فسقطت على وجهى، وفى ثانيةٍ واحدةٍ كان راكبا هو على ظهرى، يشدنى من شعرى، صارخا فىّ فى غير وضوح، كلمات تشبه الكلمات، على ما أتذكر كانت ‘‘تنا نبا ت كانت ملوخ" فصحت وأنا افرفر، من تحته"اطلقنى أيها الخرف، أتتكلم الفارسية الآن" فقال لى هذه المرة فى عربيةٍواضحةٍ "فقط أقول انك ابن عاهرة، ديوث، بالدادائى أيها الوغد الخصى" مباشرة بعدها، كنت قد أفلت منه وضربته بقدمى فى معدته عدة ضربات متتاليات، فأرتميــت فوقه إذ كان يتوجع.. كان الظلام مطبقا، ولم يكن من مارة فى ذاك الشارع، لم يكن سوى محلا منيرا يلوح هناك فى اخر المدى، دفعنى فوقعت ارضا، فيما قام هو معتدلا، يفكك من حزامه، ويلفه على معصمه؛ فجريت من وجهه طائرا متجها إلى حيث النور؛ لكنه قد تبعنى إلى هناك ثانيةٍ.

وصلت اولا.. وحينما قد حصلنى أخيرًا، كنت واقفا متسمرا، كان على رأسى الطير، لقد كان محل عصير قصب، يتدلى من

سقفه شباك الموز والبرتقال والخوخ، وفى منتصف مقدمته تماما، عُلقت رمانةٍ حمراء، كبيرةٍ وناضجةٍ، وحدها فى شبكة صغيرة مخصصة لها، نظر الىّ..

فوجدنى محلقا فى السماء، وعلى وجهى مرتسما تعبيــرا غريبا، ربما كان هو ذاته تعبيــر هاجــر وقت أن سمع لها الله، وفجر لها عين

من المياه فى الصحراءالقاحلة لتسقى صغيرها وتستقى منه؛ فلا يموتا، ما أن ناظر الىّ؛ الا وقد ادرك اننى وجدتها أخيرًا فتطلع إلى حيث أنظر؛ وإذ بها رمانةٍ حمراء، تلك التى ربما هى من أخرجت أدم ونسله من الجنة قديما إلى الآبد، والتى من أجلها قد قطعنا كل تلك المسافة الطويلة، فى هذا الليل البهيم، اليوم.. كانت عاليةً على كلانا، استمررنا فى التقافز والتناطح، كزوج من النسانيس تماما، إلى أن خرج لنا صاحب المحل يلوح بسكينٍ، فألقيت له على عجلٍ ورقة نقدية فئة المائة جنية، من أجل شرائنا للرُمانة المعلقة، فأخذها واختفت عينان فى كومة من لحم وجهه الملئ على اثر ضحكة صاخبة، ومالبثنا نتناطح ونتقافز إلى أن سقطت أخيرًا ارضا وانشقت، فألتقطها ممدوح

بسرعة يحسد عليها، ضاربا الثمرة فى حافة الرصيف عدة ضربات قويات، القيت بنفسى على ظهره.. لكنه كان قد وضع فمه فيها ولم يخرجه الا وقد سالت عصارتها على وجهه و قميصه.. وقد اتى عليها كلها.

لوهلةٍ شعرت بإنقباضٍ بقلبى، وبغصةٍ فى حلقى، فأخذت أتقافز مشوحا فى وجهه، شاتما أحيانًا، ومذكرا إياه احيانا اخر؛ بأننى قد تمكنت من النشر من قبله، وحصلتُ مجموعتى القصصية الأولى على جائزة مرموقة فى عالم الادب، هى جائزة يحى الطاهر عبدالله للقصة – وبالمناسبة ليست جائزة إبراهيم أصلان كما جاءت فى قصته الثانية– كما حصلتُ على قلب جُلنار وجسدها؛ فصمت يلتقط انفاسه المتهدجة لبرهةٍ، بعدها ركن إلى الرصيف، واخذ فى البكاء والتشهنف، جلس صاحب المحل بجواره، يربت على كتفيه، قائلا له –بعد أن استفسرنى عن إسمه – فى موجة من الحنو الأبوى العجيب والمفاجئ "وحد الله يا جدع، وحد الله يا دوحا، وحد الله يا دودو، وحد الله يا دوحا" لكنه قام مشمرا عن ذراعيه؛ فأُخذتُ لثانية، وخشيتُ من أن يهجم علىّ كما فعلها منذ قليل، لكنه نظر الىّ، والدمع فى عينيه يحاول كبته، فلا يستطيع، وقالها لى، فى بساطة هكذا، تلك

الجملة السحرية – التى حفرت فى ذاكرتى – قبل أن يختفى من حياتى إلى الآبد.

"أنت تؤذى نفسك؛ إذ تحاول أن تؤذينى".

نظر الىّ رامز ممتاز؛ وإذ الدمع يفر مِن عينتيه الحزينتين، تنهد، تنهيدة طويلة من شأنها أن تسيح ثلوج القارة القطبية جمعاء، وقال منكسَ الرأس:

- لقد اعتقلوا ممدوح البصراوى، منذ زمنٍ بعيدٍ، ولم أعد أعرف عنه شيئا من حينها.

55

ســـــــفـــــــــــــر

الـــــتــــــشــــــــــــــــــــوش

المجموعة الثالثة من الأوراق

أهملها، ثم أتذكرها.. ثم أنساها.. واتناساها.. ثم ألقيها فى درج المكتب.. ثم ارُجعهــا إلى سطـــحه.. ثم أهــرع لتمزيقها، ثم احنو عليها.. ثم اربت عليهــا، ثم ماذا؟! ثم ألقيها خلف المكتب بينه وبين الحائط.. ثم انساها.. ثم تظهر عند التنظيف.. ثم أضع قلمى فيها.. ثم.. ثم ماذا؟!

إننى فقط لا أعرف.

ملاحظات شكلية/

دفتر به أوراقٍ مصفرةٍ، بعضها مكرمشٍ، مكتوبة بخط اليد، متربة ومبقعة، به الكثير من الشطب.. عَنونها بسفر التشوش وتحت العنوان قد كتب تلك الجمل.

بحق.....ايزيس.... استمعى.... اليّ....

هل مازلتى ها هنا؟!.. هل مازلتى تشعرين بى؟!.. اقتربى إذن.. المسيننى أن استطعتِ.. اقتربى أكثر فأكثر، اشعرى بلفحات انفاسى الحارة المتشوقة على وجهك و رقبتك.. هل مازلتى هنا؟!.. اقتربى أكثر إذ اردتِ.. وأنا اعلم انكِ تريدين.. اقتربى إذن..

اعدك أن الآلهة الرحيمة ستغفر..

ستتفهم.. وستتعاطف.. لكن بحق ايزيس اقتربى..

بحق ايزيس الا تخافى....

ارجعى بذاكرتك، تذكرى ذلك الأسمر صاحب الشعر المشعث.. أنه كما هو، وكما كان دائما..

كما عهدتيه.. ماذا الذى قد حدث؟!.. بحق أمنا المقدسة ايزيس.. اعطفى وتعاطفى، بحق ايزيس مدى يدك الحنون،

احملى حورس..

اطلقى مشداتكِ، القيها بقوة يدك بعيدا إلى حيث تتبخر.. قربى الصغير منك، اكشفى عن ثدييك العامرين؛ ودعى الصغير يرتشف ماء الحياة.. كاد الصغير أن يجف، أن يموت، وأنتِ أمنا المقدسة مانحة الحياة.... فبحق الآلهة أجمعين.. بحق الآلهة أجمعين.. الاشرار منهم والطيبين..

بحق ايزيس الرحيمة المترحمة.. دعينى تلك المرة، استدعينى إلى حضرتك لمرةٍ اخيرة؛ لأرجع وأشتم عطرك الأخاذ ثانيةٍ.. عطرك مسبب الحياة للأحياء.. عطرك الذى منح سره زوسكند لبطل روايته جأن باتيست غرنوى؛

فكان السبب فى حياته، وكذلك كان السبب فى هلاكه.

يا أيتها الآلهة المترحمة.. لتصلكم ابتهالاتى إلى عليائكم.. لتنظروا إلينا بعيونكم الصافية البراقة التى تضئ النهار.. وشعور رؤوسكم المسترسلة فى انحاء المجرات التى تكلل الليل بسواده.. تقبلوا ابتهالات الاولياء الصالحيين..

والصبيان الضاليين.. تقبلوا ابتهالات أولادكم.. الأبرار منهم والفاسقين.....

تخبرنى اختى الصغيرة أن الحل الوحيد لكى استطيع العيش فى تلك المنطقة من العالم هى أن اصبح متبلد المشاعر

"متتأثرش" أعرف فى اعماقى أن هذا هو الحل المنطقى الوحيد المتبقى.. ومع هذا!! بعد صورة لضحية جديدة على يد داعش فى سوريا اتساءل عن فائدة الحياة على هذا الكوكب، لقد نجحوا فى جعلنا فريقين.. فريق لا مبالٍ، وفريق اخر مجنون.

ولسوء الحظ فلطالما ما كنت من الفريق المجنون،

المنفعل بالأحداث.. بالأفكار.. بالمشاعر. الآن وبعد كثير من الانفعالات الماضية..

للأسف؛ مازلت أنفعل.. مازلت اقف فى وجوه الجميع.. اقف فى وجه المجتمع، اقف فى وجه الحكومات، اقف فى وجه الحياة، اقف فى وجه الاله، لكنى فقط اقف فى منتصف الطريق، يقول الصوت:

اصمــت،اصمــــــــــــــــــ

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــت الآن أيها الابله.

لتصمت تمام الصمت.. بماذا سيفيد الكلم؟! دع الكلم للمتكلمين.. ودع الوجع للمتوجعين..

إن الوجع الحقيقى لا يصفه الكلمات، أتعتقد أن الحبر النازف من قلمك على الورقات البيضاء قد يغير من شيئ شيئا..

أوَتعلم ما معنى الكلم فى القاموس (هو كل جُملة مفيدة أو غير مفيدة!!).. والأن اخبرنى صراحةٍ امازلت لا تدرك أن كل الجُمل غير مفيدة،

وأن كل الكلمات غير مفيدة، وأن كل الصرخات غير مفيدة..

لتصمـــــــــــــــــــــــــــــت إذن يا رفيقى

لكن لو صمت الآن؛ متى اتكلم إذن؟! وحين اتكلم ماذا على أن اقول؟!.. ألحرق كل الأشعار والأنثار واتجه إلى الأميات! فقد تشفى غليلى و ترضى قلمى النازف من روح الجسد المنكود.. ليست الطامة الكبرى فى أن الحياة تضاجعنا ؛بل انهم يحرمون علينا حتى التأوهات و الغنــج، يقول الصوت:

الا تستمع لى أيها الحشرة..

فى كل تلك الاكوأن الشاسعة، والمجرات، والنجوم والاقمار، والشموس، والكواكب، والمخلوقات.. تأتى أنت من الارض..

من التراب.. هذا الكوكب المتحارب مع ذاته.. لتفكــر فى عبثية الحياة.. وهل هنـــاك عبثية

57

أكثر من كل هذا النظام، الــلا نظام.. لتدرك الأمر إذن أيها الخنزير المتأخر..

لا سبيل للأعتراض.. لا سبيل لأن يستمع الالـــــــه لصوتك.. ولا سبيل للهـــرب.

صمــت

يقول الصوت: فى البدء عليك أن تعاف الكلام،

ومن ثم تعاف الطعام،

وأخيرًا.. وإن تجاوزت العقبتين،

تعاف الحياة.. و تعاف الصخب،

ولتذهب من حيث اتيت.. (ما يقرب من الاربع صفحات مشطوبات فى هذا الموضع).

(الرمزية فشختنى فى أفكارى.. ورب العرش نجانى).. التعبير مستوحى من ادب التكاتك، اسكت، اقول لنفسى هكذا افضل لقد سكت أو اسُكت لفترةٍ طويلٍ لماذا إذن تريد أن تتكلم الآن؟!

ولمن؟! ماذا تريد أن تقول! أهُم لا يعلمون مثلا! الكل اليوم يعلم كل شيئ عن امس و اليوم وغدا..

هل فقدت الكتابة قدرتها على الحكى؟!..

أم أن منبع المشكلة هو جوهر الحكى ذاته، لمن تحكى؟!..

وتحكى لمن؟!.. أاقول لك أفضل أن ترقص.. نعم أن تتبع حكى جسدك، ترقص حد الأغماء..

ترقص حد الأرتقاء...

لنبدأ من جديد،

بدءا حسنا،

أريد أن استبدل صوتى.. لأحصل على صوت مارلون براندو، ضحكة خالد النبوى، نظرة آسر ياسين، عضلات آدم سميث، ولنبقى على سمرتى.

لأحصل على قلب و سخريه نجيب سرور،

ولأحصل على مخيلة دانتى اليجيرى.. وربما على حظ شيكسبير الذى قد خلده ميتا وشرده حيا.

هلوسة.. سخط.. تعبير.. شغف.. انتقام.. رقص.. قص.. سينما.. ردود افعال.. عربدة.. جنس.. سكر.. رياضة.. خيانة.. انهيار.. انكسار.. انتحار.. سخرية.. سخرية.. سخرية.... لنبعث بمندوب منا –نحن البشر– إلى الله.. على أن نعطيه قائمة قصيرة بمطالبنا.. ولنجعل الأجتماع أكثر واقعية؛ لنعطى مبعوثنا القدرة الالزامية.. لنفوضه فى امكانية أن يتخذ القرار الحتمى نيابة عن الانسانية و بدلا من الخالق ذاته..

لتنتهى تلك المهزلة.. لننتهى من تلك المسرحية الكوميدية الفاشلة التى تبعث على الكآبة.. لنخلص من هذا العبث البيكيتى، لنذهب نحن إلى غودو، لقد مللنا انتظار غودو.. لنحدد شرط اساسى والزامى للتحاجج مع الخالق..

"أن لم تستمع إلينا.. و تنفذ مطالبنا.. سندمر الكوكب.. لنفنى الحياة من على سطحه، ولتجلس وحيدا أيها الرب"

اقترحات اولية للمطالب الموجهة للاله، اكتبها كما اتفق، لنلغى كل الاديأن ولنبدأ من جديد، على الا يكون الأنبياء المبعوثين قله، فلتكن النبوة حق للجميع.. ليكن كلنا انبياء، لتزود اجسادنا بالكلوروفيل من اجل توافر الغذاء.. على أن تأخذ تعهدات قاطعة على الحكومات الا تصنع مظلات عملاقة!! أن تعطى لبنى ادم الأجنحة كما اعطيتها لبنى الطيور.. (لكن الله يباركلك أن تكون اجنحة فخمة وشديدة و قوية من اجل احتمال القاهريين) الا تحتجب بعد الآن.. تتواجد بشكل مستمر يجعل من اليسير الوصول اليك، كذلك ان ننهى مسالك الشيطان الشائكة تلك، ونضع حدا لهذا العبث. ان تجعل كل البشر من متلازمة داون.. ومن الإنتحار حلالا بينا.. وتعطينا الحرية الحقيقية فى اختيار الحياة من عدمها، و باقى الاختيارات التى تأتى بالتَرَتُب عليها، كأختيار الشكل والنوع و الوطن واللون و الجسد و باقى الأشياء التى على مثيلاتها

ولما استيقظ العــم سرحان متأخرا هذا اليوم؛

شعر بالجوع ينهش احشاؤه،

فالمعروف عنه من نفسه اولا،

ثم من افراد العائلة وجميع اصدقاؤه ثانيا..

إنه إن لم يتعشى فى الليلة الماضية قام من نومته جوعانا كما لو كان يُرضع..

ذهب إلى حوض الوجه و غسل وجهه بالماء البارد ثم لما لم يتحمله فتح الماء الساخن، فسخن الماء إلى قرابة الغليان.. وهنا تراجع للخلف قائلا

"أنا اللى غلطان علىّ الطلاق ما فارقـــه"

كان للعم سرحأن اصدقاء شعبيين يُقسمون بالطلاق كل يوم، هكذا ببساطة (علىّ الطلاق لتتغدى معايا النهاردة.. علىّ الطلاق ده لعيب ابن مرا.. علىّ الطلاق مدرب حمار)..

هكذا فى سهولة ويسر.. كانت الكلمة فى كل مرة على طرف لسانه؛ لكنه يتراجع دائما..

أو هكذا كان..

إلى أن رحلت زوجه..

وحين رحلت تغير الكثير.. شملت التغيرات –على سبيل المثال لا الحصر– القسم بيمين الطلاق – كالشعبيين من أصحابه – فى ابسط الامور و أكثرها تعقيدا..

كمشاهدة الأهلى على مقهى المعاشات بدلا من المشاهدات المنزلية.. كذلك تناول قطعة يوميا من الشيكولاتة بالمكسرات

–فقد كانت الحاجة– رحمها الله – تمنعه دائما من ذلك خشيتا عليه من داءالسكرى– أصبح هذا طقس يومى لا سبيل للتفاوض بشأنه أو التنازل عنه..

كذلك فقد إشترى كل مؤلفات إحسان عبد القدوس و إستمر فى قراءتها بشغف بشكل يومى، إلى أن انتهت ثم بدأ فى اعادتها بصورةٍ دوريةٍ.. كانت زوجه الراحلة تفضل محفوظ أو إدريس وتعتقد فى أن إحسان ربما يكون ضعيفا ادبيا.. لكنه دائما وعلى العكس منها ما اعتبره اديبه المفضل.. اليوم الأول.. اشترى جرنال المصرى وبجنية جرجير، قائلا بخبث للبائعة الشابة ملوحا لها بحزمة الجرجير "لو يعرفوا قيمة الجرجير؛ لزرعوه تحت السرير"..

ثم اشترى بجنية اخر رغيفين محمصين مقببين.. و من المطعم بجنية طعمية فقط –لكراهيته الشديدة للفول الذى لا يتفق أبدا وقولونه العصبى، وكأنما الطعمية مُصنعة من حبوبٍ غير الفول– حين عاد إلى بيته، وفتح القرطاس وجد به 5 طعميات بدلا من 4.. وهنا اكتشف أنه اخطأ فى العد.. وقال " لأدفع للكاشير الجنية و الربع فى الغد وأخذ 4 فقط.. كله الا الحق! "..اليوم الثانى.. وجد معه ورقةٍ بمائتين جنية و جنية فضة.. فاشترى 4 طعمية بجنيةٍ مؤجلا دفع الربع.. قائلا فى نفسه "لازم شوية يموتوا علشان الأكثرية تعيش.. لنضحى بالربع جنية من أجل المائتين".. اليوم الثالث.. حين رجع إلى البيت اكتشف أنه لم يدفع الربع جنية بالأضافة الى أن القرطاس يحمل 5 طعميات.. "علىّ الطلاق أنت مسطول.. كده برضو، يبقى الراجل ليه عندك نص جنية.. علىّ الطلاق أنت سكران أو محشش يا سرحان افندى".. اليوم الرابع.. 5 طعميات، عليه فرق 3.. اليوم الخامس.. 5 طعميات، عليه فرق 4 طعميات (بجنية).. اليوم السادس.. بعد شراء المصرى و الجرجير و القفشات الجنسية مع بائعته، و شراء ارغفة الخبز المحمص المقبب الذى يتفنن فى وضعها على طبق من فضة ويبوشها على مهل على حوض الوجه.. وجد بالقرطاس 4 طعميات.. وعليه

4 طعميات.. اليوم السابع.. تذكر عند اخذه الطعمية ما عليه.. ثم اخذ 4 طعميات مؤجلا دفع الجنية للغد.. متذكرا بائعة الجرجير، مبتسما لذاِكرته..

اليوم الثامن..

دفع جنية كامل متكامل فضى لامع.. وأخذ 3 طعميات فقط ولا غير.. اليوم التاسع.. دفع جنية وأخذ طعميتين.. اليوم العاشر.. دفع جنية وأخذ 4 مؤجلا دفع الربع جنية للغد....

وهذا ما يذكرنى بسفر الرؤيا.. رواية تنتمى لأدب الرعب.. فيها روح شعرية اقوى من الروح النثرية.. هل أنت معجب بسفر الرؤيا؟!.. اجزاء قليلة.. أو بالأصح بعض العبارات من هنا وهناك.. هل تحب الله؟!..

وهل هذا سؤال!!

بالقطع لا أعلم،

والا سأكون كذابا أن أنا اجبتك بنعم أو بلا..

هــل تحــب فيلم البحــث عــن سيد مرزوق؟

بالطبع يا هــذا، أنه

59

داود عبد السيد.. هل تمزح! احكِ لى ما الذى اعجبك فى هذا الهراء؟!... هراء!!

"هراء امك على جنب " لن احكى لجهول مثلك.. الحوار مع الجاهل كحوار الطرشان، أرأيت انك مغرور!!

نعم مغرور.. لكننى لست متكبرا.

احسنت فالله يقاوم المتكبرين، لكن اخبرنى لماذا تبغض سفر الرؤيا؟! يظهر الاله نرجسى و معقد نفسيا –عن حق– وهذه صورة بعيدة عما فى ذهنى عنه..

أوتعلم أن الكنيسة السريانية الشرقية لا تعترف به!! ولكنك لست سريانيا..

ربما كنت بعض الشيئ سرياليا لكن قطعا لست سريانيا، ومع هذا تقتبس منه فى جزء من روايتك الجديدة.. وما الذى يضايقك أنت فى كل هذا.. أوتعلم ما الذى يضايقنى.. هو انك تعرف أن هذا السفر الآخير فى الكتاب..

هو حق..

هو وحى..

هو صورة الاله الحقيقية، الذى سيصب جام غضبه على الكون.. وعليك وعلى أبيك وأمك وعائلتك وكل البشرية جمعاء، هذا المهيب، القوى، المتجبر، المنتقم، والقادر على ارتكاب كل الجرائم واشنع الشرور بالبشرية –الذى يدعى حبه لها– دون أن يندم ولو للحظةٍ واحدةٍ..

دون أن يرمش له جفن.. وهل لله أن يندم؟! اعتقد أنه يعيش فى بحر من الندم.. بحر هائج.. نعم اعتقد أن الله ندم، يندم.. سيندم.. أأعجبتك برلين 69؟!.. نعم اعجبتنى.. وإن كان صنع الله قد تحامل كثيرا على البلدان الاشتراكية فى تلك الرواية الاخيرة.. ولما لا يتحامل، أوتعلم كم بقى فى سجون الاشتراكية تلك؟!.. ومع ذلك فهو يسارى.. نعم.. لما.. لأنه انسان منصف أولا وأخيرًا، هل تحب الآيس كريم؟!.. أكل منه فى هذا الشتاء و ارتعش فى برده...اتحب الصدور اكثر ام الوراك؟!.. على حسب "الدجاجة".. على رأى الامريكان the chicken بماذا يذكرك الرقم على عنوان الرواية؟.. 69.. نعم،أنه يذكرنى بكل خير!!!! اعتقد أن صنع الله ابراهيم قد تخير هذا الرقم بخبث المراهقين وشقاوتهم، هل ستدعو روايتك الجديدة (الصوت) ام

(الرسائل)؟!.. لقد سبقنى مصطفى ذكرى لــ"الرسائل".. لكن ما فى هذا.. ما فى هذا؟!

إعترف انك أردت أن تكتب عن شخصيات ذكرى الادبية، وما فى هذا؟!..

ما فى هذا أيها الداعر؟!.. تريد أن تكتب قصة قصير عن ننّة و عادل ريت أو بوسى شخوص ذكرى أيها المخادع..

وما فى ذلك؛

ما هــــو قــد أدخل دون كيخوته فى مواقف قصصية له.. هل إعترض عليه ثيربانتس الله يرحمه ويبشبش الطوبة اللى تحت رأسه.. ولا مثلا لما نحت يوزف وهو أشهر شخوص فرانز كافكا و قطقطه وبقى قطة العدوى فى إسود وردى، كان يعنى كافكا نصبله (المُحاكمة).. لكن هذا امر مختلف.. (ولا مختلف ولا حاجة).. أنت فاكر أن أنا وأنت وذكرى بس اللى بنسرق شخوص الادباء التانيين..

لا ده احنا كتير قوى..

هنا وفى امريكا و فى الخليج (بصوت حاتم رشيد)..

أنت عارف ايه اللى حرام فعلا.. انك تسرق فكرة.. يعنى كاتب تانى يكتب رواية أو فيلم وأنت تسرق فكرة الفيلم أو الرواية دى،والناس تتلخبط و تفتكر العمل الابداعى ده من (بنات افكارك).. وده علشان اختلاط الأنساب الفكرية انما انك تسرق شخوص كاملة متكاملة معروف نسبها لكاتبها الشرعى مش حرام.. ده ربنا رحيم جدا و رؤوف جدا جدا.. ثم ما عندك مثلا خالد الخميسى فى السفينة بتاعة النوح افندى سرق سناء بنت سعيد مهران و اخذ نور حبيبته.. ايه اللى حصل يعنى الدنيا اتقلبت.. محفوظ –الله يرحمه و يغفرله– رفع قضية نفقة عليه مثلا، ولا قعد يردحلة و يقوله رجع الشخوص يا عرة الادباء ياللى ياللى!..

يا راجل كبر مخ امك شوية..

العالم قرية معفنة صغننة... ما هى حكمتك المفضلة التى تعدها نبراسا لحياتك؟.. ثم نسيت أن اسألك عن من هو قدوتك فى هذه الحياة البائسة؟.. بسم الله الرحمن الرحيم حكمتى المفضلة

"ركبت الموسيكل بتاعى عملت

واحد امبليه راح اداني 2 فرقعة في الشوكمان ورا".. وقدوتي الفنان سعيد الهوا فنان الشعب و لؤلؤة الاسكندرية الكنيش..

شكرا.. روّح على امك......

في عالم أفضل،

السماء تمطر نبيذا،

الأطفال يمرحون في المروج،

العجائز يعكفون على اراجيحهم يقرأون في الهواء الطلق..

والله يضحك نهارا ويتبسم ليلا..

والانسان يضرب الهواء بجناحين يصعد بهما حتى مشارف مملكة الله. في عالم أفضل..

لا يوجد شياطين وجند النار فيما بعد..

لا يوجد جوع،

ولا مرض، ولا توجد الكراهية فيما بعد. فقط توجد مكتبة بها ما قد كُتب أو نُطق به على مر العصور.. في كتب حمراء حروفها من نور رصت على ارفف من بنور..

وتوجد بلازما عملاقة يُعرض عليها حيواتنا وكل فعل قد فُعل وكل قول قد قِيل..

وكل فعل لم يُفعل.. وكل قول لم يُقال.. وفى وسط المكتبة يوجد كتاب منطوق..

بصوت الاله، به ما قد خبأه الله عن كل المخلوقات.. به اسرار الالهية،

وطرق القدرات الكونية،

والمعارف،

والحقائق،

والمشاعر، والحواس..

هناك أيضا نهر من الخمر، وعلى حافة النهر وقفت شجرة تين تنتج وترمى لألاف السنين.. من يأكل من الشجرة يعرف الخير و الشر.. وعلى الحافة الآخرى للنهر وقفت شجرة تفاح تنتج وترمى فى كل مساء و صباح..

من يأكل من ثمارها يصير كالله،

عارف فاهم خالق قادر فى قدس الاقداس تزهر رُمانةٍ زاهيةٍ من يأكل من ثمارها يعرف الحب والحياةِ.. هناك لا الهةٍ ولا عبيد..

هناك لا اخيار ولا اشرار..

هناك حيث يجلس على الكراسى المعلمون من كل العصور من كل اللغات، واللهجات، والثقافات، والحضارات..

هناك عند المعلمون، هناك تكتمل المعرفة الغير مدونة والغير مصورة و حتى الغير منطوقة..

هناك سأجلس مجلس التلميذ من الاساتذة من كل العصور..

سأجلس عند قدمى داود،

وإبراهيم، ويعقوب، وداروين، وشيكسبير، ودانتى، وأبى العلاء، والحلاج، وطه حسين، ونجيب سرور، وفيللينى، ورضوان الكاشف، وترانتينو، وداود عبد السيد،

هناك حيث الوجود الحقيقى،

فى عالم افضل.........

يقول شاهين فى اسكندريته "اخ يا اسكندرية اخ"..

الجحيم الآبدى = فكرة سادية............

ستانلى كوبريك..لا ده حكاية تانية.. كان انتحر و قطع عضوه فى ميدان التحرير..طيب وبريجمان..

كان اشترى كاميرا ديجيتال وصور نفسه فى المراية فى مشاهد كبيرة ولقطات طويلة متوترة و هو بيتعصب و بيشتم امه و ابوه واللى جابوه و مصر باللى فيها..

وطبعا كان زووم بغباء..

فيللينى كان اشتغل موظف فى الحسابات فى اى شركة قطاع خاص، لحد ما يتمخمسين سنة و بعدها يرمى نفسه فى النيل و هو راجع من الشغل تعبان و قرفان و بيفكر فى مشروع لاسترادا أو ستريكيون بس بالفرعونى..

وانطونيونى كان بقى بياع سريح فى الصيف يسرح بآيس كريم و فى الشتا يسرح بالفشار المولع،

وتارنتينو ههه.. كان اشتغل ديلر حشيش..

وكان اتقتل فى خناقة مع عيال من السبتية.

وبالنسبة لسكورسيزى كان شنق نفسه فى يافطة اعلانات.. لأنه اكيد كان هيبقى معقد جنسيا (تيب قناوى كده.. غلبان يعينى بيحب هنومة وهى منفضاله)

ده غير أنه هيبقى مسجل خطر.. وجيمس كاميرون كان اشتغل ميكانيكى لحد ما يجيله عقد عمل فيسافر على النيجر أو الكاميرون وهناك يجيله ايبولا و يفلسع..

لو المخرجيين العالميين..

من مواليد مصر هذا العصر......

وبما انى شخصية من شخوص داود عبد السيد..

بفرح جدا لما اقابل شخصية من عالم رضوأن الكاشف.......

ماذا يتبقى لنا؟!..

نحن الذين نزل علينا الوحى.

ماذا يتبقى لنا؟!..

نحن الهائمون فى صحراء الحياة..

اردت الاختلاف

-الأن بعد أن حصلت عليه- اردت حياة عادية!!

سيدى أنت مغفـــل؛

لا ريـــب فى هـــذا علـــى الاطـــلاق، قل لى؟..

فيم كنت تفكـــر

61

وأنت تخلق الشخصيات و تتخيل الحكايات..

كنت تريد وأن تصبح الله.. اليس كذلك، كنت تبحث عن مشاركة اللاهوت، أم كنت تقلد الانبياء القدامى..

وتدعى انك تتلقى وحيا..

والآن ماذا يتبقى لك؟

صاحبى النبى -أو شبُه النبى- ما طلبته قد حصلت عليه..

والأن عليك دفع الثمن.. ثمن أنت الذى هو أنت،

ثمن ما اردت أن تكونه..

ثمن شهوتك..

وثمن ما أنت عليه..

ثمن تمردك..

وثمن محاولتك التدخل فى مجال هو فى نطاق اللاهوت.....

اللهم اجعلنى ارقص..

اجعلنى ارقص..

ثم حين اتعب؛

أنام لأحلم انى ارقص،

ارقص.. فأرقص.. وأرقص..

وحين أموت اجعلهم فى جنازتى يرقصون..

فيرقصون.. و يرقصون وحين يتعبون؛

فينامون.. اجعلهم يحلمون انهم يرقصون....

قال الاب: أنت تحيا فى اوهامك، أنصرف غاضبا واقول لنفسى "مش كفاية انى عايش" يخبرنى الصوت أن الرواية الجديدة أعمق من الاولى.. وأن علىّ أن اكمل بجد أكثر.. أخبره أن

يبقى فى حاله فأنا متشتت تماما الآن، اشتم رائحة البحر فى سكنى الآن، يبعد البحر عنى مايقرب من 300 كيلومتر.. كيف اتى البحر إلى حد عندىإلى سكنى؟..

كيف اقتحم صدرى؟! الصوت لا يريد وأن يصمت يهمس دائما إلىّ.. أريد أن اشترى رواية لكاتب يابانى؛ فأنا لم اقرأ لكتابهم سطرا واحدا يوحد الله.. سوى لهاروكى موراكامى ولم اجده يابانيا كما ينبغى..

ربما لم يكن الا يابانى متأمرك، أو أن اليابانيين ذواتهم اصبحوا متأمركين أكثر من الامريكيين انفسهم....

رسالة إلى الشتاء: عزيزى الشتاء تحية طيبة، وبعد.

صديقى الجميل الكئيب،

أفتقدك ايها الحبيب.. إلى متى تبتعد بعيدا عنى، تعالٍ إلىّ.. تعال إلى حبيبك..

لنحتفل سويا بعيد الكآبة الشتوية..

دعنى أعترف لك اننى ظلمتك فى اخر مرة قد قابلتك فيها،

وقلت أين أنت أيهاالصيف،

لأننى –كما تعلم– لا ارتدى طوال الصيف غير البوكسر لاغير..

ومـــع ذلك لقد اهملتك يا رفيقى الرقيق..

واشتهيت الصيف،

أعترف لك الأن فبرغم حبى؛ هذا ما قد حصل.. اننى افتقد تأنق الناس فيك.. لقد افتقدت جو الغرب السودوى الذى تمنحنا إياه بكرمك.. افتقد احساس اننا نصور فيلمٍ اوربيٍ كئيبٍ نرتدى فيه ملابسك الثقيلة الفخيمة، ونتهرب من امطارك وثلوجك، تحت مظلاتنا المهترئة..

أمل أن القاك فى أقرب وقت يا صديقى البعيد"..........

الجحيم الأبدى= فكرة سادية، لكننى عندها سأذهب إلى الشاطئ البعيد، المهجور، فى الفجر..

حيث الجميع نياما ماعدا جنيات البحر،

سأخلع ملابسى عنى.. إلى كمال التعرى.. لكن يجب اولا وأن يمن الكوكب علينا بليلة قمراء، ثم سأجثو على ركبتيّ، مترنما

بنشيد الخيال والخلود.. سأغنى النشيد الحزيــن إلى منتهــاه.. من ثــم سأهيل الرمــال علــى رأسى وكتفى وصدرى،

سأهــرول نحو المياة.. وحين أُلقى بنفسى إلى الداخل ستغسل المياة المالحة عنى كل الماضى والحاضر وحتى المستقبل.. وستجعل من الأسماك الملونة تطفوا على السطح..

لأحمل منها سمكة ملونة كبيرة، بالطبع لن تكون سمكة سليمان أو أبيه داود،

لكنها ستكون سمكتى التى اهدانيها البحر الأبيض..

وحينما يعطينى البحر هديتى،

سأخرج منه لأكلها كما هى نيئة عن اخرها..

حينها –وحينها فقط– سأصبح ابن للبحر، ابن لبوسيدون واخ لأخيل من امه ثيتس، بعدها سيخرج البحر منى وعنى، سيبعث بى موج البحر العاصف إلى بلاد الصحراوات البعيدة الجافة.. هناك سأنال الوشم الأقدس حين انتهى من فترة الجفاف.. واصبح سمكة ملونة كبيرة تعوم فى رمال الصحراوات.. وحين انتهى من فترة الجفاف، ارجع كما كنت.. جاثيا على الشاطئ

اهيل الرمال على راسى وكتفى وصدرى.. مترنما بنشيد الخيال والخلود....... قال لى اننى يومها كنت سكرانا بغير خمر،

مغيبا من دون أن اجرع من الويسكى كعادتى، أو أن

62

ادخن من لفائف الحشيش ولو واحدةٍ

و ماذا كان ردكاخبرنى؟!

قلت له اننى –فى ذاك اليوم– قد رأيت الله.

و ماذا جاء رده؟

لم يرد علىّ،

لقد صفعنى.. رفع يده وهوى بها على وجهى.. وبماذا رديت أنت عليه؟ قلت له أن الله قد وضع يده علىّ وباركنى قائلا.... لكنه لم ينتظر لأنهى كلامى، بل هجم علىّ مكيلا لى الضربات صارخا "اسكت يا كافر يا ابن الكفره" وقتها ماذا فعلت أنت؟ ابتعدت عنه مهرولا متخبطا فى الأشياء من حولى..

صرخت فيه، وأنا اتذوق طعم الدم اللزج على شفتيا

"لماذا إذن تعتقد أن الله قد تكلم مع غيرى من الانبياء؟!"

هلا.. استمع معى.. فقط ارهف السمع ولا تحاول أن تلتقطها بأذنيك،

لأن السمع حاسة؛

ولأن الحواس خادعة،

الموجة مختلفة يا رفيقى..

استمعها بقلبك، نعم يا صاحبى.. بقلبك، دعه يعيش، دعه يستمع، دعه يتحدث، دعه يجس، دعه.. افرج عنه، اعتقه، اطلقه، حاول أن تطمئن له.. لن يخدعك لكنه سيدعك تشعر بأنك حى، حاول أن تتواصل به. .

اطمئن، فالقلب لا يخدع كالحواس،

القلب اما أن يحيى أو أن يميت..

قد يقتلك؛ لكنه لن يخدعك، فقط اصغى إليه.. فوحده القادر على التقاط الموجة التائهة..

الصوت. .

اطمئن يا صاحبى..

فقط استمع للصوت و اتبعه.........

احتضنى أيها الموج..

ارفق بأبنك الغائب.

احمل جسدى المتشنج،

دعه يسترخْ على ظهرك الحانى الطيب، بقدر صوتك المرعب أيها البحر، بقدر رقة ملمسك، نعم أيها البحر الواسع.. أعترف لك بحبى لك.. وبغيرتى عليك أنا القاهرى المبتعد بعيدا عنك.. أنا المحسوب على النيل ابنا له.. أو ربما عبدا ملكه، أقد تورط فى خيانة النيل معك أيها البحر؟!..

ربما.. لا اعلم.. و ربما لا،

اعلم فقط اننى اشتاق إليك لتغسلنى..

لتولدنى.. لتحيينى.. ولتغرقنى..

اسحرنى أيها البحر،

حولنى إلى إحدى سرطعوناتك..

ارجو كرمك أيها البحر..

فأنا انسأن لكننى أيضا برمائى..

أنا الهائم،

أنا المتحير،

أنا التائه أيها البحر..

أنا الملعون من بوسيدون ذو البحار السبعة،

أنا التائه.. أنا القبطان من دون السفينة،

وأنا السفينة من دون الميناء..

رفقا بى أيها البحر،

رفقا بسرطعونك الانسانى........

كيف يكون المرء فى شوارع القاهرة المزدحمة؟!

مجرد نقطة سوداء..

تائهة فى غير وضوح،

وكيف تكون شوارع القاهرة ذاتها؟!

مجرد خطوط قصيرة سوداء.. وكيف إذن يتضحا لمرء (النقطة السوداء) فى شوارعها (الخطوط السوداء)؟!

إنه لا يتضح ابدا.. بل يستمر للأبد هكذا تائها فى غير وضوح .. وما العمل إذن؟

لا عمل..

فالنقطة السوداء على الخطوط السوداء لا تظهر مطلقا..

بل تستمر فى السير هائمة تائهة فى غير وضوح.

إلى متى؟!

إلى أن يشاهد المرء النور الخافت المنبعث من اخر النفق......

أنظر إلى المرآة يا صاحبى، تمعن..

عوم أكثر فى عينيك،

أنظر بالأكثر.. والأن لتقللى ماذا رآيت؟!

نعم يا صاحبى أنت لست أنت لقد اتخذتُ هذا الرجل منذ امدٍ بعيدٍ،

أو ربما هو من اتخذك..

تعجز ذاكرتك عن التذكر، لكنى أعود واقول لك "اطمئن" فالآن فقط أنت مدرك.. أن كل ما قد كان.. كل ما هو كائن.. وكل ما سيكون، قد تحددت نهايته حتى قبل وأن يبدأ..

استرخِ إذن يا صاحبى.

اعقد كفيك وضعهما وراء رأسك..

والآن، لتتقبل قدرك يا صاحبى، تقبله، واعلم أن كل ما قد تبقى لكهو هذا الرجل الغريب الذى يظهر فى مرآتك......

التسكع فى ما بين السرايات، حقيبتى الزرقاء، معلقة على كتفى، ملقاه على وسطى رواية من الادب النسوى الجزائرى،

الأزقة الضيقة العتيقة ولفحات هوائها البارد فى يوم حار..

المقهى الصغير..

و مذاق القهوة،

والشاى، فى خلفيتى الصوتية تراتيل و اغنيات حزينة،

صوت فيروز،

مراثى ارميا..

تطعننى عده طعنات سريعات،

لكنها تعود لتمنحنى الأمل،

إلى جامعـــة القاهـــرة،

شوارعـــى القـــديمـــة،

ومبانيهـــا المهيبـــة،

العتيقـــة،

ذكريـــات مستقبليـــة،

63

يتبعه حنين لمستقبل،

متمرد،

عنيد..

لا يقبل بأن يصبح حاضرا،

الحياة حلم طويل لم نختار الدخول إليه ..

لكن الأهم اننا فى اخر ذلك الحلم –الذى قد تحول إلى كابوس كافكاوى بامتياز- سنستفيق، يوما ما..

أرجو الا ندخل فى حلمٍ آخر حينما نصحو،

وأن أُدْخلنا غصبٍ عن ارادتنا كالعادة..

أرجو ألَّا يتحول الحلم إلى كابوس ثانية،

فالأرق،

كان الشيطان قد اتى ليحاور العقل

والروح تريد الانطلاق والجسد هنا محبوس يشتهى النوم

ولا يستطيع..

و يستمر الصراع.. أنت وحيد الآن، أنت تعيس الآن، ومفكر، وواهم،و فنان من نوع خاص ..

اما بعد.. الأرق (ابن العاهرة) ينتصر علىٌ.

64

رســــــــــالـــة

المجموعة الرابعة من الأوراق

ملاحظات شكلية/

من الواضح انها كانت ربما مشروع رسالة ولم ترسل، اويمكن هى الرسالة الوحيدة فى الظرف كله.. أيقصدنى بها، أم يقصد أحدًا اخر.. إننى فقط لا اعرف.

(1)

يـــخـــيـــل الـــىّ انــــّـا فـــى زقــــاق الـــفـــئـــــران

الـــــذى فـــقـــد الـــمـــوتـــى فـــيـــه عـــظـــامـــهـــــم

هذان البيتان يضربان مخه –أو ربما الأصح أن أقول مخى– بالمطرقة، أليس هذا هو التوصيف المناسب للحالة الغبراء التى نعيش فى ظلها....

كلمة "مخ" كلمة مكونة من حرفين، الميم و الخاء.. الميم هو الحرف الأول من اسمه "مصطفى" اما الخاء..

فهو أول حرف من أشهر كلمة يُستخدم فى تكوينها، كما قد أسهمت هى كثيرا فى رسم شخصيته –أى الحرف– فهو حرف حسن النية؛ ولكنه فى الوقت ذاته سئ السمعة..

وعلى سبيل التجربة -أو ربما التحدى إذ اردت- لو كنت قاهريا لتنطق حرف الخاء (الخه) لمرتين اولثلاثة مرات متتاليات، مع مراعاة تنويع التشكيل المستخدم فى مرات النطق المتعددة.. واخبرنى؛ ما هى أول الكلمات أو المفردات التى قد تبادرت إلى ذهنك- خذ فى إعتبارك اننى هنا أقصد الكلمات وليست الأصوات حتى لا يروح رأسك لبعيد،

فبما أننى مصريٌّ؛

فأعرف جيد أول تلك الأصوات التى قد ترد إلى ذهنك-

لذا فدعنا نجرب.. خَ خِ خُ.. خـــــراء،

فالخاء هو الحرف ذو الرائحة،

هذه هى التجربة المُجربة للإختبار،

وفقا لأكثر من عشرة محششين من رواد مقهى لؤلؤة المنيرة الغربية،

تخيل أن تسعة منهم اجابوا بـــــ(الخراء).. فيما واحدا وحيدا اجاب بـــــ(خلة الأسنان)..

فالخراء دائما ما ينتصر،

لكن وأن لم تقفز إلى ذهنك كأول مفردة؛

فستجدها دائما وأبدا ما تتأتى فى ترتيبٍ متقدمٍ،

فكما أن الشيئ بالشيئ يذكر؛

كذلك الخراء بالخاء يُذكر هو الآخر،

فهذه الكلمة المقرفة دائما ما تحتل مركزٍ متقدمٍ فى (توب تين) حرف الخاء.. إذن دعنا نعود لمرجُعنا الأول، ففى تلك الحالة قد تكونت لدينا كلمتين، عربيتين، فصحتين، منطقيتن، واضحتين.. كما تقول الست كوثر "وضوح الحلمة فى البز" اعتذر منك عن استخدام هذا المثل الكوثرى.. لكن ما قيل قد قيل؛ فأغفر لى، أستحلفك بالله،

أن كنت مؤمنا، أستحلفك بداروين، أن كنت ملحدا..

واستحلفك بأمك فى الحالتين، فوحياة الغالية أن تغفر لى هذا القول.. وسوء التصرف، وقلة الأدب، وأنا أعدك بألا أكرر مثل تلك الألفاظ النابية ثانية،

وطوال كتابتى لك،

لكن لتنسى خــطــئى أولًا،

ولنبــــدأمـــن جديـــد..

فأنا مشتت يـــا مولانا، مشتـــت تمامـــا أيهـــا الرجـــل،

حتى انهم قد اصبحوا يتحاشون الوقوف معى، أو حتى التواجد بمكان اتواجد به، ولو صدفةٍ.. فأمى تقول أن شيطانا قد تلبسنى؛ وهو وحده من يفعل بى كل هذا، بل وهو من يقرأ بجنون هكذا، ويأكل و يتكلم و يكتب –فوفقا لاعتقادها أن الشيطان هو من يكتبُ إليك الأن– ويرقص ويشتم ويغنى بصوت جهورى تلك الاغنيات الأوبرالية –الأجنبية– الشيطانية الصارخة، ويخلع ملابسه التحتانية فى كل مساء ليقيس طول عضوه الذكرى، لكن أبى يرى أنه اضطراب نفسى، وعمى يرى انها "وساخة وقلة ادب"..

و زوج خالتى يرى أنه التأثر بالغرب الأنجاس الملاعين،

فيما اختى الكبرى ترى أنه الجنون، والمتوسطة ترى أنه افتعال للجنون، والصغرى ترى أنه بوادر الجنون، فيما خالتى ترى أنه داء الثقافة والقراءة، وجارى يرى أن "هى السيما بنت الكلب من

عملت به هكذا" لكن الست كوثر ترى أنه "معمول له عمل على زب جمل".

ولو لاحظت يا مولانا؛ فأنا فى كتابتى لك أتبع الإسلوبين، كان أقول لك مثلا مصطفى يعتقد أن المهرج فى السيرك يضع أنف أسود تقليدا لأنف الكلب الجريفون. أو أن أقول لك مصطفى حلو و قشدة..

هه،

انها ذات الإسلوب.. دعنا نجرب من جديدالإسلوب الآخر، لنقل مثلا؛ أنا أعتقد أن المهرج فى السيرك يضع أنف أسود تقليدا لأنف الكلب الجريفون،

أو أنا حلو وقشدة.. أريد أن الخص عليك الأمر،

فمن ناحية أنا أبعث إليك بتلك الرسالة المطولة التى اتمنى وأن تقراها بتمعن وإهتمام، لكن دعنا نقر واقعا؛

فأنـــك حتى لو قرأتها بأهمال أو بعدم اكتراث،

أو حتى لم تقرأها من الأصل؛

فلن استطيع أن اعاتبك أو أن اغضب منك..

لأننى بالتأكيد لن اتواجد معك اثناء قراءتها،

بالتالى كيف لى أن اعلم أن كنت قد قرأتها من الأساس

أو أن كنت لم تمسسها اطلاقا..

فمابالك بأمر قراءتها بتمعن من عدمه.

دعنا نرجع لمرجعنا ثانية..

فأنا يا صديقى –واسمح لى أن اناديك بصديقى– متحيرا،

فلو كتبتها بضمير المتكلم الــــ(انـــا) قد اكذب أو اغش فى السرد حتى اتهرب منمواجهة نفسى هكذا على الوريقات البيضاء وجها لوجه من دون قفازات،

أو ربما لا أقدر حتى على الشروع فى كتابتها من الأصل، ومن ناحية اخرى،

فأن أنا استعملت ضمير الغائب الــــ(هـــــو) ففى تلك الحالة قد اكذب أو أن اغش كذلك،

لأننى موقن اننى فى تلك الحالة لن اتحكم فى الحكى والسرد،

وسأحول الأمر إلى ما يشبه الكتابة عن إحدى تلك الشخوص المشوشة المشوهة التى اكتب عنها

– وهذا قريب منى أيضا–

لكننى لا اضمن وأن يقحم الخيال نفسه فى الحكى..

وتتحـــول الرسالـــة

–أو اقـــلا بعضٍ من فقـــراتها–

إلـــى حكـــى خيالـــى أقرب

67

إلى فن القصة القصيرة منه إلى اقرار وقائع وبوح بأسرار، التى قد تكون معتمدة فى سردها على ذات الفن بصورة أو باخرى هى الآخرى.. ولهذا وهذا فقط يا صديقى.. يا مولانا، سأدع قلمى وشأنه ليكتب بالضمير الذى قد يستريح إليه، على أن تأخذ فى الإعتبار أن كاتب مثلى مغمور ومخادع من المؤكد أنه سيحاول خداعك، والتحايل عليك، وقد يغش من أجل ايجاد المبررات، واجترار التعاطف طوال كتابته لك، كما أنه قد يبرز المواقف البطولية ويخفى تلك المواقف النصف لبة،

لذلك قد يكذب الـــــ(أنـــا) وقد ينطق الـــــ(هـــو) بالحقائق المجردة..

والعكس صحيح.. لهذا وجب التنوية.

أيضا خذ كذلك فى إعتبارك يا صديقى اننى متأثر بمصطفى ذكرى لدرجة كبيرة،

حتى اننى قد اسميته فى هذه الرسالة "مصطفى" على الرغم من أن اسمه أيضا يبدأ بالميم..

ولهذا وأيضا لذلك؛لم اعد موقن هل اتقمصه حين اكتب، ام اننى اكتشفت أن هذا الإسلوب الخبل يناسبنى أكثر من غيره، ام اننا نكتب من الأساس بنفس الإسلوب لتأثرنا بنفس المدرسة السينمائية، خذ كذلك فى الإعتبار.. أنه كاتب ازلح، وأنا بشعر، وهذا وحده من شأنه انيحدث فارقا جوهريا فى المدرسة الادبية المتبعة، مدرسة الشورت الممزق.. كذلك يا مولانا خذ فى الإعتبار أن ذكرى يكتب الروايات القصيرة على طريقة اليس مونرو وفرانز كافكا، وأنا اكتبها طويلة على طريقة اى كاتب يكتبها طويلة مملة..

كذلك فذكرى سيناريست محترف،

فله فيلمان روائيان طويلان هما "عفاريت الاسفلت" و"جنة الشياطين" بعدهما قد لبد فى الذرة،

أما أنا فمخرج سينمائى لم يُخرِج الا الخراء حتى وقتنا الحالى، كذلك فنحن مشتركان فى التوهان الدائم ما بين فنين شريرين.. أحدهما يقتل بالسم، فيما الآخر يقتل بالنار.

68

(2)

أعتذر منك كثيرا لما ورد ولما سيرد،

وكما أنت عليم فالاعتراض والسب حق من حقوقك الأصلية لا يقدر وأن يأخذهما احدا منك، وإذ اكتب إليك تلك الرسالة ارجو من كل قلبى أن ترد عليها بمثلها أو بأحسن منها.. لأن الرسالة كالتحية، والتحية كالهدية، والهدية من الفارغون إلى الفارغون.

ثم أنا أكتب إليك؛ لأننى لا أعرف لمن أكتب سواك.. فأنت أيضا كاتب، لذلك كلى أمل أن تتفهم، ولا أعلم تتفهم ماذا!! لكن على الأقل ستحاول.. أليس كذلك؟! ولا أخدعنك فقد مرت على ذهنى فكرة الكتابة لله قبل أن اشرع فى الكتابة إليك، بل – وللحق –

حتى بعد أن كتبت إليك أول ما كتبت، ولما كانت الكتابة لكاتب محيرة،

بل مرعبة.. والله كاتب أيضا،

على الأقل الكتب السماوية – والبعض يعتقد أنه يكتب الأقدار كذلك، فيما البعض الآخر يؤمن بنظرية الإرادة الحرة–

فكانت المشكلة، ففى الكتابة لله تفريغ روحى وعاطفى كبيرين، هل جربتها، و راسلت لله من ذى قبل؟!

كان أمر الكتابة على قدر تعقيده هو أيسر ما فى الموضوع، فتبقى المشكلة العصية والرهيبة هى فى كيفية إيصال تلك الرسالةله؟!.. هل مثلا أبعث بها إلى " ص ب، شارع السماء، حيث كرسى الله، القائم فى البيت الالهى، القائم فى مدينة الله، خلف السحابة الكبيرة حيث الغيوم"..

أم أضعها اثناء القداس على المذبح، وفى تلك الحالة قد تقع فى يد القس أو احد الشمامسة، ولما كنت انتوى مهاجمة القساوسة والشمامسة شر هجوم؛ فوجدت أنه من الأفضل الا اتبع تلك الطريقة.. فماذا يتبقى لى الأن الا أن اخطها واضع عليها الدمغات اللازمة والقيها فى نهر النيل.

الرسالة فى مياة نهر النيل

وتلك هى الطريقة الأقرب اليّ، والأكثر تفضيلا إلى قلبى.. فحين افرغ من كتابة الرسالة (الطويلة العريضة) أذهب إلى كوبرى قصر النيل، وألقى بها هكذا بهذه البساطة فيه، وأن كان هذا من شأنه أن يفتح باب من الإحتمالات –التى لا تنتهى– والتى تدعمها التخيلات الجامحة، وذكرها هنا قد يتطلب أكثر من عشرة صفحات

–ومن دون أن نورد كل الإحتمالات الممكنة– وهذا قطعا ما لا اريد..

(1) تذوب الرسالة، تندمج جزيئاتها الصغيرة مع الماء، مكونة مزيج(h2o+جزيئات رسالتى الميكرو).. تصعد إلى السماء بفعل التبخر. (2) تأكل السمكة –البلطى– الرســالـــــة،

69

تخرج فى شبكة صياد عجوز،

منها على المطبخ، وهنا نبقى بصدد مشكلة تقنية بسيطة؛

وهى أن جزءا من الرسالة قد نزل

مع الخيط الرفيع لخراء السمكة بالنيل،

والجزء الآخر أصبح يجرى فى دماء السمكة..

اولا/ جزء الخراء، وقد نعتبره نصف الرسالة؛ ربما سيندمج مع المياة، مكونة (h2o + نصف رسالة من الخراء)

والتى ستتبخر بدورها، خذ فى علمك يا صاحبى اننا هنا لا نهتم مطلقا بما إذا كان هذا ممكنا كيميائيا من عدمه، ما يثير اهتمامنا هو التخيل الظريف، اللطيف، الخراء.. وبالنسبة للجزء الآخر من الرسالة، وسنعتبره نصفها الثانى ستلتهمه الست كوثر بتلذذ وشهوة، وحين تنغرز الشوكة منكسرة بين ضرسيها العلويين؛ ستصرخ متأوةٍ برقاعةٍ قائلةٍ "سمكة نجسة،

ونجاستها ف جوفها"..

وحينما تهضمها وتتحول إلى خراء،

ستتبرزها الست كوثر لتنزل باقى الرسالة على المجارى ومنها عائدة إلى النيل ثانيةٍ، ليلحق نصفها الثانى بنصفها الأول.. حيث اخيييييرا تكتمل رسالتى الطويلة والمريبة إلى الله، لكن تبقى

إحتمالية ما أن يطالعها من عدمه، غير معلومة كليةٍ، إلى هنا لا أريد وأن افتح باب اخر من الإحتمالات،

التى قد نستغرق فى رصدها أيام طويلة من دون فائدة، وخاصة أن تلك المسألة شائكة أكثر من الأولى. المهم يا مولانا، اننى قد خلعت عنى كل ملابسى – كما أنا حاليا– لأكتب لك، فتلك العادة الغريبة قد منيت بها مذ زمن كالقرون طويلا،ولا استطيع منها فكاك.. ولهذا وأيضا لذلك، حين أكتب أقلع متعريا..

متذكرا بيتين آخرين للنبى المصرى نجيب سرور–عليه السلام– حين قال فى أمياته الشهيرة

فـــاخــلـــعـــــوا الأرديــــة، واتـــــبــــعـــــونــــى

أنــــــا اهــــــوى الـــــعــــــُرى والـــســــَّرمــحـــــــة

المهم وحتى لا اطيل عليك..

خلعت الأردية إلى تمامها، واحتسيت الشاى بالنعنع إلى اخره، ورزقت مكتبى وطوقته ومسحته بالصابون السائل إلى أن جعلت من سطحة براقا، ومن ثم إستغفرت سبعٍ، وكبرت سبعٍ، وركعت سبعٍ، ومن ثم عاود فإستغفرت، ووضعت الوريقات البيضاء

السبع بخطوطها الرماضية العريضة، وامسكت بقلمى الفرنساوى –الذى صنع فى مصر– ثم هممت لأكتب، فما كتبت،

لا من أفكار،

هممت لأنطق؛ فلا من كلمات.. ثم تذكرت تلك الكلمات وكأنها اوحيت إلىّ من إسرافيل –عليه السلام–انها التذكرة،

إنها التفكرة، أنه بيت كألف بيت.. فعن ايمن بن عنترة أنه قال، أنه سمع ايمن بن عكرمة، أنه قال أنه سمع ايمن بن جنينة يقول، أنه كان يجلس مجلس التلميذ من الأستاذ حين سمع الشابى _عليه السلام – يقول فى قصيدة " إلى الله ":

70

انَّـــــنــــــى لـــم اجـــــده فـــى هـــاتِـــــه الدنيـــا
فـــــهـــــلْ خَـــلـــــفَ افُـــقِـــــهـــــا مـــن الـــــــهِ

ومع كل ما فات وحكيته لك،

هممت أن أنسخ هذا البيت فى ثلاثة الأف ورقة،

وثلاثة الأف رقعة،

وثلاثة الأف بوست فيسبوكى،

وثلاثة الأف على فلناتى،

وثلاثة الأف على كيلوتاتى،

وثلاثة الأف على كل ملابسى وما البسه..

ولكننى عدت وعَدلـــُت عن تلك الفكرة،

واكتفيت بترديد هذا البيت على مسامع كل القسوس،

والشيوخ،

والمشايخ،

والحاخامات، والمتصوفين، والاساقفة، والكرادلة، والشمامسة، والرهبان، والمتعبدين، والمؤمنين، والمتدروشين، والمتدينين.. حين القاهم فى الطريق، أو فى يوم الحريق، أو بعد ساعة الغريق بساعةٍ، أو قبل ساعة النهيق بساعةٍ.. ثم عَدلتُ عن هذه الفكرة هى الآخرى، وتركت كل شيئ وراء ظهرى،

وذهبت لأصلى..

فلم اجد ما اتلوه، لقد نسيت صلواتى ومحفوظاتى، ومن ثم فقدت الإرادة..

ثم عَدلتُ عن الفكرة من الأصل، وخرجت إلى شرفتى.. فوجدت فتاة غاية فى النحافة، وغاية فى الطول، تطل من الشرفة التى أمامى، كان سمارها الرائق يشى بأنها افريقية حقيقية، كانت ذات خصائل مجدولة، خصلاتها شقراء، وعينيها زرقاوين، ومناكير اظافرها ذات حمرةٍ بيضاء، ومن ثم هرولت إلى الحمام واستمنيت، مشغلا محركات الخيال التى لا تهدأ قط، أثنائها تذكرت اننى حين مرقت إلى الشرفة كنتُ عاريا تمام التعرى.. لكنها لم تهرب من عريى ولم تخجل من ذكرى المعلق بين فخذيا.. دق قلبى فرحا، وتمنيت لو أن تجمعنى والسمراء يوما ما، علاقة ما.. فأسرعت بأرتداء الجلباب الأبيض الواسعة على اللحم،

وخرجت إلى الشرفة ثانية، فوجدت السكون مطبق، والجميع كما كانوا نياما.. الشارع ميت، والصمت مارد، والليلة ليلاء، حتى السمراء الشقراء كانت قد تبخرت هى الآخرى، شيش شرفتها كان منغلق تماما متكوما عليه اكوام واكوام من الأتربة وأحبال

العناكب، فخمنت وأن كل ما قد رأيته كان مجرد منتج من نتاج ماكينة الخيال التى لا تهدأ قط..

ومن ثم جلست إلى مكتبى، وأكملت الشراب الذى كنت قد توقفت عنه للكتابة –كتابة الرسالة التى نصفها من الخراء، أو ربما كلها منه– كان الويسكى المغشوش ساخن،

والبيرة مازالت باردة..

كنت اميل إلى الويسكى،

لكن ثلج الويسكى الموضوع بشفشق بجانبه،

قد ساح وناح وتحول إلى مياة

–التى قد تكون بدورها رسالة شخص ما فى مكان ما إلى الله –

ففضلت أن يتركز شرابى على البيرة –بالرغم من انها بتنفخ– مفضلا سقوعيتها حين تغزو جوفى،

على سخونة الويسكى وحموه..

ومن ثم قلت لأكتب لكاتبٍ اخر، وما دمت أن نويت الكتابة لكاتب اخر.. فمن غيرك يستحق الكتابة له يا مولانا العزيز.

(3)

كان القس البروتستانتى

-من خلال التليفزيون- يطرح احد الأسئلة الأكثر تحيرا،

سؤال من تلك النوعية من الأسئلة التى دائما ما تبدأ

إجابتها بـــــــ(حاشا لله).. هل الله عنده خيار و فقوس؟!

هل الله عنده خيار وفقوس؟ سؤال جيد، استفهامى، يحتاج إلى إحدى اجابتين لا ثالث لهما.. نعم عنده خيار وفقوس، أو لا ليس عنده خيار وفقوس.

احكى لك، ولتحكم بنفسك، خذ فى اعتبارك أن ما سيرد تحت هذا السطر على سبيل المثال لا الحصر:

خلق ادم اولا.. ثم حواء لاحقه عليه، اما من مهرجة من حملة درجة الدكتوراه المنتسبات للجمعيات النسوية

- اللائى صدعن رؤوسنا بحقوق المرأة والمساواة -

لتقف فى وجه الاله قائلة له بصوتها الانثوى الرخيم

"كم أنت عنصرى عزيزى الله!!" أوتعلم ربما سنتكلم لاحقا عن تلك الأفاعى، اللائى سنتركهن ههنا فى تلك الفقرة من الرسالة.. ولنكمل، أدم عرف حواء.. انجبا قايين وهابيل، قايين فلاح يكد ويكافح، من أجل (بعرق جبينك تأكل خبزك)،

هابيل راعى اغنام، من أجل تقديمها كمحرقات، وهدايا مشبوهة.. حيث كان الانسأن ما يزال بعد نباتيا..

الدماء، الشواء، اللحم، رائحة الأضحية الحيوانية تتناسب أكثر مع هوى يهوه، ماذا فعل، قبل الواحد، ورفض الآخر.. مدخلا الحقد والغل بين الأخوين.. جاء ليحذر قايين، ولكن ماذا حدث.. لقد حدث ما لا بد من حدوثه، قتل أول اخٍ اخاه.. ليعطى لنا انطباع اولى عن الأرض.. بل ليرسم ويحدد لنا خط الأنسانية كلها، ومصير البشرية جمعاء، لكننا عُودنا على أن نلوم حواء فهى مَن أضاعت أدم، وهى مَن اغرتها الحية – ونغفل عن مَن وضع لهم الحية فى الجنة– عُودنا على أن نلوم قايين –كأمه تماما– و نشير عليه صارخين

"قاتل.. قاتل".. و نغفل عن القاتل الحقيقى.

حينما تدعى بنوة ابنين، وتحب الواحد وتحتقر الآخر،فكيف له إذن هذا الآخر أن يثق بك.

كان مصطفى فى صغره طفلا سمينا،

ينطبق عليه توصيف الناظر صلاح الدين عاشور

"ترهــل عام فـــى أنحـــاء الجســـم،

فلات فــوت لحـــم،

والتصاق فى الفخذين"

تلك المواصفات القياسية للشخصية سيئة الحظ، قرأت مقالا عن كيف أن الطفل مصاب السمنة يعانى نفسيا بالقدر ذاته الذى يعانيه الطفل مصاب الاورام، أليس أمرًا رهيبًا، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

نرجع ثانية إلى مصطفى سئ الحظ والذكر والفكر.. لنتخطى سنوات طويلات، ولنذهب رأسا إلى قاعة هندسة الصوت، التى تقع وأنت داخل من الباب على يدك اليمنى، حيث ينعقد امتحانات القبول لقسم الإخراج السينمائى بالمعهد العالى للسينما

الواقع فى جمال الدين الافغانى بالهرم.. إذ نظرت إلى مصطفى سيذكرك بشابا تعرفه جيدا، شاب مر عليك من ذى قبل، قد يكون هذا الشاب (ابو شنطة على كتفه) الذى تصادفه عائدا من الجيم كل يوم قرابة الفجر، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، ومع هذا ليس مدكوكا.. يضع نظارة طبية عادية تتزحلق من على عظمة انفه حينما يتعرق فى نهارات الصيف الجهنمية –فى هذا الشهر من العام تكون درجة الحرارة ميالة للحر، لكن ميلا معتدلا –قمحى البشرة، ناعم الشعر إسوده، تاركا لحيةٍ بنيةٍ مشذبةٍ، شعره عالى من الوسط ملتصق من الجانبين –كقصة شعر تامر حسنى– باقى الملامح عادية،

عينين ضيقتين، شفتين متوسطين.. وربما بما اننا قد تطرقنا إلى امر شفتيه هاتين؛فلتعرف يا مولانا أنه حين يتعصب، يتحول إلى السخرية؛ وحين يتحول إلى ذلك الساخر اللئيم؛ فأنه يمتلك قدرة عجيبة على أن تتحرك شفته السفلية لتذهب إلى جانب فمه، فيما تظل العلوية محتفظةٍبمكانها الطبيعى، تلك العادة الساخرة السوقية (البيئة) لا يعلم متى اكتسبها تحديدا.. كما أنه لا يلأحظ نفسه اثنائها، حيث أنه لا يفتعل تلك الحركة بأرادة خالصة، هذا ما قد اكدته له اخته الصغرى– التى تعتقد فى أنه على بوادر الجنون – كما اكده له التركى قبل أن يترك مصطفى العمل لديه

بعدة دقائق ويخرج من مكتبه فى السفارة التركية بغير عودة، وهذا كذلك ما اكده له الحاج والده،

وعلى وجهه مرتسمة علامات الاشمئزاز من حركة الولد البيئة..

مع هذا دائما ما قد احببن البنات شفتيه.

فى فناء المعهد كانت أوراق الأشجار الصفراء تغطى الأرضية ذات البلاط الحجرى القديم، المخلع.. وكان كلب بنى منفوخ ملقى داخل اسوار المعهد ميتا، مهملا منذ عدة أيام مضت، نظر إلى الكلب.. تفكر، وتذكر، ترى بماذا يُذكر هذا الكلب المنفوخ مصطفى.. أنه يُذكره بالكثير، بل وأكثر من الكثير.. أنه يُذكره بمصطفى.

النباح، المتشرد، العاشق، الهائم، الغريب، المغنى، الوفى،

المتواصل، والمنبوذ، كل تلك الصفات والأوصاف المشتركة بين الاثنين.. بين مصطفى والكلب الميت،

إقرأ هذا التعبير بصوت

–أن كنت مثلى تقرأ بتحريك شفتيــك على السطور–

73

منفوخ، تخيله الأن معى.. هذا تعيس الحظ، الذى مات وانتن داخل اسوار المعهد العالى السينما، كان جلده البنى مشدودا لامعا، مخالبة صفراء واضحة، نظرته غائمة، جلده البنى مشدودا لأمعا وكأنه تمثال.. دعنى اطرح عليك سؤال. لو كُنت فى الحياة الثانية – على اعتبار أنه توجد حياة ثانية اساسا– كلبٍ بنيٍ بلديٍ ذات جلدٍ لأمعٍ.. وقد حانت ساعتك،وكنت هائم وقتها فى شارع خاتم المرسلين بالجيزة، فإلى أين ستكون وجهتك.. خذ فى إعتبارك أن هناك العديد من الأماكن المتاحة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- سلطأن إنترنت كافية.
- المعهد العالى للسينما.
- مقهى صدفة (الغرزة الملاصقة لقاعة سيد درويش).
- مطعم العندليب.
- كنيسة السيدة العذراء مريم بالعمرنية (المعروفة بكنيسة خاتم المرسلين).
- اكاديمية الفنون.

- نادى الشرقية للدخان.
- مطعم ابن حميدو للمأكولات البحرية.
- جامع خاتم المرسلين.
- واماكن اخرى متعددة.

أنه لأمر يوقع فى الحيرة يا مولانا.. أمر حقا غريب؛ أن تتخيل انك كلبا بنيا ذات جلدٍ لماعٍ يحتضر.. وعليه أن يتخير ملجأ نهائيا ليموت خلف جدانه، فى محاولة عبثية للبحث عن السلام المفقود، والإستسلام النهائى للعبة المكتوب، فى شارع خاتم المرسلين.. هذا الشارع الطويل، الملئ عن اخره بمختلف أنواع المواصلات من أول التوك توك والكارو

إلى BMW والمرسيدس بنز..

أنه لأمر محير،

لكن فقط تخيل معى.. أن محفظتك مليئة بالنقود، وكرشك ملئ بالطعام، وأن عضوك الذكرى فارغ من الحيوانات المنوية، وأن ذهنك فارغ من المشكلات الحياتية، وأن قلمك ملئ بالحبر الأزرق، وأن قلبك ملئ بالحقد الاحمر، وأن ورقتك البيضاء سوداء، وانك مهما كتبت لن تكون كتابتك واضحة.. وأخيرًا خط

بيديك فرضية أن يكون الكلب البنى سينمائيا فى حياة سابقة يختار أن يحتضر للمرة الثانية.

74

(4)

خابير مارياس كان يصف حالى حين قال فى قلبه الناصع البياض "ينتابنى أحيانا شعور بأن لا شيئ مما يحدث؛ يحدث بالفعل" وعلى الكتابة لك أيضا ينطبق هذا التوصيف، فحين بدأت فى الحكى لك عن مصطفى وهو فى قاعة هندسة الصوت يحضر تلك الورشة المريبة؛ خرجت بك حيث الكلب الميت فى الفناء، ثم تناسيت وأغفلت الحكى عن الشعور الحقيقى الذى لامس مصطفى فى تلك اللحظة، وسواء نسيت أو تناسيت؛لا يهم فسأخبرك بما قد دار فى نفسه فى تلك الدقيقة التى لا تبرح من ذاكرته.. لقد تذكر داود، تلك الشخصية التوراتية المثيرة للأعجاب والغيرة.

لقد استخدم داود التعبير نفسه، فقبل أن تتحقق النبؤة المذكورة ويملك داود على اسرائيل، كان شاول الملك حينئذ يطارده بكل ما يملك من امكانيات واصرار ورغبة فى السلطة،وفى اثناء تلك المطاردات، وقع شاول فى يد داود، لكن داود قد عفا عنه، قائلا

له كيف يمكن وأن يقتله وهو مسيح الرب – فى تلك اللحظة من النص التوراتى لم يعد واضحا كفاية أيهما مسيح الرب على وجه الدقة– واخبره بالدلائل أنه كان يستطيع قتله لكنه لم يرد به شرا.. وقال تعبيره الشهير "ثم وراء من يسعى ملك اسرائيل؟ ومن هو الذى تطارده؟ اتسعى وراء كلبٍ ميتٍ؟ وراء برغوثٍ وحيدٍ؟" وما قاله داود الشاعر والنبى عن نفسه؛ أنا من رآيته ذلك اليوم، كلب، ميت، بنى لأمع، منفوخ، هل رآه داود حين قال تعبيره هو الآخر، فحُول هذا التعبير إلى حياة واقعية فى مكان آخر وفى زمأن آخر.. ومصطفى من وُجد هناك فى الوقت غير المناسب، ام هل كانت تلك هى السخرية الإعتيادية من الحياة، فألأن يتحول التعبير الأدبى إلى حياة فعليه، لأنه أصلا –اى التعبير الادبى – كان مقتطفا من إحدى صور الحياة الواقعية، كل ما ادركته ساعتها اننى أمام توصيف ادبى مفضل حيث عالمى اليومى الغير مفضل، وفى اخر مكان اتوقع وأن اجد فيه تعبير داودالنبى، بالمعهد العالى للسينما، فى شارع جمال الدين الافغانى.

إلى أى مدى أجد مصطفى متطابقا مع هذا التوصيف التوراتى.. ولو تحرينا الدقة أكثر لقلنا هذا التعبير الداودى.. ثم بالمناسبة لماذا نقول (الكلب البلدى) ولا تقول (الكلب المصرى)وهل تعبير

الكلب المصرى عيب ام حرام؟! أو ربما أن من شأنه أن يجرح مشاعر بعض الكلاب الواصلة الغضوبة، فأنا عن نفسى اراه تعبير أجود من الجيد.. فمصر دائما مليئة عن اخرها بالكلاب.. ونصيبى أن اكون كلبً نباح.

75

وهنا تكمن المشكلة.. مشكلة النباح المستمر، المتواصل، المتصاعد، العالٍ، الحاد، النباح الثائر،

وهذا يضايق الكلاب الآخرون.. المستقرون فوق الكراسى، أو فوق الارائك، أو حتى فوق الكراسى الموضوعة على الارائك، أو أولئك المتكيفين مع الخرس، المستمتعين به، أو المستمرين فى تركيب وسائل منع الثورة، أو المستمرين سائرين بجانب الحائط مهاجمين الثائرين..

كل هؤلاء فى بروجرامٍ واحد يكرهون النباح و النابحين..

لكن ما العمل؟!

وكيف للكلب البنى اللامع الجلد، المصفر الانياب أن يكف عن نباحه.. وأن يصمت؟!

أن يحتجز الصرخة فى الحلق،

أن يضع يديه على فمه فلا تخرج آهات الإحتضار الأخيرة..

لكن لنرجع إلى القاعدة الذهبية الأولى من كتيب

علاقات الكلاب/ فالكلاب الصامتة المستقرة؛ تكره نباح الكلاب النابحة المشردة.

والأن سيداتى، انساتى، سادتى.. لننتقل معا حيث البث المباشر، مع وصلة من النباح الحوارى يقدمها لنا الكلب الميت، مع بعض من هوهواته الخافتة، الماكرة، الحادة، المترددة احيانا، والمتمردة احيانا اخر.. مع احاطة سيادتكم علما أيضا؛بانها لا تخرج عن كونها هوهوات مجردة لكلبٍ ميتٍ.. فإلى النباح.

قاعة هندسة الصوت بالمعهد العالى للسينما

اليوم الأول من الورشة

وقف مصطفى كاسرا رجله

–كأنه يقف على ناصية من نواصى شبرا أو امبابه – مشوحا – معبرا– بيده عن كل هواء محرف يخرج من فيه..

كان فى الصف الرابع من كراسى القاعة التى يمتحن بها.

د. عبد الجليل: أنا أعرفك.. شكلك مش غريب علىَّ.

مصطفى: (متبسما ساخرا) ثانى ورشة.

دكتورة (شكلها ليس بالغريب على مصطفى): اتفضل.

مصطفى: أنا اسمى مصطفى، حاصل على ليسانس حقوق من جامعة القاهرة،و فى حاجة على قلبى عايز اقولها قبل ما ابتدى.

76

د. عبد الجليل (يومئ براسه أن نعم) قائلا مبتسما:

– اتفضل.. احنا هنا فى حرية، قول كل اللى أنت عاوزه براحتك تماما.

مصطفى فى حماسة:

- لما عبد الناصر بنى المعهد اللى احنا فيه ده، بناه علشان اولاد البسطا يتعلموا.. فى ظل الاشتراكية، عرف أن الفن عامة، والسينما خاصة مش مجرد تسلية علشان كده اخد من قوت الغلابة، من الضرايب اللى بيحصلها من

المواطنين، من عرق العمال والفلاحين وبنى المعهد فى الستينيات، انما اللى حصل فى المعهد هو العكس تماما.. اولاد الفقرا من الموهوبين بقى لازم يدخلوا تعليم النظام الموازى ويدفعوا فى السنة 27,000 جنية..
أما مايتعلموش أطلاقا، أما النظام العادى ابو 500 جنية فى السنة؛ فده بقى حصرى لاولاد الفنانين.. اللى هما اصلا مش محتاجين دعم حكومى.

هنا ضج الأساتذة الممتحنين بالضحك، ورد د. عبد الجليل رافعا حاجبيه قائلا:

- أنت ايش عرفك اننا هنا بنحب عبد الناصر اساسا؟!

وهكذا كالببغاء رددت خلفه الدكتورة (التى شكلها ليس بالغريب على مصطفى):

- ايوه صحيح ايش عرفك أنت، مش يمكن بنكرهه؟!

مصطفى:

- مش مهم تكونوا بتكرهوه أو بتحبوه، هى دى الحقيقة أن عبد الناصر هو اللى بنى المعهد اللى احنا تحت حوائطه

دلوقتى.. من فلوس الضرايب اللى بيدفعها المواطن العادى.

ثم عاود د. عبد الجليل الحديث، ولم تفارقه الابتسامة:

- رماها بغير رامٍ.. أنت تعرف أن كان فى زمانفى واجهة المعهد صورة لعبد الناصر وهو ممسك بيديه كاميرا (ذكر نوع الكاميرا ولكننى لم احفظ نوعها) قال يعنى بيصور.. وظلت الصورة المكبرة دى كتير فى واجهة المعهد، لحد ما فى يوم من الايام اختفت فجأة، ولحد النهاردة ماظهرتش تانى ابدا، وماحدش يعرف الصورة دى راحت فين من ساعتها.

77

ما علينا من كل هذا الكلام، فأنا وبصدق لا اعرف لما احكى لك عن هذا، لكننى ربما احكيه على سبيل الفضفضة.

ما علينا.

اخرجك من هذا النهيق.. أسف قصدت النباح!! و اؤكد لك يا مولانا اننى لم اقبل حينها بالمعهد، كما لم اقبل السنة الماضية عليها، أو التالية عليها.. وبات من الغير المستطاع أن اقبل

اليوم، لأننى وبأختصار مواطن نباح من الدرجة الأولى، وليس من امكانياته دفع مبلغ 27,000 جنية فى السنة، لمدة اربع سنوات، كما احيط سيادتكم علما أن تعبير(الكلب الميت) قد ورد ايضا فى هاملت حين قاله لبولونيوس "فاذا كانت الشمس تولدّ الديدأن فى كلب ميت؛ لأنه جسد يصلح للقُبَل، هل لك ابنةٍ؟".. بالمناسبة يا مولانا هل لك ابنة، أو ابن؟! فأن كان لك انصحك أن تنصحها/ تنصحه؛ أن تنفذ/ ينفذ، بجلدها/ بجلده من القاهرة الغارقة فى القذرة عن اخرها.. انى انصحهم الآن، واحذرهم، فكما حذروننى الأصدقاء من النباح أمام لجنة الامتحأن ولم استمع لهم، ولم اقاوم سحر النباح، هكذا احذر الجيل القادم، وكلى يقين، وأمل.. ألا يقاوموا متعة النباح المغرية.. فالنباح هو فخر الكلب، كما أن الكلام هو فخر المرء،

والصراخ.. الصراخ يا صاحبى هو وحده فخر المحتضر.

(5)

تلك الرسالة التى اكتبها إليك؛ قد وصلت إلى يومها الخامس، والأخير.. لقد رغبت كى لا اطيل عليك الإختصار.. كما رغبت فى الحيادية، وأعتقد أن قلمى قد خانها فى بعض المقاطع

والفقرات، لكن لا عليك.. فهذا أقل من المتوقع من شخصية معقدة– وصايعة– كمصطفى.. فلا تغضب علىّ يا مولانا، ففى كل يوم من الأيام الخمس؛ جلست وخلعت ما ارتديه حتى التعرى، وشرعت فى الكتابة لك وكتبت، كنت أشعر بميل حقيقى للتخلى عن كل شيئ، دون ادنى طموح فى العودة ثانية،لكن والأن أشعر ببعض الحرية، وقد أوشكت على الأنتهاء من رسالتى الطويلة لك، اعتذر منك ثانية عن الأمثال الكوثرية الواردة فى متن الرسالة.. كذلك اعتذر عن تشوش قلمى، وتشتت ذهنى.. لكن بقلبى رجاء وأن تتفهم يا سيدى المبدع.

حين أبدا فى الحكى عن امرا ما ثم اهجره؛ لأذهب إلى ارضٍ حكائية مغايرة؛ فأعلم أن هذا ناتج عن تمرد قلم يود لو أن يحكى ويبوح.. وعقل يريد لو أن يصمت، وينكفئ على ذاته، وقلب مشتت بين الاثنين.. فأعلم كذلك يا مولانا اننى كثيرا ما جلست إلى مكتبى، مشجعا إياى. مذكرا نفسى بمقولة القس الكاثوليكى الشهيرة "لتتكلم الآن؛ أو فلتصمت إلى الآبد" وبما اننى قد تأكدت فى غير مناسبة؛ أن لا قدرة لى على الصمت الآبدى؛ فأننى اخترت أن انبح الآن، قائلا لتتكلم يا مصطفى طالما بداخلك كلمات، لأصرخ بالعبارات والجمل الاعتراضية..

معترضا، معارضا كل من يقابلنى، كل شخص، وكل شيئ، وكل فكر.. فالاعتراض فرض عين على المتمردين.. ولما تمردت مرة، فأعتنقت التمرد إلى الآبد، واتخذته دينى وعنوانى، وطالما سطرت أخيرًا، وبحت.. فسأبقى نابحا إلى الأبد.. وعن الأسلوب وجمالياته؛ فليذهب إلى الخراء،

وعن التمحيص والتفحيص البلاغى، بل واللغوى؛ فليذهبا سويا إلى حيث يقبع الاسلوب.. لاننى اعتقد حقا فى تجلى الروح على الأوراق.. وحين تظهر الروح،

وتتقرح الجروح، وجبت الكتابة.. ووجبت محاربة الكآبة.

"كُتب علينا الحج إلى شبرا مرتين فى العــام كــمـــا كــُتــب عــلــيــنــا مـــــــوت الغـــــــــــــرام

يا ســاكـــنـــى شــبـــرا صـــلـــوا مـــن اجـــلـــى

فــشــبـــرا فـــى قـــلـــبـــى؛ ولكـــن مـــات الكـــلام"

كانت امه راقدة على السرير السفرى فى الغرفة الجوانية، فى البيت الكبير.. بشبرا، اقصد بيت جدته فى الترعة البولاقية.. وكانت تصلى متألمة متضرعة إلى العذراء لينتعها الله بالسلامة.. فهذا البكرى، والبكرية دائما صعبة.. فى هذا اليوم من اكتوبر 90 لم تظهر نجمة فى السماء، فوق البيت الشبراوى، ولم تظهر الملائكة للرعاة، أو حتى لسائقى الميكروباصات،وفى السبوع قدموا للمولود ذهبا و اغفلوا اللبأن والمر، واكتفوا بالمغات.. أول من تلقاه كانت يد جدته فتحية – زوجة عم امه – التى قد امسكت به ومازالت الزفاليط تغطى جسده الأحمر الطرى، صارخة فى فرحة "ولد، ولد.. الحمد لله. ولد" واعطته قبلة على وساخته تلك، تلك القبلة الأولى من الجدة، قبلة وسط البكاء والدماء والوقوقات.. لقد كان محظوظا، وأن كان اكتوبر قد جعله عقربا..

والعقرب يخشى البشر، والبشر يخشون العقارب.

احترس الحكاية ترجع إلى الخلف!!..

لا اعلم لماذا احكى لك عن ولادتى، وأهمل المهم، لكن ما هو المهم، فقد يكون بأختصار الا اهمية لأى شيئ على الاطلاق، فمثلا هل حياتى على قدر من الاهمية؟

لا.. لكن بالنسبة لى نعم.. فكل مرء بالنسبة له حياته على قدر من الاهمية، الا انها تختلف من رؤية شخص إلى اخر.. لكننى هنا لا أجد مبررا لابتعادى هكذا.. وخاصة أن ليس لى رغبة فى السرد بتفاصيل الحكايات، لكن هذا ما قد خطه قلمى، فربما اراد أن يتحدث عن أول زغرودة من أجل مصطفى، تلك الزغرودة العربية، الافريقية، تلك الصرخة المرحة، فما من صرخة مرح وفرح الا وقد حلت كليةٍ فى زغرودة المرأة المصرية.. زغرودة إعلأن الحياة، زغرودة الوجود، والاعتراف بى ككائن حى.. خالتى زغردت لى؛ إذا أنا موجود.. ولا شيئ بعد ذلك يهم، ولكن ثمة سؤال صغير.. لما الوجود؟! هذا لن يغير فى الأمر شيئ، كان اسمر مليح، بشعيراتٍ على كتفيه، اخذ خاله عَجلَتِهِ الفريرة، و طار على جده لأبيه فى مدرسة ماريا اوزيليا ليبشره بقدوم أول احفاده من الذكور الحاملين لأسمه؛ فليفرح الجد، فليرقص الجد، فليتقافز الجد،

وليرقد بسلام كذلك، لقد جاءه الآن من سيحمل اسمه ومعاناته بدلا عنه، امتدادا له، لا يقلق الجد فها هو فرع جديد ليعذب من جديد.. فقد جاءه ابنه بأبن ابنه الذى سيحمل اسم هذه العائلة الكريمة، فى تلك الأرض اللئيمة.

80

حقا يا مولانا فأنا لا أريد التفلسف، ولكننى فقط اتساءل وليهدينى الله ويغفر لى، يا ليتلو يخبرنى أحدهم لماذا نحن؟! لماذا أنا؟ ولماذا هذا الوجود؟! والا لكنت تائها، لكنت كالبرغوث الوحيد، أو كنملة فى ارضٍ غريبة، أو فلنرجع للتعبير الأدق؛ ككلبٍ ميتٍ، أو ربما كميت حى توقف –أو اجبر على التوقف– عن النباح.. اؤكد لك يا مولانا أن أنت قد قابلتنى يوما ما مصادفة؛ وتعرفت علىّ ووجدتنى ساهما صامتا هكــذا، كالكلب الميت المنتفخ الاوداج البنى اللامع المشدود الجلد.. فأريدك و أن تتيقن اننى فى يومٍ ما مضى، كنت.. كلبا نباحا بإمتياز.

81

اوراق مــتــنــــــاثـــــــــــرة

المجموعة الخامسة من الأوراق

ملاحظات شكلية/

فى اوراق متناثرة، بعضها عبارة عن مجرد قصاصات،

وبعضها اوراق كاملة، حينما اخرجتها من الظرف كانت تلك الأوراق مطوية عدة طيات، مضمومة إلى بعضها البعض.

فى كل مرةٍ أشاروا تجاهى، وقالوا عنى منحلا؛ ازددت فى إظهار إنحلالى لهم، وفى كل مرةٍ لقبونى بالحيوانى، ودعونى بالشهوانى؛ كنت أعمل جاهدا على أن ابرهن لهم أن اراءهم تلك ما هى الا قليل من كثير، كل مرةٍ فتحت لهم على بحرٍ من العرى والجنس والشهوة والإيروتيكية، المغلفة بغلاف شفاف من السريالية أحيانا، والصريحة الفجة احيانا اخر.. قلت لنفسى مصبرا إياها "اللى ما يرضاش بالخوخ؛ يرضى بشرابه" حاولت، ومازلت من وقتها تحاول مع الخوخ -أو ربما الرمان- عصره، أو تجميده قبل أن يدب الفساد -أو يمكن الملل- فيه إبهامه ويهتكه، كل مرةٍ جالت فى ذهنك فكرة لمشروع سيناريو جديد؛ حاولت عصرها اوعملها مربى، أو حتى القاءها فى الفريزر على حالتها تلك..

كنت على علم بأنهـــم يمارسون كل أنواع العهر

–المستتر منه والمفضوح– كنت موقنا بذلك، ومع هذا حاولت أن تتطلع إلى نصف الكوب الممتلئ، بدلا عن الفارغ، ليتك ما إقتربت أو أمعنت النظر، إذ نظرت عن قرب؛ فلم تجد فيها الا الخراء سائلا.. لكنه لم يكن نصفه فقط كما يدعون، بل لقد كان كله ملئ بخرائهم عن آخره، فهل لك أن تتجرع منه صامتا يا رفيقى؟! لتتكلم إذن يا صاحبى؛ فالصمت لا يليق بالمنتحرين.

يا صاحبى إنها لعنة القاهرة، لم تكن الأول ولن تكون الأخير، إنها لعنة القراءة!! فبعد أن انتهيت من دراستك الجامعية

–المجبر عليها والمجبرة عليك– تأكدت أخيرًا مليون بالمائة، إنك –وخلال كل تلك السنوات الطويلات– لم تتعلم حقا شيئا عدا القراءة والكتابة.. اى لعنة تلك؟! أين أنت الأن من الجهل المقدس المريح الذى عاشت فى ظل حمايته أجيالا وأجيالا من العائلة؟! أين الأمأن يا صاحبى؟! أفبعد الشك إيمان؟! هكذا أيضا فبعد الضياع لا أمان، هنا كانت مأساة عبدالحميد شتا مع الخارجية، إنها ذات اللعنة يا صديقى.. طيب عبدالحميد؛ أنه لم يدرك حقيقة الأمر منذ بدايته، فأن عُينَ عبدالحميد فى وزارتهم؛ فبالله عليك أين لهم أن يعينوا حماده وتوتى أبناؤهم؟! ألم أقل لك إنك طيبا كعبد الحميد تماما، حيث كان المتوقع منه أن تبقى

مهمته فى الحياة مطابقة لاسمه تماما، أن يعبد.. وأن يحمد.. يعبد مَن ويحمد مَن، هل الله؟! وأى إله تقصد؟! فالوطن ملئ عن آخره بالآلهة، والكلاب كذلك، وبالمناسبة فكلهم يطلبون منك العبادة؟! فلأى منهم تقدم حياتك ذليلا صاغرا؟! فخذها من قصيرها إذن؛ وإلقى بنفسك فى النهر كأخيك عبدالحميد، علهم يستمعون إلى صوت التششششش، ويمتعهم.. دع جسدك المتداعى للأسماك لتأكله.. ولا تقلق فإنهم سيأكونك مِن خلالها، لكنك فى أمعاءهم ستحل عليهم دما ومرا و نارا، إنظرى كم عبدالحميد فيكِ يا قاهرة؟! مليون عبدالحميد شتا، بل عشرة، بل تسعون مليون، لما أنت غاضـــبــــا إلى هـــذا الحد يا عبــدالحميــد وأن كان إسمـــك ليـــس بالعبـــدالحميـــد؟!

83

ألأنك لم تكن راغبا مثلهم فى شيئ كبير، مجرد معهد سينما، وهل هذا وحده قليل أيها الخبل؟! فأن أصبحت أنت مُخرجا؛ فبماذا يعمل أولادهم؟! هل يعمل أولادهم أمناء مخازن، ومندوبو مبيعات يوزعون أكياس المسحوق على المنازل.

يلعن مجانية التعليم، على اليوم الذى تعلمت فيه يا أخى، ليت جدك لم ينزح إلى المدينة، وظل فى دواركم القديم على رأس

الحقل الصغير، ليتك بقيت فلاحا؛ ليس له فى القراءة أو الكتابة.. ليس له فى الحلم، ليتك لم ترى فيلما واحدا فى حياتك كلها، لا استطيع أن أراها هكذا، فاتحة رجليها، حالقة زغب عانتها، لا قدرة لى على أن اطالعها فى تلك الهيئة، وعلى هذه الوضعية الوضيعة، ألفقأ عينيَّ، آهٍ أيتها العاهرة اللعوب.. آه يا أعهر من جرترود.. ساقطة، عاهرة، مومس، قذرة، وسخة، اكلة ابناؤها، والف آهٍ وآه يا هاملت، ليتك مت فى رحمها النتن، ليتك لم تجئ منها إليها، أن كانت لى مقدرة أن أطبق على رقبتك المتعرق من منى المضاجعين لفعلتها، لفعلتها مائة مرة ومرة، لفعلتها بصخب وعنف، لقتلتك أيتها العاهرة، ولجلست بجانب جسدك أرتعش وأبكى أما لم تكونيها يوما.. وحبيبة خؤون، تخون بأبخس الأثمان، بل تخون مجانا بأكثر الأحيان.. ألن تتوبى يا جرترود؟!

ألن تتوبى أخيرًا يا امنا القذرة الشهوانية؟!

كل قذارتى التى يعيروننى بها؛ ما هى الا ومضة منك،

لمحة عنك.. أعرفك جيدا يا قاهرتى، يا مدينتى.. ويا قاتلتى.

أين هم شبانك يا قاهرة؟!

أين هم؟! وأين هن جميلاتك يا قاهرة؟! أين اخفيتين عذراواتك الساحرة؟!.. لا وجود فيكِ، لا مِن وجود بعد لهن أو لهم..

فلقد بعتيهم جميعهم.. بل أكلتيهم كما تأكل القطة أولادها.. نعم يا قاهرة، فمن أسماكِ هكذا أيتها اللعينة لم يفترى عليكِ.. لقد جاملكِ كثيرا بهذا الإسم، ولو كان ربما أنه يليق عليكِ بالاكثر لو كان قد دعاكِ الغادرة، الماكرة، الفاجرة، الهادرة، العاهرة.. آه يا أمنا التى إعتادت على أن تفتح رجليها مرحبة لكل عنين خائن، أتذكرين عبدالحميد شتا وانتِ تضحكين بميوعة هكذا للاجانب الاجلاف، والمفسدين المحليين؟! أتذكرين؟!

منطقة ى

كانت اختى الصغيرة جالسة بجوارى نشاهد التلفاز، مسلسل لعادل إمام من بطولة إبنه ومن إخراج إبنه الثانى.. حالة من الملل، ففاصل إعلانى.. الضرائب مصلحتك اولا.. كان الإعلأن عن التوعية بقانون الضرائب العقارية الجديد، كان يحاول التوضيح للمواطنين أن تحديد الضريبة المفروضة على العقار يتناسب طرديا مع قيمة المنطقة الواقع بها العقار ذاته ومكانتها.. منطقة أ قصور بحدائق وحمامات

سباحة خاصة بها، منطقة ب فيلات وكمبوندات فى مدينة مغلقة عليها، منطقة ج، منطقة د، وإلى آخره هكذا.... اصابنا الملل فأغلقنا التلفاز وخرجنا إلى حيث الشرفة"منطقة ياء وزة ،، هكذا قالت لى الصغيرة.. مع الوقت ادركت حقا أن هذا التقسيم ليس المنوط به هو تحديد وتقسيم العقارات، وفقط، بل المعنى هم قاطنوا تلك العقارات، فالمواطن أ هو المواطن القاطن لقصرٍ بحديقةٍ وحمام سباحة خاص به، ومواطن ب هو ذاك المرء ساكن إحدى الفيلات أو الكمبوندات فى إحدى المدن الخاصة، وهكذا، وبالمناسبة فهذا القانون لم يطبق، وأصبح فى حكم المنعدم لأن الاخوة أصحاب القصور والفيلات إشتكوا من الظلم الطبقى الواقع على أعتاقهم!!

المهم أن هذا التقسيم هو وحده من سيحدد نظرة الدولة إليك، وسيحدد كذلك إلى اى عالم تنتمى، وإلى أى مصر من الأمصار تعد مواطنا.. بالتأكيد هناك عدة تقسيمات آخر، ولكن يبقى التقسيم من حيث مقدار الثروة هو الأهم فى بلادنا تلك.

وبغير تقسيم (الغنى يكسب/ الفقير يخسر) هناك عدة تقسيمات سريعة من أمثال الرجل يكسب، المرأة تخسر..

المسلم يكسب، المسيحى يخسر..

المسيحى يكسب الملحد، والملحد يكسب البهائى، وكلاهما يكسبا الشيعى.. القاهرى يكسب السكندرى، والسكندرى يكسب الصعيدى، والصعيدى يكسب الحدودى.. وجميعهم يكسبون النوبى.. الأب يكسب الأبناء، كما لو أنه كان قد عثر عليهم فى كيس شيبسى، الطفل يكسب العمل، لأنه أرخص أجرا.. وفيما تضيع طفولته، يجلس الكبير إلى المقهى مجبرا، هذا بجانب التقسيمات التقليدية القديمة المتبعة، أمثال الطويل يكسب القصير..

النحيف يكسب السمين، الأصغر سنا يكسب الأكبر سنا، هذا بالطبع إلى جانب هذا التقسيم البديهى الشهير للغاية، والخاص بأن ذا النجوم على اكتافهمن شأنه أن يكسب من اكتافه من دون نجوم، وهكذا إلى آخر تلك التقسيمات التى لا تنتهى فى بلدنا المحروسة.

ماذا يتبقى لنا نحن الذين نزل علينا الوحى؟! لم أعد فى كل تلك الأرض الواسعة أجد أمامى منفذا، إظلم العالم فجأة هكذا فى وجهى، وكأننى وقعت فى طيات رواية لم تكتب لفرانز كافكا.. كأننى أعيد مشهد عبثى، من فيلم هزلى لملايين المرات، ملايين

المرات، أو كأننى واقعا فى فيلم أوربى شتوى كئيب، لا مناص منه، ولا رجاء فى خلاصٍ،

لا أمل أن تنزل أخيرًا كلمة النهاية.. بطله يُعجز ولا يموت، شعيرات رأسى تتلون بالأبيض، فيما جلد يدى يترهل، ورقبتى تشيخ، قدرتى تتحدر، لا تريد كلمة النهاية وأن تنزل بعد..

إلى متى أبقى هنا،

ولست هنا؟! إلى متى أبقى أنا ولست أنا؟!

إنها لعنة القاهـــرة،

الأم المنحرفة التى تأكـــل أولادهـــا بعد أن تملحهـــم،

ملحا مميتا اكلا من الأيام والأوجاع.. والشوارع، شوارعنا العريضة، وحاراتنا الطويلة التى لا نهاية لها هى الآخرى الا بأزقة مقفولات.

عندما أُصيب غابريل غارسيا ماركيز بالزهايمر؛ قيل أن الأديب ستبقى أمامه ملقاة على المنضدة مائة عام من العزلة ولن يتعرف عليها.. بذاكرة مضطربة أقص عليكم ما كان وما هو

كائن، وبخيال اكثر إضطرابا أقص معكم ما سيكون، أنه ذاك الفيلم الروائى الطويل، الذى لم يتبقى منه سوى بعض المشاهد الغير الممنتجة والغير ممكسجة..

إنها بيضاء كالحليب، لدنة كالقشدة، كما إنها تريدنى، وأنا، إمضاء ايغوان شيلى على البورتريه الذاتى ممهور بتاريخ 1912،

من يريد أن يسرق معى ايقونة العجائب من العذراء العزباوية؟ من يريد لو أن نتشارك اللاهوت معا؟! من يريد أن نسكر سويا حتى مجئ الصباح، إلى حد الضياع، إلى حد الوداع.

فى يوما بعيدا من الأيام تمنيت لو أن اصبح فأرا.. صغيرا نحيفا، له أن يختفى بين الشقوق؛ وقد إستجاب لى القدر وتحولت إلى فأر بالفعل، فتناولت الطعم، ووقعت فى الفخ.. ومت، ومرةٍ ثانيةٍ تمنيت لو أن أصبح جزء من سحابة فى سماء زرقاء، كما لون البحر؛ فتحولت إلى سحابة.. ولكنها فى الأخير قد أمطرت، مرةٍ آخرى تمنيت لو أن اصبح إنسانا؛ فلم أستطع، فبقيت كما كنت دائما، حسب خلقتى الأولى، كلبٍ ميتٍ، فهكذا خلقنى الاله، وهكذا سأعود يوما ما لملقاه، لكن المصيبة أن لا سبيل للنباح، ولا مقدرة على الصياح.

"المعرفة هى عدو الإيمان، وفى بعض الأحيان حينما تنظر إلى الجحيم؛ الجحيم ينظر إليك".. "الشيئ الرهيب بخصوص البحث عن الحقيقة؛ إنك فى بعض الأحيأن تجدها".. هذا جاء فى the order(2003)

القصة الاسطورية لشجرة الرمان (مقلتى إبليس).

يُقال قديما أن ملاكٍ من نور، وقد أصابه الضجر، وفى غفلة من الزمن قدتمرد هذا ملاك على الكائن، وقد إتخذ قرارا نهائيا بأن ينضم إلى صفوف إبليس، سأل نفسه، كيف له وأن يرضى سيده الجديد إبليس ليقبله فى مملكة الظلام، وهو الملاك النورانى؟ هداه تفكيره أخيرًا إلى أن يسرق بذرة من شجرة معرفة الخير والشر؛ ويقدمها كعربون طاعة لإبليس، ثم رجع ليتسائل عن فائدتها ومدى المرجو منها، فإبليس على علم بالشر.. ويعلم الخير كذلك، فرجع ثانية ليقرر أخيرًا سرقة بذرة من شجرة الحياة، فتلك هى الهدية الحقيقية التى عليه وأن يقدمها لسيده الجديد، ليضمه إليـــه، ويقبله ما بيـــن ملائكته.. أنه حى، أنه خالـــد، لكن تلك البـــذرة مختـــلفـــة،

إنها تمنح حياة وخلود كتلك التى يمتلكهما الكائن وحده، فتمكن بالحيلة من خداع الشاروب الحارس لها وسرقة بذرة منها من دون اى اذىٍ، أو تعرض لسيف الشاروب النارى المهوب والرهيب، وهوى نازلا على مملكة الظلام، لكن رئيس ملائكة الكائن، الجليل ميخائيل، قد علم بخطته؛ فإعترض طريقه إلى هناك، وتعاركا معا، بين السموات والارض، معركة فتح فيها ميخائيل نيرأن قوته وصب جام غضبه على الملاك المارق، فأحرقه، وإحترقت معه البذرة، لكن ميخائيل وفى فرحته الغامرة بالنصر قد أغفل أمر البذرة؛ فسقطت من بين السموات والآرض إلى حيث حافة مجرى مياه عذبة، فأنبتت تلك البذرة الفاسدةفى الآرض، شجرة الرمان، تلك الثمرة المحرمة الكهرمانية، التىزهرتها هى ثمرتها، وثمارها هى بذورها.. والتى كانت يوما ما فى القديم؛ بذرة شجرة الحياة، التى لونها كلون مقلتى إبليس، حمراوين متوهجين، والتى مياهها هى بذاتها، ودماءها، هكذا اخبرتنى جدتى فى ليلة صيفية منذ عشرات السنوات.

القصة الكلاسيكية لشجرة الرمان.

التى زهرتها هى ثمرتها،

تقف هكذا، فى البرد تقف، وفى الحر تقف، فى الجفاف تقف، وفى الغيث تقف، فاردة يديها، و رافعة فروعها، تسبح الولى فى سراءها وفى دراءها.

انها ام الجُلنارات، انها سيدة الاشجار الحسناوات، التى بذرتها هى ثمرتها، والتى ثمرتها هى زهرتها.

فى الشتاء/ تقف شجرة الرمأن ذات الستة امتار، فى اطرافها الاشواك، متساقطة الأوراق، عارية و موحشة.

فى الصيف/ تقف شجرة الرمأن ذات الستة امتار، فى اطرافها الاشواك، بأزهارها الحمراء اليانعة، يتدلى منها ثمارها قرمزية اللون، ذوات التيجان، فى بهاء ملكى.

فى الشتاء/ تقف شجرة الرمأن ذات الستة امتار..... وهكذا، وهكذا، وهكذا.

رسالة إلى الله عز وجل

تحية طيبة وبعد؛

عزيزى الله، كيف حالك، لعلك بخير..

أريد وأن أبلغك، أن الوضع قد أصبح مزريا، بدرجة لم يعد فى مقدورنا إحتمالها، لكننى فقط اردت لك وأن تعلم، لأننى وددت لوأن اخلى مسؤوليتى أمامك، يوم أن نلتقى قريبا، أن اشرار العالم قد تمكنوا من الإستيلاء عليه، وأخذوا فى تدميره وإبادة الجنس البشرى.

تحياتى، وكامـــل احترامى

مواطن شرق اوسطى

عربى.. ربما

مُسجل بعلم الوصول

مواء القطط

الجميع نيام، ووحدى مستيقظا، أستمع إلى مواء القطط على السلم المهجور ليلا، مواءٍ مرعبٍ،

القطط تصدر أصواتٍ كاطفال تائهين بعيدين عن امهاتهم،

أو ربما كرضع جياع، تلك الأصوات المرعبة ترى أتصل إلى الجميع؛ ام أنا وحدى من يلتقطها؟! أوتعلم حين تشاهد فيلم رعب، وتتآتى أمامك تلك المشاهد المثيرة التشويقية؛ تعلم أن هناك مفاجأة أتيه.. وأن مكروه ما سيقع، وتعرف كذلك أنه سيقع فى القريب العاجل، ولكنك فقط تنتظر، هكذا انتظر أنا أيضا، الليل، الوحدة، خيبة الأمل، دوما ما كنت أعتبرصوت المواءمرعبا يثير الهلع، لكن ما العمل مع الإحساس بقلة الحيلة والشعور بالعجز، كل هذا يثقل الكتفين الهزيلين،

كل الحياة مرعبة، لنتشجع و نواجه الأمر إذن، وكل محاولات فهمها أو محاكاتها أو بعثها أو اعادتها أو تصويرها أو حكيها أو وصفها أو تقليدها مرعبة هى الآخرى كذلك.

فى مديح الصوت

فى ليلة أمس جلست لأكتب؛ فلم أكتب غير الفقرة السابقة، فتيقنت أخيرًا فيما تيقنت إننى لا أتحكم مطلقا بقلمى، ولا بالورقة التى تحته، ولا حتى باليد القابضة عليه، تراقب ما يخطه من دون إرادة أو إذن مسبق، لا علم لى فى هذا الأمر، كل ما أنا عالما به جيــدا أن هناك طاقــة أكبر ومقدرة أقــدر،

وكأنـــــى أتـــابعنى من خارجى،

أن

88

الصوت يتحكم بى، أو بصدق أكبر فأنا من يبحث عنه.

هو يخيرنى بين الحرية والعبودية، فأختار عبوديته هو، أنا من يبحث عنه ليقودنى،

ليهدءنى،

ليهدهدنى،

ليربت على كتفيا المتعبين،

ويشعرنى بوجودى بالقرب منى، بوجوده بجوارى، أن الصوت هو من يتبقى وحده لى/ لك أن الصوت هو الابقى،

فحين تصل إلى حيث النهاية فلن تجد اىٍ من حواسك ماتزال على قيد العمل، لن تجد الاه وحده، الصوت، ساعتها لن تتخيل مدى سعادتك بالإستماع إلى صوت الصوت.. مهما كانت ماهيته.

قد يتأتى لك الصوت كرعود السموات،

أو كأمواج البحار، أو كصوت طرقعات وطقطقات النيرأن وهى تلتهم عشاؤها وكل من يقف بوجهها، وقد يأتيك خافتا رقيقا، كصوت الهواء البارد وهو يربت على خدود الورود بالجنائن فى امسية صيفية رائقة، أو ربما كصوت وشوشة، أو كفحيح أفعى، أو كنهيق الحمير، أو كصهيل الحصان، أو كالصوت الصادر عن الابكم حين يهم بالحديث، لكن المؤكد أنه سيأتيك، سيأتيك.

الصوت هو العامل الوحيد المشترك بين كل من فى جوفه حياة، حتى تلك الكائنات التى نظنها بكماء، تمتلك صوتها الخاص بها، لكننا نحن من لا نمتلك الأذأن القادرة على التقاطها فحسب، أو ربما اننا قد نكون لا نملك الرغبة الحقة فى سماعها فقط، لكن عدم قدرتنا، أو حتى عدم رغبتنا لا تعنى بالضرورة انتفاء وجود اصواتها.

أحاول أن أحادثك عن الصوت؛ ولكننى لا أستطيع.. فالصوت الذى أعنيه هنا، غير غيره من تلك الأصوات التى ربما تكون قد تعرفت عليها واختبرتها مسبقا،أو حتى تلك التى قد ترد إلى ذهنك، لأن هذا الصوت المتفرد مخيف، لكنه يبقى مع ذلك فى نفس الوقت.. مطمئن، ربما هو كصوت أب غاضب من إبنه..

صوت مخيف –من غضبة الأب وعقابه– لكنه كذلك يبقى مطمئنا للإبن –فالأب موجود، ومايزال حى– فالظهر هو الأب..

وأحيانا كثيرة يتلخص الأمأن فى صوت الأب، أو ربما بالحرى فى صوت الأب الغاضب، لكن من ناحية اخرى؛وما ادراك أن يكون هذا الصوت هو صوت الأب فعلا.

رأسى تماما كاراديو المخصص لإلتقاط الإشارات، والأصوات، فكل الأصوات تُبث من حيث لا أعلم، قنوات عديدة، أصوات كثيرة، لكننى مجرد راديو، لا يعرف كيف وأن يلتقط أكثر من صوت وأحد فى ذات الوقت، قد يحدث فى بعضٍ من الأحيأن بعض التشوش غير المتعمد –أو ربما المتعمد– بين الإشارات، لكن وقتها يداهمنى الصداع النصفى،

ويقلب الراديو نفسه تلقائيـــا على محطة لا تعمــل،

ساعتها لا يلتقـــط

89

اى صوت من اى اذاعة، لكن فقط كل ما يتبقى وقتها هو الوش المجرد وحده،

ألف ألف حرف شين مجتمعين،

متواصلين، متشابكين، متتاليين.. لذلك، فقد عودتنى منذ القدم على أن الإرتماء فى حضن إحدى الإذاعات ايا ما كانت؛ أفضل كثيرا من البقاء فى التشويش، أو ربما الوقوع فى براثن الأسواء منه.. أقصد الوش.

لم أعد أتذكر بعد متى كانت اول مرة لى ألتقط فيها صوت الصوت، ولا حتى من أى إذاعة قد جاء، ربما منذ سنوات بعيدة، سنوات أن كنت صغير يجلس على الديسك قبل الاخير فى المدرسة، يوم حصة الإنجليزية والإمتحأن المفاجئ، ويد الأستاذ تخط على السبورة خمس كلمات بالعربية، ثم خط طولى، ثم خمس كلمات اخرى، فخط طولى، وهكذا إلى أن تنتهى المساحة كلها، صوت صرخة اصبع الطباشير، وهو ينزف على اللوح الأخضر

–صوت لا يريد وأن ينتهى–

يضرسنى هذا الصوت، يلوح الناظر بخيرزانته

–كأنها اصبعه الأوسط–

فى وجوهنا، يتهيأ للعبث بأكفافنا الرقيقة الباردة فى يناير الماطر، يبدأ الإختبار، ويدور الدور، ضربات، صرخات، بعض من الشلاليت والقفوات السريعات، دورى، أتقدم نحو السبورة، أعرف الإجابة، وأنتفض بالرغممن ذلك، من أعماقى يجيب الصوت "إطمئن، لا عليك" يحدث هرج ومرج بالخارج، مشاغبة و تعارك.. يهرول الناظر والأستاذ، أبقى وحيدا أمام اللوح الأخضر المشقق، أضع إصبع الطباشير برفق على حامل السبورة، و أنسحب بحذر عائدا إلى مقعدى.

اليوم بقى لى إسبوعين صامتا، منذ أن قطعت عهد الصمت على نفسى، لكن الصوت لم يخفت بعد، بل على العكس، أنه فى تزايد مستمر، تزايد جنونى، الاحظه وقد إتخذ مؤخرا طورا مغايرا، أنه صوت الاله، وصوت الشيطان.. يتحدثين إلىّ بشكلا دائم، مستمر، مدعو منتلقاء ذاته، اصغى دائما، ككلب مطيع لكل من يتسيد عليه، كلب مطيع يسرع لإلتقاط كل ما يلقى إليه.

أزعم أنه وفى بداية الأمر كان عيش الحياة أيسر، عندما كنت أعتقد خاطئا أن تلك الأصوات التى التقطها هى من عند الإله، كنت محظوظا، هكذا اعتقدت، وهكذا كانت رؤيتى لنفسى، كنت أعتقد انها اشارة واحدة، لكننى ومع مرور الوقت أدركت أن

للراديو أن يلتقط العديد من الإشارات، أقترب من الرضيع النائم وتطلع إلى تعبيرات وجهه، راقبه جيدا لفترة طويلة، كم من مرة عبس فيها، وكم من مرة اخرى تبسم، لكن لنبقى محايدين، فلتراعى وأن يكون الرضيع شبعانا، ونظيفا، وسليما اولا، تطلع إليـــه، وراقبـــه جـــيـــدا؛

ستدرك علـــى فـــــورك أنه يـــســـتـــمـــع الصوت

أكثر وضوحا من الانبياء حتى، كل حى، له صوت خاص به، تردد خاص به وحده، فى عالم الأصوات الكل متساوٍ، حيث لكل صوت إشارة، ولكل إشارة متلقٍ.

حين أمسك بك صغيرى بيدى، وأحتضنك بين أصابعى، أدعك تستلقى لتستريح فوق الوسطى، ثم اغفلك، وادع السبابة والابهام يخنقونك بعنفٍ مريضٍ، ضاغطين على عنقك الرفيعة لتنز روحك السوداء على الورقة البيضاء الباهتة، هنا فقط أتوقف يا صاحبى الرشيق، متسائلا عن ماهيه المحرك الرئيسى، من يحركك، ويعبث بروحك المنسكبة حبرا، من يرانى من بعيد احركك؛ يخاطئه الظن حين يعتقد بقدرتى عليك، فأن كنت أنا من يحركك يا صاحبى؛ فمن ذا الذى يحركنى إذن، لا تغضب

منى، أن كتب بك الصوت ما لا تريد، وما لا اريد، أو أن اهملك، أو أن اوجعك.. فالصوت يتحكم بالمصائر، يحركك، ويحركهم، ويحركنى.. فقلمى يكتب وحيا، ورأسى يستمع وحيا، فأننى نبى مزدوج.. أو ربما درويش، أو ممكن دجال، أو ربما بنسبة كبيرة مجرد مخبول مدعى، فلم أعد أعرف ماهيه نفسى على وجه التحديد، كل ما أنا اعلمه جيدا، إننى أستمع للصوت كالجميع، ولكن الفرق بينى وبينهم؛ اننى ادرك اننى أستمع إليه، يرشدنى، يضلنى، يرفعنى احيان، ويخسفنى احيانا اخر، أنا النبى المزدوج مَن يستمع إلى وحى بلغة لا يفهمها.

إننا أصوات مجردة فى عالم صاخب، عالم لم نختاره، عالم لم ولن ندركه يوما، ولم ولن ندرك أبدا غاية وجودنا فيه، وجودنا الملتبس، هل تصدق هؤلاء الذين يدعون انهم على علم بكل التفسيرات، تفسيراتهم التى جائت معظمها، مشفرة أو منقوصة، أو مشوشة، أو فى احيانا كثيرة مُضَلَلَة أو مُضَلِلَة.

وهل يكلم الاله المخلوقات؟! هل تتواصل تلك المخلوقات على اختلافها مع بعضها البعض؟! أعتقد نعم، يتكلم الله مع المخلوقات جميعها، والتى بدورها تتواصل مع بعضها البعض هى الآخرى، وأيضا جميعها.. من منا يدرك هذا الصوت و

يقترب منه، فالصوت هو الأصوات وتلك الأصوات هى ذاتها الصوت، بعضا منا يستطيع،

الأنبياء، الرسل، الدراويش، المجانين، وغيرهم الكثيرين..

فى البساطة يتضح الصوت وينقى الارسال، إلى أعلى درجاته من الوضوح والنقاء، الأطفال يستمعوا له جيدا ويميزونه، على عكسنا نحن الكبار.. هم وحدهم يتقبلونه فى بساطة هكذا.

91

فى البحث عن مقهى حواديت

نهاية متعثرة

وضعت رأسى بجانب المجموعة الأخيرة من الأوراق، ونمت.

لا اعلم كم من الوقت بالتحديد استمريت فى غيابى عن الوعى، نومى، أو ربما اغمائى، لكننى قد استفقت أخيرًا، شعرت بجوع رهيب ينهش احشائى، فذهبت إلى حيث الثلاجة وحضرت سندوتشين لاتناولهما، من ثم رجعت إلى غرفة المكتب ثانية، وقلت لأقراء الجزء الأخير وأنا اتناول السندوتشين.

لكن ما قد قرأته جعلنى القى بما فى فمى على الأرض..

أنه الشكك يعاودنى ثانيةٍ، ليضرب من جديد..

ليضرب من جديد..

" فى منتصف رحلة العمر، التى كتبت علينا

وجـــــــدت نـفـــسى فـــى غــــابـــــــة مـــظـــــلـــمـــــــة

تِـــهــــت فــيـــهـــا، وامــحــــــى الــــدرب أمـــامـــــــى"

هكذا يبدأ دانتى أليجيرى كوميدياه الإلهية، وهكذا أبدا أنا خيباتى المتتالية، ها نحن من جديد، فيما تضرب ذهنه أبيات إليوت؛ تضربنى أنا أبيات دانتى.. أفى المعتقل، ام أنه قد إنتحر؟! الأمر الأن يزداد تعقيدا، اى نحس قد جاء بهذا الغريب إلى حد عندى وبحوزته ذاك الظرف المشيئوم، ذلك الظرف البيج الكئيب كآبة الأظرف الحكومية،

إيفا غرين تطل علىّ من خلف ستائر خيالاتى الجامح؛ لكن مهلا يا عزيزتـــى، فـــلا مـــن مـــزاج لك اليـــوم، فلقـــد أفرغـــت شحنتـــى كاملـــة على مدار يوميـــن

جامحين، والأهم انهما حقيقيين.. لقد أوشكت على الإنتهاء من محتويات الظرف –بعد أن اخرجته من تحت المكتبة – فلم يعد متبقٍ من اوراقه سوى مجموعة الأوراق الأخيرة.

بعد تلك المقابلة على مقهى البورصة مع رامز ممتاز، وأنا فى طريقى إلى البيت قد كلمنى أحمد هشام، وطلب منى أن امُرُ عليه حين علِم باننى بوسط البلد، بجواره، فتمشيت على مهلٍ من شارع الشريفين إلى حيث دار نفرتيتى بشارع قصر النيل

–وليست بشارع طلعت حرب كما جاء فى الشاعر والقاص والروائية– صعدتُ حيث الدار وصاحبها هشام بالدور الأول.. مرقت من بابها؛ ولم اتحكم بعيني فيما بعد؛ فإذ بىّ أنظر لما حولى بنظرةٍ مغايرةٍ عن نظرتى المعتادة، أنظر بعينتيه هو الآن، إنها مكتبة أكثر منها مكتب، حيث رُصت الكتب على أرفف خشبية ثبتت إلى الحائطين، ووضع مكتبً صغيرً مقابلا للباب –وآهٍ من هذا المكتب– أنه مكتب عبدالحق سكرتير هشام، وبجوار المكتب الصغير القيت اوراقا لكتب غير مطبوعة، كتب لم يكتب لها نشرٍ–ومنها ديوأن ممدوح الأول والأوحد (أنا نبى من دون نبؤات)– حيث علت من الارض وحتى السقف،

ثم أتجه إلى اليمين، حيث امُرُ بجوار الكتب المرصوصة على الأرفف المغطاة بالأتربة، إلى حيث مكتب هشام بالحجرة الآخرى، وكلى شكوك فى مدى جودة تلك الكتب المرتصة على الأرفف، ومدى سوء ههذه الأوراق الملقاة بجوار المكتب، أحمد هشام يجلس على مكتبه فى الواجهة، على جانبى المكتب وُضع مقعدين، بعدهما رُص انتريه مهربد من كثرة الإستهلاك.. حيث باش هذا الانتريه وتهربد من مؤخراتنا الثخينة دائمة الجلوس عليه –وربما من مؤخرتى أنا بالاكثر– وجدت هشام يلف إحدى سجائر الحشيش، أشار لىّ مبتسما ملمحا بأن حماتى لا بد وانها تحبنى، وجدت فىّ إحساسٍ بالقرف منعنى حتى من التفكير فى التدخين، إعتذرت منهباننى "لسه طافيها والله يا عم هشام".. واخذنا ندردش.

لم الاحظ اى لوحة معلقه لإيغوأن شيلى؛ سألته إذ كان قد تخلص من لوحات شيلى؛ فأجابنى أنه لم يقتنى لوحة مقلدة لشيلى طوال حياته،صدمنى هذا كثيرا، فى بداية حديثى عنه لم يتذكره – لقد كنت احادثه عن فترة بعيدة بالنسبة له، اعنى من اربعة سنوات فقط!–لكنه بعد قليل، وحين قاربت على أن أيأس؛ قد قال لى بملامح عابسة "آه افتكرت، الولد الشيوعى اللاسع ده" فحكيت له عن كل ما قد جرى معى، من أول ليلة الرمان تلك البعيدة–

والتى لم يظهر ثانية من بعدها –وحتى لقائى منذ قليل مع رامز ممتاز؛ فما كان منه الا أنه قـــد اخبرنـــى أن اقرأ ما قد جاء فى الظرف

جيدا، وأن أضع عليه هوامشى، استعدادا لنشره!! واما من ناحيته هو؛ فإنه فسيكلف عبدالحق بالبحث عن ديوان البصراوى وانتشاله حالا من وسط كومة مذبحة الكتب الغير منشورة؛ لصنع كتاب قوى، عن شاعرنا المنتحر.. أهكذا إذن وبمثل تلك البساطة؟! وحالا؟! مازلت أتذكر ترددى على داره إلى ما يقارب السنة الكاملة قبل أن يفكر حتى فى قراءة مجموعتى، فما له متحمس للنشر هكذا بهذه الطريقة العجيبة، اكملت جلستى معه، وبعدها وفى طريق عودتى، عديت على محل للخمور وابتعت زجاجتين من الويسكى المضروب، رجعت بهما على شقتى، وحين دخلت وجدتها راقدة على الفوتيه، مرتدية قميص نوم مثير، تشاهد فيلما على التلفاز.

جلست بجوار جُلنار من دون أن نتبادل ولا كلمة واحدة، فى هدوء، وبعد برهة من الصمت المشحون، سألتها فى برود:

- ماذا تشاهدين؟!

- فيلم لأحمد زكى.
- تليفونك كان مقفولا، أين كنتِ الإسبوع الفائت كله؟ سألت عليكِ مائة مرة، ولا من أحد يعرف؟
- كنت عند ماما.. ما لك هكذا جالسا باردا، الم اوحشك؟!

كانت الحركات آليه قد عاودتنى من جديد، ولكن تلك المرة مع جُلنار الحقيقية، وليست إيفا غرين المتخيلة، أخترقها عدة مرات سريعات، صوت أنفاسى ثقيلة، كحصأن مجهد على وشك وأن يخور، فى منتصف المضاجعة، أتذكر الظرف وأمعاءه الخارجة عنه الملقاة على المكتب من اوراقٍ متناثرة، نظراتها مليئة بالشبق عن آخرها، أكثر جموحا من كل المرات السابقات، ترى هل دخلت إلى المكتب ورأت الظرف وقرأت الأوراق، فى الخلفية الصوتية، صوت أحمد زكى صارخا فى عبدالرحمن أبو زهرة "ياللا.. ياللا" فيما هى تقول فى شبق مختلط برقة مغلفا برقاعة

"وحشتنى قوى يا هيما.. قوى، قوى"

هاتفى يبدأ فى الرنين، فيما صوت جورج قرداحى يضربُ هو الآخر بلباقته المعهودة، ويخبرنى بأريحية "لقد نفدت وسائل المساعدة الخاصة بك

"قــد تــكــون تلك هــى طريقتهــا بالإحتفــال، الإحتفــال

بالهزيمة الساحقة، الهزيمة الختامية النهائية، الهزيمة المميتة، نعم فمن يوم أن عرفتها وهى هكذا غريبة الأطوار، ممدوح البصراوى هو حب حياتها

–هى مَن إعترفت لى بهذا–

وها هو قد إنتحر، إعتقل ربما، لا اعلم.. ولكنها وأن قرأت تلك الأوراق ستدرك ما الذى قد حدث له على الفور، ستدرك ما لم ادركه أنا.. لا استطيع وأن اجاريها فيما تفعل بعد، مايزال إلى الأن جرس هاتفى المحمول يرن ويرن، احاول أن اجتر تركيزى إليها، ولكن صوت أحمد زكى ما يزال صارخا، فيما جورج قرداحى مايزال هو الآخر يردد جملته الازليةمن غير إنقطاع فى نبرة محايدة، وهى،فهى نفسها لا تريد وأن تنتهى من "قوى، قوى، قوى" التى تقولها مليون مرةٍ ومرة، الهاتف يرن ويرن، احاول الإنسحاب منها لارى من يطلبنى، فإذ بها تلقينى ارضا و ترتمى فوقى راقصةٍ رقصتها الوثنية.

بعد أن انتهينا، وقفنا عاريين، طبعتُ قبلة سريعة على وجنتها، وطلبت منها أن تذهب إلى المطبخ لتحضر لنا عصير المانجو بالويسكى كما تعودت وأن تعده لنا دائما، فيما تسحبت أنا عائدا إلى المكتب، لملمت الأوراق والقيتبها فى الظرف، ومن ثم القيته تحت المكتبة، بحيث اخفيته تماما، ثم تسائلت أن كانت قد عثرت عليه قبل مجيئى أم لا، وادركت كم كنت أحمقًا حينما لم القِ نظرة متفحصة على وضعية الأوراق لألاحظ أن كان بها اى اختلاف عما قد وضعتها بيدى سابقا، ام انها بقيت كما كانت، وحين خرجت من غرفة مكتبى، وجدتها واقفة مبتسمة تصب عصير المانجو بالويسكى فى كأسين زجاجيين.

جلست معى ليومين؛ هذا وحده ما قد اخرنى عن قراءة باقى الأوراق، وها أنا قد أوشكت على الإنتهاء منها، فلم يتبقى منها أمامى سوى هذه المجموعة الاخيرة، أحتسى اخر كأس من الويسكى و اوشك على أن اقرأ المتبقى، لكننى وفى كل فقرة سابقة قد مرت على من الأوراق التى قد قراءتها، بل ومنذ أول دقيقة فضيت فيها هذا المظروف المشيئوم؛ كنت ادرك أكثر وأكثر أنه ممدوح البصراوى، صاحبى الشيوعى المنتحر، فهذا النص المعقد لا يستطيع وأن يكتبه احد الاه.. غيرى ربما، وأن

كنت لست متأكدا من أن ممدوح هو من كتبه مائة بالمائة، فأنا على الأقل متأكدا من اننى لست كاتبه كذلك، الف بالمائة..

فها أنا ذا قد برأت من مرضى منذ ما يقرب من عشر سنوات مضت، فهل يمكن وأن يكون قد عاودنى ثانيةٍ.

لكن لا.. لا يمكن..

لقــد تخلصتُ من تلك الهــلاوس منذ سنــوات وسنــوات،

كذلك ما كان عنــدى لم يكــن

سكيزوفرينيا، لم يكن الا بعض من الهلاوس السمعية،

لكن مهلا.. ألم تعانى كذلك من الهلاوس البصرية فى فترة لاحقة على اصابتك بالهلاوس السمعية، لا تقلق يا أنا، أنت جيد يا إبراهيم،

أنت بخير..

أبخير أنت؟

كيف ذلك؟!

لتجيب على السؤال بصراحة ووضوح؟! اغربُ عن وجهى أيها المهرج.. المهرج؟ أتقول المهرج؟! إذن لنراجع سويا ما قد جاء فى إحدى نصوص البصراوى كما تدعى أنت:

" تصور نفسه وهو يُطرد عشرات المرات، شر طردة، ويلقى به إلى قارعة الطريق، أمام المارة بالشارع، وانهوفى كل مرة ستصادف وأن يتواجد بلياتشو يعبر الشارع وسيضحك عليه حتى يقع على ظهره ارضا ويرفس بقدميه فى الهواء، ثم ينهض منطورا ليأتى إليه وهو ملقى على الارض ليضرط فى وجهه.. تلك كانت هى اللحظة الاكثر رعبا التى قد تعرض لها طوال حياته "

تلك كانت هى اللحظة الاكثر رعبا التى قد تعرض لها طوال حياته، لتراجع نفسك الم تقل هذا؟! والأن لتلاحظ أيها المعتوه، بماذا دعوتنى حالا "مهرج" اليس كذلك؟!

لكن كيف؟! كيف وممدوح البصراوى الشاعر؛ شخصية حقيقية، فأنا أتذكر جيدا، أتذكر كراهيتى له، أتذكر مهاجمتى له أمام أحمد هشام و وصفى لديوأنه بأنه "طنطنات مجردة، وتكوينات صوتية فارغة" أتذكر كل شيئ، أتذكر تفاصيل التفاصيل، لا احد يستطيع وأن يتناسى صاحبٍ قد خانه، وطعنه فى ظهره،

فوصفى هذا تحديدا هو –وهو وحده– مَن جعل مِن هشام يرفض الديوان الذى لم يقرأه من الأصل، كم كان قلبى يرقص طربا حينما رأيت وجهه وهو يتلون بألوأن الطيف وقتأن سمع هشام يحادثه فى أن الشاعر الكبير –المنوط به الحُكم على جودة الأشعار من عدمها– قد ابلغه أن الديوان من أضعف الدواوين التى قد قرأها طوال حياته الممتدة الطويلة، كيف أنسى جُلنار وإعترافها لى بأنها تحبه، وغيرتى منه ساعتها، كيف لى أن اختلق كل هذا؟ أجبنى؟ أيها الغبى الأحمق، هل تظن اننى أتهمك انك أنت من اختلقت ممدوح البصراوى، يالك من هبيل! كيف لك أن تختلقه، وهو الشخصية الحيةالتى قد خلقها الله من قبلك؟! نعم أيها الوغد، ها أنت تعترف اننى لم أختلق ممدوح البصراوى إذن، نعم لا تقلق يا أنا؛فأنت مازلت بعقلك، اننى لا اختلق كل هذا،فأن لم يكن لرؤية يحيى هذا من شهود لأنه قد قابلنى ههنا فى شقتى؛فالكارت التعريفى الخاص به مايزال موجودا، وحتى ولو؛ فلقد تحدثت مع ممتاز عن ممدوح فى مكان عام، مقهى البورصة بوسط البلد، وتحدثت عنه كذلك مع هشام هو الآخر فى نفرتيتى، ولم ينكر احدا منهما معرفته، إذن فأنا مازلت بعقلى.. عقلك مَن يا ابو عقل؟!

أقول ثور تقولوا احلبوه!

لم أقل لك إنك قد اختلقت الشخوص، فهذا أمر أكثر تعقيدا على هاو مثلك، أنت فقط اختلقت الأحداث ونسبتها لشخصيات حقيقية من واقعك، ومشكلتك الكبرى انك قد نسبت إليها اسماءها الحقيقية كذلك أيها الخرف.. لقد ذكرتها فى مقطوعاتك الادبية باسماءها الحقيقية.. هه، فيالك من حثالة الادباء، لكننى قد شفيت، وتخلصت سابقا من المرض.. لم اعد كما كنت.. لقد شفيت تماما منذ سنوات؛ هكذا اخبرنى دكتور منير مرزوق طبيبى النفسى، لم أعد أستمع إلى أى هلاوس، ولم أعد ارى أى هلاوس منذ سنوات وسنوات.. الم أقل لك انك خرف؟! ترى إلى ماذا تستمع الآن، أو ترى مَن يكون يحيى هذا؟ اما بالنسبة للكارت التعريفى؛ فقد يكون ربما هذا الكارت؛ ما هو الا كارت قديم لديك، لشخص ما كنت تعرفه سابقا وقد نسيته الآن، إستيقظ يا بنى، إستيقظ يا أنا.

كنت قد بدأت فى تكسير الأشياء من حولى، القيت بريموت التليفاز إلى عرض الحائط فتهشم، واجه الحقيقة أيها المخبول؟! اليست تلك هى حقيقتك أيها الشيطان الغضوب، ضربت بزجاجة الويسكى الفارغة على اللوح الزجاجى للمنضدة فتهشم هو

الآخر، صارخا فيه الا يقل لى ذلك التعبير بالذات،ها هى الهلاوس والأيام الغبراء تقتحمك من جديد كما تقتحم إيفا غرين فى تخيلاتك المحمومة الدنسة، وكما اقتحمت جُلنار-حبيبته- البارحة وأول البارحة أيها النذل الخائن، ها هو الضياع بثوبه الأبيض الفضفاض ووشاحه الإسودالأملس يعاودك من جديد، ليضرب بقوة، كنت قد أخذت رأسى عدة مرات هى الآخرى لتسلم على الحائط، نظارتى قد طارت من على وجهى، والرؤية أصبحت ضبابية الآن، كان يصرخ فىّ قائلا "كم أنا مستمتع؛ لكن ما يزال الإيقاع بطئ، أسرع، اقوى، اقوى"كنت اركل الحائط الأن بعد أن نزفت رأسى وغطت الدماء وجهى.. اجرى سريعا وارتمى قافزا إلى عرض الحائط، كتفى يتمزق، آلمٍ رهيبٍ، أرتد واقعا مستندا إلى زجاج التسريحة، الزجاج ينشرخ، ارى إنعكاسات كثيرة لوجهى، يصيبنى الهلع لمرآته، يقول لى الصوت تلك المرة فى هدوء "أهذا منظر شخصٍ عاقلٍ؟ الأن من منا المهرج؟!".

اخلع فلنتى واكتم بها دمائى السيالة، اهرول حيث مجمع البن بالمطبخ، أملء كفتى منه، اكبس به على رأسى، الجرح يطق نار، أغسل وجهى، ومن ثم اهرول عائدا إلى الدولاب، ارتدى بدلة رماضيةعلى عَجل، اركب عربتى، واتوجه إلى قصر ثقافة

روض الفرج –ربما الأدق أن أقول– إلى حيث خلف قصر ثقافة روض الفرج، منطقة السوق، باحثا عن مقهى حواديت.

إستفسرت فى الطريق،

كانت تلك هى أول مـــرةٍ لى اتوجه فيهـــا إلى هناك، حيث تلك

97

المنطقة خلف قصر الثقافة، فى مبتدأ الأمر شعرت بعض الشيئ بالإحباط، إذ وجدت خلف مبنى قصر الثقافة هذاحديقةٍ متسعةٍ، لكننى ما أن انتهيت منها الا وقد قابلت شارعا طويلا، مرقت إليه بعربتى وأنا أنظر ذات اليمين وذات اليسار، منتظرا ظهور مقهى حواديت هذا، ولكنه لم يظهر، على أول الشارع سنترال روض الفرج العمومى، وعلى جانبى الشارع رصت بيوتٍ متهدمةٍ من الناحيتين، منظرها غريب هكذا، وكان غارة شنعاء قد أصابتها فى غفلة من الزمن، وفى آخره مستشفى اليوم الواحد، لم أعثر على مقهى حواديت فى هذا الشارع الطويل؛ أدرت عربتى عائدا من حيث أتيت، فى منتصف المسافة تماما، لمحت مدخل زقاق مضئ،

اوقفت عربتى، وترجلت منها،

وبخطوات متمهلة اتجهت ناحية الضوء،

اقتربت أكثر، وأنا لا أعلم لما قلبى يخفق هكذا،

وإذ بكلبٍ مندفع، ينبح عاليا، خارجا مهرولا من الزقاق، اصطدم بى، لكنه اعتدل، واكمل جريه، لا أعلم كيف تقافزت صارخا هكذاكمؤدٍ لرقصة من قبيلة افريقية، شعيرات قفاى منتصبة، وقلبى يخفق بقوة.

غرزة بدائية، بعض أعواد من البوص المغلفة بقطع الخيش وورق الشكاير، لمبة صفراء معلقة فى منتصفها تماما، وراديو يبث اغنيات أم كلثوم،

قهوجى اربعينى، أثار الجروح على وجهه أكثر وضوحا

من ملامحه، قال لى مبتسما:

–مرحب يا بيه، حاجة ساقعة ولا لمون؟

سكت لبرهة؛ فلقد قال لى الصوت ساخرا فى تلك اللحظة، أن اطلب منه حبات الرمان الحمراء المغطاة بكريمة الشانتيه بالفانيليا المثلجة.. فقلت له "لتخرس أيها الوغد" فقال لى بهدوء

قاتل "أنه مجرد فصل جديد من سفر التشوش الخاص بك" فقلت للقهوجى مبتسما ابتسامة عبثية:

- قهوة مظبوط لله يباركلك.

يصبها لى من ابريق نحاسى غريب، احتسى القهوة فى كوب زجاجى مشروخ، حوافه متكسرة، فى هدوء وسكينة، مذاقها هنا مختلف، ورائحتها كذلك، أساله:

- القهوة هنا غريبة، أنت بتعملها ازاى؟!
- الحاجَّة أمى.. هى اللى بتشتريها حبوب من شارع السودان وتطحنها على ايديها، كيف عندها من أيام المرحوم أبويا، وبعديها تخلطها بقى بخلطتها الأنتكة..
اللى أجمـــد من خلطة الخواجة (كونتاكى)
الناس بتجيلنـــا من كل حته

98

علشان تشترى من عندنا القهوة،
من شبرا والشرابية وإمبابة والوراق والكيت كات.

- لا هى ممتازة فعلا، الله يفتح عليك، وعلى الست الوالدة، الا قولى صحيح؛ هو فى قهوة النواحي دى اسمها قهوة حواديت؟
- حواديت.. حواديت، لا يا بيه ماظنيش أن فى فروض الفرج أو حتى الساحل كله قهوة بالاسم ده تِمن.
- متشكر قوى يا....
- محسوبك زيّان يا بيه.
- متشكر قوى يا زيّان.

جلست فى عربتى، أتفكر وأتذكر، متحاورا مع الصوت من برهة لاخرى..هه، وما الذى قد طلعت به من تسرعك هذا أيها الخرف، لتصمت أيها المهرج، أتدعونى بالــ(مهرج) ثانية؟! نعم مهرج، بل ومهرج فاشلكذلك، فلقد خرجتُ من تلك الغرزة، بشيئين أثنين:

أولًا/ أن حسب كلام زيان لا وجود لمقهى حواديت فى روض الفرج أو فى حى الساحل كله ،

ثانيًا/ اسم القهوجى زيان، وقهوجى حواديت بحسب كلام يحيى اسمه زين.. حقا فالأمر أكثر تعقيدا مما اعتقدت، ألم أقل لك ذلك أيها الشيطان الغضوب؟!

لتصمت ايها اللزج، دعنا نسترجع سويا ما قد جاء به يحيى:

إبراهيم عبد السلام متولى، أليس هذا هو اسمك الثلاثى.. أول مرة لم نتبادل ولا حتى كلمة واحدة، فى مقهى حواديت، روض الفرج، راحل فى رحلة أخيرة، رحلة ليس منها فكاك، وليس لسالك دربها من طموح فى عودةٍ، اخبرنى عنك بوصفك صديقا له من مقهى البورصة، اى مصير بائس كان يتهدده حين اسلمهانى، لكنك من المؤكد تعلم لما اختارك أنت، فى يدى رواية رأيت رام الله،

وفى يده رواية الحالم، القارئون نادرون فى القاهرة، مشروع صديق مؤجل، الحديث عن وليام فوكنر، افترقنا بعدها، دون حتى أن نتبادل الأسماء.. ما يقرب من شهرين وعاد، وعاد، شكله غريب وهيئته مزرية.. أما باقى ما حدث فقد علمته من زين القهوجى،

لقد ألقـــت الأمـــواج به على شاطئ النيـــل، ضفـــاف شاطئ الكيت كات، الأسماك كانـــت قد

99

إلتهمت أصابعه.. من دون صلاة للموتى دفنوه، رفض القائمون على الأمر ذلك، زين القهوجى، زين القهوجى، فذهبت إلى بيتى، من تحت مرتبة فراشى حيث كنت مخبئه، حيث كنت مخبئه.

بحسبة بسيطة... أمازلت تريد وأن تحسبها إلى الآن، لتعود إلى بيتك، ولتتناسى كل هذا، لتخرسى أيها الهلوسة الصوتية المقززة، أنا لست بهلوسة، أنا هو أنت أيها الخرف، دعنى اركز إذن يا أنا.. لقد حاول الإتصال بالأرقام على الكارت، ولم أصل لأى شيئ، كذلك الفاكس ارقامه ناقصة، والإيميل لا وجود له على شبكة المعلومات، ذهبت إلى حيث خلف قصر ثقافة روض الفرج فلم أعثر سوى على غرزة صغيرة لدرجة أن لا إسم لها، تمهل يا صاحبى، أتعرف ما الذى ينقصك حقا؛ أن تستمع إلى جورج قرداحى بلباقته المعهودة، وليخبرك بأريحية مميتة "لقد نفذت وسائل المساعدة الخاصة بك" هه.. لتصمت أيها المهرج الخبيث، دعنى الآن، أولًا/ لم يذكر يحيى المنقبادى فى حديثه معى سوى شخصين

1- صاحبى المنتحر (مَن لا إسم له).. والذى من قراءة رسالته قد تأكدت بنسبة كبيرة من أنه قد يكون ممدوح البصراوى الشاعر

2- زين القهوجى الذى يعمل بمقهى حواديت.. والذى بدلا عنه قد قابلت زيأن فى غرزة من زقاق مختبئ خلف الحديقة، وليس خلف مبنى قصر الثقافة مباشرة،

ثانيًا/ لم يذكر يحيى فى حديثه معى سوى مكانين اثنين

1- روض الفرج (حيث مقهى حواديت الذى تقابل فيه مع ممدوح البصراوى)

2- الكيت كات (حيث إستخرجوا جثمأنه من النهر هنالك).. عذرا يا جورج يا قرداحى، لكن ربما ثم سبيل لم اسلكه إلى الآن؛ وهو المكان الوحيد الذى لم أبحث فيه بعد.. إنه الكيت كات.

أخذت كوبرى إمبابه القديم –الكوبرى الإنجليزى الحديدى– وعبرت شريط النيل، إلى الناحية الجنوبية، ومنه اتجهت نحو ميدأن الكيت كات.. وبجوار جامع خالد بن الوليد المطل على الميدن، على الناصية الآخرى وقفت كافيتيريا منيرة تعلو ما

يقارب المتر عن سطح الشارع، وبالنور كتب على مقدمتها من أعلى (حواديت) يا الهى،أببساطة هكذا، أين كانت مختبئة فكرة القدوم إلى ميدان الكيت كات منذ البداية؟!

لا يهم فها أنا قد وصلت أخيرًا، إذن على الأقل لم يخدعنى يحيى بخصوص هذا الشأن. فى صدارة المقهى صورة بالحجم الطبيعى تجمع المعلم صاحب المقهى بجلبابه البلدى وعمته الصعيدية بالاديب إبراهيم أصلأن

–ها هو أصلان إذن وليس يحيى الطاهــرعبد الله،

نعــم إنهــا الكيــت كــات–

جــلســت إلــى المنضــدة المطلــة علــى

الشارع أمامى النيل لكنه محجوب عنى بسياج من الطوب والأشجار، فلا أرى منه شيئًا، بعد أن جلست بعشر دقائق أتى إلىّ النادل قائلا:

- أوامر الباشا.

- شاى بالنعناع.. ولا اقولك معلهش؛ خليها قهوة لحسن الواحد رأسه بتلق.
- من عينيا يا باشا، أحلى فنجان قهوة مخصوص.

سمعت احد الزبائن يصيح عليه مناديا "فين العناب يا زينهم".. أهو زينهم ام زين إذن،

أحضر لى القهوة، هو نفسه مذاق ورائحة قهوة ام زيان،

احتسيتها على رشفتين اثنتين، كان زينهم يمر بجوارى يحمل بيمناه صينية من الأكواب، أخرجت سيجارة من علبة سجائرى الأمريكية، وعزمت عليه مبتسما:

- زين.. ايه القهوة العجيبة دى.. مش اسمك زين برضو؟!
- اسمى زينهم يا باشا، بس بيقولولى يا زيزو.
- عاشت الاسامى يا عم زيزو.. خد بقى سيجارة معايا.
- ما يصحش يا باشا، ربنا يكرمك يا رب.. واللهى لسة طافيها.
- يا عم ايه الكلام ده بس؟! طيب والنبى لتاخد واحدة.
- عجبتك القهوة المخصوص بتاعتنا يا باشا (حمل الصينية بكفه الايسر، ومد يمينه ليسحب السيجارة من يدى).

- دى رهيبة.
- بجيبها مخصوص واللهى لأصحاب المزاج العالى اللى زى حضرتك كده، من قهوة صغيرة فى روض الفرج.
- الا قول لى صحيح.. هو فين ممدوح البصراوى؟

101

ارتبك و قد قاربت صينية الأكواب أن تسقط من على كف يده اليسرى

- ممـــــ... اصـــ... أنا والله ما أعرفش حد بالاسم ده يا باشا.
- طيب و يحيى المنقبادى.

صمت لبرهة ثم قال لى وقد احمرت وجنتيه واذنتيه:

- ما عرفش حد بالاسم ده برضو يا باشا..

عن إذن حضرتك بقى لحسن صاحب القهوة يضايق من وقفتى كده.

إنصرف من أمامى، تعثر، كاد أن يسقط، لكنه قد تماسك، التفت للخلف، مرق إلى الداخل، ولم يظهر بعد ذلك إلى أن إنتهيت من قهوتى الثانية، وحاسبت نادل اخر، تركت له معه عشرة جنيهات بقشيش، وإنصرفت.

فى طريق عودتى إلى البيت؛ رن هاتفى المحمول، وإذ به يحيى المنقبادى يطلب مقابلتى فى جامع السلطان حسن بعد ساعة واحدة من المكالمة، كيف أتى برقم هاتفى؟! لكننى وحين هممت أن اسأله عن هذا؛ كان قد أقفل موبايله.

لم يكن هناك احدا غيرنا بالجامع فى هذا الوقت من اليوم، أنه بإختصار تحفة معمارية مزخرفة بفن العمارة الاسلامية، شيد قبل ما يقرب من الآلف عام، ومِن أول ثانية لى فى حرم الجامع كنت قد أدركت تلك الطاقة المنتشرة فى اجواءه والمعبقة بروائح التاريخ، كنت أرتدى بدلة رمادية، فيما وقف هو منتظرا- وقد جاء قبلى- مرتديا بدلة سوداء، واضعا على عينيه نظارة شمسية، وكان صحن الجامع يعلوا عن فنائه ما يقرب من الربع متر، مفروش عن اخره بالسجاجيد الحمراء المنقوشة، تتدلى من سقفه العالي القناديل الأثرية المنيرة، وزقزقات العصافير تملأ اجواءه، لتضفى عليها سحرا أخاذا، اقتربت منه، قائلا:

- عاوز افهم كل حاجة.. كل شيئ.
- اهداء بس أنت، علشان أنا اللى عاوز افهم منك!
- مين اللى يفَهِم التانى؟!

102

- عاوز افهم منك.. الورق اللى فى الظرف كان مفيد ليكم؟! انتم راضيين عنه؟!
- احنا مين؟! و مفيد ازاى يعنى؟!

اتجه يحى المنقبادى ببطأ، وجلس إلى حافة صحن الجامع، كانت عيناه حزينتين، وصوته مختنقًا، قال موجها حديثه إلىّ فى هدوء:

- **أنا لما ابتديت المهمة كنت قادر أشوف كل حاجة بوضوح، كنت متأكد من اللى أنا بعمله، بعد كده ابتديت أحس أن أنا بشوف الصورة من وراء لوح ازاز، وبالتدريج ابتدت تتكون طبقة كده زى التراب، المشكلة أن التراب ابتدا يزيد لدرجة أن أنا مابقيتش شايف أى حاجة، صورة ضبابية، الذكريات اختلطت مع الأحلام، مع الأوهام، مع الحقائق.. الفترة الاخيرة بقيت أحلم بكوابيس، واصحى خايف مش عارف ليه، بقيت أحس**

أن أنا محكوم علىّ بالوحدة، متعلق فى الهوا، لا قادر أمسك حاجة بإيديا ولا فى ارض تحتيه، بقيت أسأل نفسى سؤال.. أنا ليه بقيت كده؟!

- أنا مش فاهم اى حاجة.. ايه الجنون ده؟!
- كل ده ومش فاهم؟! كل ده ومش فاهم؟! ده أنت غبى يا أخى.. أنا هقتلك، هقتلك.

وقام منطورا واضعا يده فى جيب جاكتته الداخلى، وأخرج منه مسدسا، دفعنى فوقعت على حافة الفناء ارضا، مرتعبا ومرتعدا، شد أجزاء مسدسه، فقلت وصوتى لا يريد أن يغادر حلقى:

- احنا فى الجامع، احنا فى الجامع (وضعت يدى على رأسى، و رددت الشهادتين هامسا).

امسك بياقة الجاكيت، وجذبنى من على الارض، وعيناه تطقان شررا، هو يرجرجنى بعنف، ويزبد و ينتفض، قائلا:

103

- مش عاوز اشوف وشك ولا اسمع صوتك مرة تانية.. غور من هنا،
(ثم صارخًا فىّ بصوتٍ عالٍ مرعبٍ)

يالـــــلا.. يالـــــلا.

هرولت خارجا عن جامع السلطأن حسن، وأنا واقع فى براثن حالة غريبة عجيبة لم امر بها طيلة حياتى الماضية، فقد كنت ادرك تمام الادراك اننى قد مررت بهذا الموقف من ذى قبل، فربما اكون قد عشته فى حلم منسى، أو ربما فى حياة ثانية، قبل حتى و أن اصبح إبراهيم عبدالسلام الرجل الذى أنا عليه الآن.

وصلت إلى عربتى وحالتى كرب، معدتى مضطربة، الصداع النصفى يهاجمنى، ويغزو نصف خلايا رأسى، لا مقدرة لى على أن اوقفه، احسست خوفا لكننى مالبثت اتسائل أين عساى أن اكون قد رأيت هذا الذى رأيت منذ قليل، فتلك هى أول مرة لى ازور فيها جامع السلطأن حسن؛ ومع ذلك فالمكان ليس بالغريب علىّ اطلاقا، أنه مألوف لدرجة كبيرة؛حتى اننى أستطيع وصفه وصفٍ دقيقٍ، رأسى يكاد أن ينفجر، نظرت فى تابلوه سيارتى؛ فلا من أى مسكرا، لا وجود الا لعلبة عصير صغيرة، أنه عصير الرمان اللعين للمرة التى لا اعلم كم على وجه التحديد، أين عشت كل هذا من ذى قبل؟! فى حلم، أم فى إحدى الحيوات السابقة، أو ربما حتى فى إحدى الحيوات اللاحقة.. مهلا مهلا أيها الخرف، أأنت ثانية، نعم أيها البعوضة فأنا فقط أود لو أن

استفسرك؛ هل تخرج تلك الأفكار النابهة من عقلك ام من مؤخرتك؟! آهٍ أيها المهرج، لا أعلم فقط ما الذى قد جاء بك ثانيةٍ إلىّ؟! لأرشدك تلك المرة أيها البغل، فأنا أعلم حقا انك لن تصل الا من خلالى.. خذ هذه، فربما مرّ عليك ما قد رأيت فى فيلم ما.. ربما، و ربما أيضا أن يكون هذا وقت أن كنت تجامع جُلنار،على فوتيه الانتريه، فى غرفة الصالون فحسب..

رأسى تكاد وأن تنفجر، لقد كان الصوت على حق تلك المرة، نعم بالتأكيد،أنه مشهد معاد من فيلم مصرى.

فى البيت، فتحت غوغل سيبرش،

وكتبت "يحيى المنقبادى" وضغط على زر إنتر، أحمد زكى، شخصية سينمائية، يحيى المنقبادى، أدم، يحيى ابو دبورة.. فيلم من إخراج داود عبدالسيد.. ولما افقت من حالة الإغماء التى قد اصابتنى بعد أن عرفت من هو يحيى المنقبادى –ولا اعلم كم بقيت فيها تحديدا– حاولت أن أجمع شتات كل ما حدث وارتبه فى رأسى؛ فلم أستطع.. لقد كان الأمر أكبر منى، سؤالٍ واحدٍ ظل يلح علىّ طارقا باب ذهنى، ولا من اجابات لديه ليعطيها له، لما قد يتنكر أحدهم فى شخصية سينمائية، ويفعل بى كل هذا

الذى قد فعله؟! ما الذى عساه أن يستفيده من كل هذا الكم من العبث؟! وماذا عن نصوص الشاعر ممدوح البصراوى؟!

لما هى بالذات ما قد آتانى بها؟!

أو الأفضل لصيغة السؤال أن تكون؛ لمـــا أنا بالذات؟! لمـــا؟!

104

أنظر إلى النص المتبقى أمامى على المكتب، لم أعد فى حاجة بعد إلى قراءة هذا النص الأخير، الذى ومن المؤكد سيكون خبل ومبتور كغيره من النصوص السابقة، أن الأمر فى غاية البساطة إذن؛ لقد اتضح أخيرًا ما علىّ فعله، أمامى اختيار من اثنين، لا ثالث لهما؛ أولهما/ أن أجمع كل تلك الأوراق، وأضمها للظرف كما كانت تماما؛ومِن ثم أحرقها إلى أن تنتهى، وانتهى بدورى من كل تلك السوداوية العابثة، وبهذا سأريح وأستريح، وسيستريح هو أيضا

–أقصد مقلد أحمد زكى هذا–

وربما سيستريح ممدوح فى تربته أو فى معتقله أو اينما كان هذا الوغد ابن العاهرة هو الآخـــر.

ثانيهما/ هو وأن التقى مرة اخيرة ختامية نهائية بهذا الوغد منتحل الشخصيات الخيالية، لأواجهه.. لأعرف منه حقيقة الأمر كاملة.

أخذتُ عربتى، وقدتها فى إتجاه الكيت كات، فالطريق إلى يحيى –أقصد من ينتحل شخصية يحيى هذا–

يمر عبر بوابة مقهى حواديت..

عن طريق زين، زيان، زيزو، زينهم أيا ما كان اسم هذا الخسيس، وأيا ما كان يعمل..

نادل، قهوجى، عميل ليحيى، أو حتى راقص باليه مائى!!

علىّ أن أعثر عليه إذن، وأقبض على رقبته إلى أن يعترف لى بمكان ذلك الوغد الذى يعمل لحسابه، لن أترك هذا الوغد الدنئ اللا مدعو يحيى ليهرب منى هكذا،

ويفل معتقدا فى نفسه أنه قد اذلنى وزلزلنى، وأنه قد انتصر علىّ نصرا ساحقا.. فها أنا قادم إليكم جميعا يا أولاد العاهرة.

ما أن وصلت إلى ميدأن الكيت كات؛ الا وقد شعرت بأن قلبى سيخرج هاربا من قفصى الصدرى بعد أن يحطمهُ،

ركنت عربتى فى الناحية الآخرى من الشارع،

على النيل، وعبرت إلى حيث المقهى فى الناحية المقابة منه، كنت على بعد قرابة العشرة أمتار من المقهى، من الجهة المقابلة له، عبرت الطريق، وأنا شاعر بأن زيوس يضع يديه على كتفيّ مباركا ومشجعا.. وقفت أمام واجهة المقهى، بحثت بنظراتٍ مضطربةٍ عن زين أو زيزو أو زينهم لا يهم، وجدته واقف فى منتصف المقهى تماما بين زبونين يحاسبانه.. بعدها لا أتذكر الا اننى كنت أصرخ فيه، فيما يديّ تضغطان على رقبته، بجملة واحدة،

لا تتكرر غيرها،

وكان هو يجيبنى مذعورا مرتعبا بجملة واحدة كذلك،

لا تتكر غيرها هى الآخرى، فيما كان رواد المقهى يحاولون بجُل مقدرتهم الفصل بين جسدينا المتلاحمين.

- اين يحيى المنقبادى؟!
- لا اعرف عن مَن تتحدث.

مع كل هذا الكم من المجاذبات والسحجات والضربات والتشليتات؛ فلتت رقبته من بين يديّ، فتشبثت بياقة قميصه، وفى كل مرة كانوا يحملوننى عنه؛ كنت احمُل به، كان لنا أن نبقى على هذا الوضع المتشابك لساعات متواصلات؛ لولا اننى لمحت شبحا من بعيد، يتطلع متلصصا إلى ما يحدث، عله يرى وجه من الوجوه المتعاركة، أنه يحيى بذاته، أقصد منتحلًا تلك الشخصية السينمائية، اللا مدعو يحيى،

أنظرإليه، ينظر إلىّ،

يعرفنى، ترتسم الدهشة على ملامحه، يهرول مبتعدا، اترك قميص زين أو زينهم، واهرول وراءه بعزم ما فى من إرادة لمعرفة حقيقة كل هذا العبث السودوى الذى قد مررت به ومررنى، اجرى خلفه، ولا من احد يجرى من خلفى، السائرون يتحاشوننى.. تكاد أن تصدمه عربة مسرعة، نفس العربة هى ذاتها تكاد أن تصدمنى أنا الآخر، يعبر الشارع، أعبره وراءه، متجها إلى ناحية النيل.

حينما أصل إلى حيث الناحية الآخرى مِن الشارع، بعد أن تكون قد عطلتنى السيارات العابرة؛ أجد أنه قد تبخر نهائيا، أبحث عنه

ذات اليمين وذات الشمال، لكن لا وجود له، فص ملح وذاب، كأننى كنت فى مطاردة شبح بالفعل، انفاسى متهدجة، ونظراتى زائغات، صدرى يعلو ويهبط –بسرعة رهيبة– وقلبى كبندول الساعة بداخله، أجلس إلى حافة الرصيف، أضع يدى فى جيبى، أخرج علبة سجائرى واشعل واحدة منها، الاحظ شبحا عائدا من ناحية مظلمة، يقترب منى، يتمشى نحوى بهدوء حذر، وفى ثانيةٍ واحدةٍ اكون راقدا فوقه منقضا عليه، صارخا فيه:

- أريد أن افهم؟ أريد أن افهم؟
- لماذا عُدت إليك إذن؟ أنا هنا فقط لمساعدتك، فبالله عليك أن تسحب يدك من على رقبتى.
- رأسى سينفجر! من أنت أيها الغريب اللئيم؟!
- أنا من سيُعلمك بالحقيقة؛ فى عالم ملئ بالاكاذيب.. ألا تريد أن تقابل ممدوح البصراوى؟
- ممدوح البصراوى على قيد الحياة؟!
- أليس جميعنا على قيد الحياة يا صاحبى؛ فالذى حيا مرةً لا يموت للآبد.

قمنا، واعتدلنا..

قال لى مشيرا أن نتمشى فى إتجاه عربتى المركونه على بعد حوالى عشرة أمتار منا، أمسكتُ بمعصمه خوفا من أن يهرب منى؛ فتبسم لى وأكمل تمشيه صامتا، كنت أعتقد اننا سنستقل العربة للوصول إلى حيث يختبئ ممدوح البصراوى، لكننا ما وأن وصلنا إلى العربة؛ الا وقد وقف متبسما مشيرا إلى مدخل عوامة بجوارها، قائلا لى فى ابتسامة مشرقة:

- ها نحن قد وصلنا.

مرق أمامى من الباب الحديدى الصغير المرشوق فى سياج لا يتعدى المتر والنصف ونزل إلى أسفل.. فتبعته، ونزلت وراءه، عبرنا جسر خشبى ضيق ومتأكل، ومنه إلى باب العوامة الأكثر تأكلا هو الآخر.. دخل يحيى أمامى،فتبعته إلى الداخل.

ظهرِ شخص يظهر لنا، يطل على النهر،

ودخان سيجارته يتصاعد من أمامه، يشعر بحركتنا، يلتفت رانيا تجاهنا؛ إذ به ممدوح البصراوى بشحمه ولحمه،

وروحه وجسده.. ووجهه الذى لم يتغير مطلقا؛

إلا أنه وحين ابتسم قد ظهرت فى مقدمة اسنأنه العلوية سنتين فضيتين،

كذلك كانت ملابسه اشبه بأثمال رثة، مرتديا فوق رأسه آيس كاب اسمر، وكان تاركا لحية مشعثة بعض الشيئ، لقد تعودت عليه دوما تاركا لحيتة؛ لكنه لم يتركها يوما لتصل إلى مثل هذا الطول.. بالرغم من كل ذلكوفى الإجمالى؛ لم يكن قد تغير كثيرا من حيث وجهه وجسده منذ آخر مرةٍ رآيته فيها.. أقصد منذ يوم الرمان ذاك.

- لقد مرَت فترة طويلة منذ آخر مرةٍ كنا فيها سويا، أعتقد كانت يوم حفل عيد ميلاد أنور الزغبى "المئوى" هه.. مالك هكذا لا ترد ولا تصد، اوعاك وأن تكون قد فقدت حس الدعابة الخاص بك.
- دعابة؟! وهل كان هذا كله مجرد دعابة؟!
- لا تعتقد فى ذلك يا صاحبى.. فبالطبع لم يكن الأمر مجرد دعابة كما قلت؛ والا فأنظر إلى هيئتى وستدرك ومن الوهلة الأولى أن الأمر حق، ولا مزاح فيه..
  ولكننى فقط أحاول وأن ألطف الأمر عليك بعض الشيئ.

إن الحكاية قديمة يا صاحبى، لقد بدأت منذ أن قررت النزول إلى المظاهــرات

107

يوم19 نوفمبر 2011، ما زلت اتذكر جيدا.. لقد كان سبت، اتصلت بك يومها لتنزل معى–لاذيب جبال الثلج– لكنك كنت مشغولا إذ كنت تنسق مع الكتلة فى حملتها الإنتخابية فى هذا اليوم، فإعتذرت منى، وكنت قبلها قد اتصلت برامز ممتاز لينزل معى؛ لكنه رفض هو الآخر لأنه كان وقتها غير مقتنع بمطالبنا، وكان وقتها أيضا يثقبالمجلس ويريد وأن تتم الإنتخابات البرلمانية دون اى احداثٍ من شأنها أن تعطل الإنتخابات أوخارطة الطريق التى قد وضعها المجلس العسكرى وقتئذ، أتذكر مطالبتى وقتها مع باقى الثوار فى الميدأن بإنتخابات رئاسية فى موعدا اقصاه إبريل 2012 ونقل السلطة سلميًا لرئيس مدنى وحكومة مدنية منتخبة، كذلك اعتراضنا على وثيقة السلمى.. كانت البلد وقتئذ على كف عفريت، طبعا بعد الضرب والهراوات والصواعق الكهربائية والرصاص المطاطى والخرطوش، والإعتداء فى ثانى أيام الإعتصام على أهالى الشهداء والمصابين وطردهم من الميدان، كل

هذا قد أشعل الأحداث من جديد، وغير من نظرة الأحزاب،التى كانت أول الأمر مصرةبشكل قاطع على اجراء الإنتخابات بعد إسبوع، كطعم رخيص، وكارت تلهية عما كان يحدث وقتها فى البلد، تتذكر وقتها رفض الإخوأن والسلفيين الإنضمام لإعتصامنا فى الميدان ومحمد محمود والشوارع المحيطة بالميدان، المهم أن آخر ما أتذكره وقتها هو يوم الثلاثاء، مظاهرات الإنقاذ الوطنى، تتذكر هذا الثلاثاء الدامى لقد وقع فيه يومها31 قتيلا وأكثر من 2500مصابا.. كنت على أطراف مسيرة طلعت حرب، كان هدفنا أن ننضم إلى ميدأن التحرير، وبالفعل نجحت المسيرة فى هذا، هذا ما قد علمته فيما بعد، لقد قذف على ذيل تلكالمسيرة الكثير من عبوات القنابل المسيلة للدموع الرهيبة والمحرمة دوليا، اخر ما أتذكره حقا اننى كنت أتكلم مع أحد الرفاق عن الإتفاق الذى قد تم بين القوى المدنية هذا اليوم على أن تتم الإنتخابات البرلمانية فى موعدها هذا الشهر، وعلى أن تجرى الإنتخابات الرئاسية فى موعد اقصاه 15 مايو 2012، المهم اننى قد استنشقت الغاز، ولما افقت وجد

نفسى معلقا رأسا على عقب، واحدهم يصعقنى فى خصيتى.

محاورات،

فتحقيقات، فتعذيبات،

حقا الكثير من التعذيبات،

هكذا استمر الحال،

إلى أن فقدت تدريجيا الأمل فى أن ارى الشمس مرةٍ ثانيةٍ طبعا الأن وبعد كل هذا الذى مررت به،

وبعد أن عرفت أن يوم الثلاثاء هذا 22 نوفمبر وكنتيجة لضغطنا بالميـــدان قـــد قُبِلـــت فيه إستقالـــة شرف

–هكـــذا أسموهـــا وقتهـــا، قبـــول

108

استقـــالـــة ولـــيست اجبار على الإستقالـــة–

وتكليفه بتيسيـــر الأعمال إلى أن تُشكل وزارة اخرى، وحُددت الإنتخابات الرئاسية فى موعد اقصاه يونيو 2012 أشعـــر بمدى دهشتى العظمى؛ فلقد سقطت أنظمة وقامت أنظمة اخرى، وسقطت تلك الأنظمة الآخرى ورجعت الأولى، وأنا كل هذا لا اعلم اى شيئاعن اى شيئ، كان معتقلا فى الصحراء الشرقية، غير معروفٍ

للجهات الرقابية وللمنظمات الحقوقية، مع الوقت تبدل الظباط المسؤولين عن الأمر،

وتبدلت الأساليب هى الآخرى، ثم أصبحوا جيدين معنا لفترة قصيرة –تقريبا حوالى الشهرين– لكنهم رجعوا إلى عاداتهم القديمة ثانية، بل لقد ازادوا العيار بالأكثر..

كان أكثر الظباط شراسة هو أصغرهم سنا،

كان أربعينى، لا يتورع للحظة واحدة عن تكسيرأسنان اى واحدٍ من المعتقلين من شأنه أن يردُ عليه رد لا يراه هو ردٍ مناسبٍ، جلست أمامه فى احد المرات، وسألنى سؤال بسيط لم استطيع أن انساه أبدا طالما حييت، لم تكن أهمية السؤال فى السؤال ذاته، بل كانت أهميته فيما يمكن أن يترتب عليه، فى وقت كهذا الوقت الذى كان، وفى مكان كهذا المكان الذى كنت فيه، ربما أيضا كانت أهميته تكمن فى طريقة القائه علىّ هكذا، سألنى فى برود وبساطة "هل تعتقد أن هناك إله يراقبنا فى الأعالى؟"

قلت له بعد تفكير طويل كأنه الدهر "لا أعتقد"

وكان رده علىّ بسيط وبليغ فى الوقت ذاته؛ إذلقد خلع لى هاتين السنتين (وأشار إليهما بخنصره) كنت أتساءل بينى وبين نفسى بشكلٍ يومى، عن احتمالية وجود الله من

عدمه، فى تلك الفترة كل شيئ اهتز فىّ، حتى الشيوعية نفسها، العساكر الذين يعذبوننى هم انفسهم اولاد الفقراء الذين عشت طوال حياتى كلها ادافع عنهم وعن حقهم فى الحياة العادلة، كنت أعرف بوجود الله، فدوما ما عرفت بذلك؛ ودوما وأبدا ما اعترضت على دوره الصامت حينما تتأزم الأحداث، أكبر ما كنت أطمح إليه وقتها هو موسى حلاقة حاد، حقا لقد اردت الإنتحار، ولكننى لم اجد إليه منفذا، وإلى الأن لا تبرح تلك الرغبة المميتة من رأسى مطلقا، كل ما احاول فعله هو تأجيلها، ارجاءها، لكننى اعلم يقينيا أن نهايتى هى مكتوبى، وانها واحدة، لن استطيع الهرب منها،مهما طالت الأيام.. فالمكتوب سبق وأن كُتب، وسيكـــون وأن طـــال الأمد، أنه لحق.

بعدها بثلاثة أيام، حدث أغرب شيئ يمكن أن اتصوره فى الدنيا حينها، لقد جاءنى هذا الضابط، إلى حيث زنزنتى، فتحها، ومرق إلىّ.. انحنى نحوى وأنا أرتعد خوفا، وإذ به يقول لى وهو شارد الذهن تماما "حقا فأنا أيضا أعتقد أن لا وجود للاله"..

ثم اخذنى من يدى،

واخبرنى أن لديه معلومة انهم سيصفــون كل من فى هذا المعتقــل المعزول عن العالم أجمع،
وأن لا أحد

109

سيدرك اننا كنا هنا يوما من الأيام (صمت لبرهة ثم اكمل) كذلك أخبرنى أنه لم يعد يعلم لما يفعل معى هذا، وهربنى من المعتقل، أو الأصح أن اقول؛ هربنى من حكم بالاعدام من دون محاكمة، وهرب معى، كان يلزمنا أن نتخفى، أن نتنكر..
وبسنتيّ الناقصتان وجدت أن اقرب احتمال متاح لى هو أن أصبح طبل بطريرك القمار المتشرد فى جنة الشياطين، لقد تذكرتك حينها.. "أنه ذات المصير البائس المشترك" واما هو فلم أجد له أنسب من يحيى ابو دبورة، يحيى المنقبادى، وهكذا هربنا من وقتهاللآن، حقا أعتقد انها فرصة عظيمة أن اراك اليوم يا إبراهيموفيتش، ولكننا علينا وأن نتحرك الآن، ونترك هذا المخباء على الفور، فبعد تعاركك مع القهوجى، والفضيحة التى افتعلتها فى المقهى المقابل لنا؛ علينا أن نرحل عن هنا سريعا للغاية.

- لكننى أريد وأن أعلم أكثر عن ذلك.. ولما أنا بالذات مَن بعثت لى بهذا الظرف؟ ولما ادعيت موتك؟ ولما كل هذا؟ وماذا كنت تقصد من كل ذلك؟!

- تلك الأوراق هى روحى الهائمة، فهذا المظروف يحتوى على كل ما قد تبقى من كل كتاباتى السابقة، حتى ديوانى لقد ضاع، اخذوا كل شيئ، كل ورقة، ولم يتبقى سوى تلك الأوراق التى بعثت إليك بها، كانت فى بيت جدى فى روض الفرج، ولم يستطيعوا التوصل إليها، كلها عبارة عن هوامش لأعمال ادبية كتبتها فى فترات سابقة، ولكنها قد ضاعت كلها، ولم يتبقى منها غير تلك الاجزاء التى هى معك الآن، ولا اعلم حقا لما قد بعثت بها إليك، وصدقنى حينما اقول لك هذا؛ إذ هى الحقيقة.

لما اخترتك أنت.. لما؟! ربما لأنك مثلى.. تستمع إلى الصوت، وأن كنت حتى فى احيأن كثيرة لا تدركه، كذلك لقد أعتقدت انك ستدرك الأمر من أول وهلة،

لقد اسميتُ عالم المصريات كوروساوا فى أول مجموعة من الأوراق،

ألم تلاحظ تلك، أيضا أتذكر جيدا شغفك بكل الأعمال الفنية الغير مكتملة، ايا ما كانت ادب أو رسم أو نحت؛

أليس كذلك يا كبير كهنة فينوس، هه، أعنى أنه ربما ما فى تلك الأوراق قد يتناسب و ذائقتك إلى حدا ما، اما بخصوص حكاية الغرق هذه؛ فقد كانهذا من اختراع يحيى، كنت اود لو أن يعلمك بحقيقة الأمر كله منذ البداية؛ لكنه هو من فضل هذا التمويه، لكن أيضا يبدو أن يحيى شخصيته قد تلبسته بالفعل، هه.. أعتقد أنه قد تقمص الدور أكثر مما ينبغى،

حتى أنه قـد اخطـأ بأعـطـائـك موعـدا فـى جامـع السلطـان حسـن،

بل واخطأ من الأساس فى أول لقاء جمعكما؛ حينما ذكر لك اسم (حواديت) كمقهى.. لكن ماحدث قد حدث، ما علينا من كل ذلك، حقا لقد كانت فرصة عظيمة ملقاك يا صاحبى، لكن الوقت يداهمنا، وعلينا أن نذهب سريعا، لذا لتخرجُ أنت الآن، ونحن سنتمهل قليلا ثم نخرج وراءك، وبالمناسبة فلا تأتى إلى هنا ثانية، فحتى ولو نجيت من تتبع الشرطة لك؛ فلن تنجو من اهالى المنطقة الذين قد تعاركت مع القهوجى صاحبهم، سعدت برؤيتك، شرفت يا إبراهيموفيتش.

- ألن نلتقى ثانية؟!
- مؤكد.. لكن ربما فى عالم أفضل، بالمناسبة هل قرأت كل النصوص التى يحتويها الظرف؟
- اغلبها.. فلم يتبقى منها سوى النص الاخير الذى اسميته أنت (مخرج سينمائى بدون افلام).
- اعتقد حقا أن عليك قراءته يا صاحبى (قالها مبتسما ابتسامة صفراء، ثم توجه بكلامه إلى صاحبه الضابط قائلا) اصطحبه يا يحيى لحد الباب الحديدى حيث عربته راكنة، لتطمئن على رحيله سالما، وأن لا احد من المقهى سيتعرض له، ثم عاودنى لنرحل سويا.

ركبت عربتى مسرنما، وعدت إلى البيت، دخلت إلى حيث مكتبى، والقيت بجسمى على كرسيه، وكأننى مازلت فى حلم لا يريد وأن ينتهى، ولا أعرف كيف لى أن استفيق منه.. وضعت رأسى بجانب المجموعة الاخيرة من الأوراق، ونمت.

لا اعلم كم من الوقت بالتحديد استمريت فى غيابى عن الوعى، نومى، أو ربما اغمائى، لكننى قد استفقت أخيرًا، شعرت بجوع رهيب ينهش احشائى، فذهبت إلى حيث الثلاجة وحضرت

سندوتشين لاتناولهما، من ثم رجعت إلى غرفة المكتب ثانية، وقلت لأقرأ الجزء الاخير وأنا اتناول السندوتشين.

لكن ما قد قرأته جعلنى القى بما فى فمى على الارض..

111

إنه الشك يعاودنى ثانيةٍ ليضرب من جديد..

ليضرب من جديد..

اننى فعلا لم اتقابل ويحيى المنقبادى ولا مرة واحدة فى مكان ما به حضور غيرنا، أول مرة فى شقتى، كنا وحدنا، وثانى مرة فى جامع السلطان حسن،

كنا وحدنا كذلك،

وثالث مرة فى الشارع، جريت خلفه ولم يجرى احد من خلفى، فبصورة ما أيضا بقينا وحدنا، حتى ممدوح البصراوى نفسه لم أقابله فى وجود أحد أخر سوى يحيى المنقبادى ذاته!!

فكما ذكرت سابقا أن هذا النص المعقد لا يستطيع أن يكتبه احد إلَّاه.. غيرى ربما، ماذا على أن أفعل إذن فى تلك الورطة؛ ألحرق الأوراق كلها لأرتاح.

فممدوح البصراوى وغد حقيقى –على كل ما قد فعله بى– ولا يستحق وأن أساعده على أن ينشر تلك القصص والديوان القديم بهوامش إضافية كالهدية منى له على وساخته معى وعبثه بذهنى كل هذا الوقت، لأحرقها إذن، ولكن مهلا..

فإذ كنت أنا من كتبت تلك الأوراق، الا يعد ذلك خسارة كبيرة أن أحرقها وأفنيها وأحولها إلى العدم، سيبقى فى تلك الحالة موت وخراب ديار.

علىّ أن اتأكد أولا.. إذن لأتصل بالرقم الذى كلمنى منه يحيى، لكن مهلا فقد لا يكون هذا هو رقمه من الأساس، ما ادرانى، فربما يكون قد اتصل بى من احد السنترالات التى تملأ الشوارع، لأجرب على ايه حالٍ، لن اخسر شيئا.

أنظر إلى شاشة الموبايل؛ يفاجأنى التاريخ عليها، أنه السابع من مايو..

كل عام وأنت بخير أيها الوغد المعتد بنفسه محب الإختفاء، كما قد وردت فى النص.

لأحتفل إذن أنه اليوم العالمى للجنس الفردى solo sex خاصة واننى متوترا هكذا وفى تلك الظروف العصيبة، وخاصة كذلك

واننى قد إتصلتُ بعاهرتى المعتادة اليوم؛ ولكنها قد إعتذر منى.. وآخر لفة من حشيش قد دخنتها مساء أمس، ولو لى أن أعلم أن كل هذا سيحدث لىّ اليوم؛ لوفرتها له، كما اننى قد تفقدت الكومودينو والثلاجة فلم أجد فيهما ولا حتى غطاء زجاجة من الواين أو الفودكا، العادة السرية هى الوحيدة الواحدة المتبقية إذن.. متعة رخيصة، ومتوفرة، خاصة كذلك وأن اليوم يوافق اليوم العالمى للإحتفال بها، أو ربما على طريقتها.. ها هى إيفا غرين تناديك من جديد أيها الملعون، لكننى اشعر أن ثم خطب ما، فأنا متعثر الآن.. أنه فقط جسدى اللعين لا يطاوعنى، أو ربما لم يعد يطاوعنى بعد.

112

مـــُــخــــــــرج ســــيــــنــــمــــائــــى.. بـــــدون افـــــلام

المجموعة الأخيرة من الأوراق

ملاحظات شكلية/

فى أوراق صغيرة، أطرافها صفراء ومتسخة، متربة.

أمسك بالزجاجة السوداء بيده اليمنى، واقفا مترنحا فى عرض الطريق، ومن فينة لآخرى يرتشف منها رشفة.. فى وقتٍ سابق من هذه الليلة كان قد أفرغ كل جيوبه من كل النقود التى كانت بحوذته –أو هكذا كان يعتقد–لأنه وحين وضع يده اليسرى

–الحرة– الباردة؛ ليستدفئ بجيب الجاكيت، لأمست اناملة عملة معدنية صغيرة، وجدها فئة النصف باوند..

أمسك بالقطعة المعدن المستديرة وضحك ضحكة هستيريا مجلجلة فزع لها احد الكلاب المارة.. وكان كلبًا أسودَ صغيرًا من دون ذيل.

الكلب الأسود الصغير

كان كلبا هزيلا وحيدا يمشى هائما هكذا على وجهه، إلى أن التقى بكلبٍ أخر ضخمٍ آتيًا فى المقابل منه مزمجرا، واضحا عليه جليا أنه أكثر منه شراسة وبأس، للوهلة الأولى توجس منه الكلب الأسود الصغير، شاعرا أنه على وشك المرور بموقف

عصيب، موقف مصيرى.. وأصبح صاحبنا فى حُكم المتأكد أن لهذا الكلب البنى الشرس الآتى عليه، دور حقيقى فى هذا الموقف العصيب المرتقب، فى مبتدأ الأمر تظاهر الكلب الإسود الصغير بعدم الخوف من الكلب البنى ذا الفراء الكثيف المُقبل عليه، مع علمه الأكيد من أن هذا الاخير قد اشتم رائحة خوفه فى المكان، مع ذلك أدرك الكلب الإسود أنه ولو تراجع قيد انملة واحدة فهذا لا معنى له؛ إلَّا أنه هالكٌ لا محالة..

لأنه بهذه الخطوة مؤكد سيعطى الكلب البنى دافعا للهجوم،

وسَيُسَرِع من وقوع المواجهة المرتقبة،

وهذا اخر ما يريده صاحبنا لليوم،

أن يهاجمه كلب مثل هذا الرهيب، فى يوم مثل هذا اليوم المجهد الطويل، حيث كان قد أمضى الساعات الطوال المنصرمة فى محاولاتٍ مضنيةٍ فى البحث عن ملجأ يقيه الأمطار الهاطلة،

التى لا تريد وأن تكف.. ولكنه وبدلا من أن يُوفق أخيرًا إلى هذا الملجأ الدافئ؛ فإذ به يقع فى هذا المأزق، ليقابل هذا الوحش الجائع.. الثائر لأسبابٍ لا يعرفها هو، وفى هذا الوقت بالتحديد، وبعد أن فقد كل طاقته؛ فهو لم يتمكن وطوال اليوم من انيقتات

الا على القدر النزير من الطعام العفن، بسبب قلة الرزق، لما احدثته الأمطار،والتى كانت قد بدأت فى الهطول منذ ساعات طويلة كالدهر مضت، وها هى لا تريد وأن تتوقف إلى الآن، وكان الله قد فتح السماء للطوفأن النهائى المرتقب، والأن اصبحتا عينتا الكلب البنى الشرس تطقان شررا، واقفا متأهبا بذراعين ثابتيـــن،

114

وصدرا منفوخا مدفوعا للأمام، إستعدادا للحظة البداية، للحظة الهجوم.. كان الكلب الإسود الصغير قد أخذ يمر بمحاذاة الكلب البنى الشرس،ويهز ذيله كالمروحة فى بادرة مسالمة، أو حتى كتحية مفتعلة –أقل ما يشبه التحية– هنا بدأ الكلب البنى فى العواء، فهرع الكلب الإسود الصغير يهرول بقوة هاربا، واضعا ذيله بين قائمتيه الخلفيتين، فتبعه الكلب البنى الضخم مهرولا وراءه، وقد تشكلت كل عضله من جسده منتفخة فى صورةٍ مرعبةٍ، ولقد تحول هذا فى غفلة من الزمن إلى ما يشبه كلبا من كلاب الصيد الروسية المفزعة تلك التى كان يتحدث عنها ليو تولستوى فى الحرب والسلم.. استمر صاحبنا فى الركض طويلا حتىوأن وصل إلى طريقٍ مسدود أخيرًا،هنا، وهنا فقط، قد

استمع إلى الصوت فى رأسه.. يُخبره أن نهايته قد لاحت، لكنه عاد و قد تراءف عليه مشيرا بحلا عجيبا..

كان منظر الكلب البنى الشرس وعيناه تومضان غضبا

-كعينا قط عملاق تضويان فى الظلمة الحالكة-

أتيا إلى حيث صاحبنا محاصرا ضعيفا..

"ليأكل ذيلى بدلا من أن يأكلنى كلى، ولتنجو بقيتى"

هكذا فكر الكلب الإسود الهزيل، وفى لحظة توقف فيها عداد الزمن،

وتوارت فيها كل الأصوات حين حل الصمت الرهيب،

عدا صوت انفاسه اللاهثة وحده قد علٍ..

وبعزم ما فيه من اراده،

وجنون، وتعلق بالحياة،

لوى ذيله الثخين ذو الفراء الجميل الناعم؛ أدخل طرفه الطويل بين مخالبه، وفى لحظة استجمع فيها كل قوته، حدته، وحتى وحدته واحساسه القاتل بها.. وقضم ذيله، قاطعا إياه، طوح الذيل

المدمى المقطوع بعيدا عنه بكل عزمه المتبقى؛ فركض الكلب البنى فى إتجاه المقذوف، و ركض الكلب الإسود الصغير مترنحا فى إتجاه اخر، تتبعه نافورة من دماؤه السيال، وبهذا.. وهذا وحده، قد نجا صاحبنا الإسود الهزيل الصغير.. لقد كان كل هذا فى الشتاء الماضى.

قطعة معدنية دائرية بقيمة نصف باوند.. هذا كل ما قد يبقى إذن، هذا كل شيئ إذن، ففى نهاية المطاف ما يتبقى لمُخرج مجنون، مضطرب كامل الاضطراب، لم يُخرج شيئا، وإنجليزيّ كاره لكرة القدم

-أو لنجعل تعبيرنا أدق، الإنجليزى الوحيد الكاره لكرة القدم-

نصف باوند، ثم مهلافما يزال يراودنى الشك، فى إذ كانت تلك القطعة القذرة تساوى بالفعل قيمتها، ام انها قد فقدت قيمتها مثل كل شيئا اخر، وأن كنت متشككا فهذا حق من حقوقى بالتأكيد.. فالإسترلينى دائم التغير، كذلك أيضا ثمن المعدن متغير، معدن، معدن!! الم يكن لهذا المعدن الصدئ من إسم لعين، معدن، هه لما لا أقول فضة أو نحاس أو صاج أو حتى خراء مجفف ومحمص جيدا.. فى هذا العمر البائس مازلت لا أستطيع بعد التفرقة بين الفضة والنحاس، لما لم يعلمونا حتى التفرقـــة بيـــن

تلك الأشيـــاء التافهـــة فى طفولتنـــا المعذبـــة.. لكن لا يهـــم على الاطلاق،

115

فقط، اوه.. لماذا أنت ترتجف هكذا يا صاحبى الإسود الصغير؟! هل أخافتك تلك الضحكة الصبيانية الصاخبة؟!.. آهٍ يا الهى، فحتى الحيوانات، اللطفاء والأوفياء معذبين وتعساء هكذا على هذا الكوكب إبن العاهرة، مَن هو ذاك الإنسان المتوحش الذى قد فعل بك هكذا يا صاحبى الصغير؟! لا عليك يا صغيرى الاسود اللطيف، ذو الفراء الرائع، أعدك بحق الاله فى سماءه..

أنه سيرجع ثانية، ففى ملكوت السموات سينبت لك آخرا، أحسن وأكثف وأيضا أطول، وسيمسح الله كل دمعة من عينيك الجميلتين هذين، فلا تقلق..

ولا يجزع قلبك الرقيق ولا يضطرب، لقد إقترب ملكوت السموات، نعم يا صاحبى.. لقد إقترب الوقت، بل حتى، لقد حان الوقت، أوه، نعم.. هيا يا صغيرى، إنه وقتنا إذن هللويا.

لنقتسمها سويا يا صاحبى.. لنرتشف بعض الاسكوتش الإنجليزى الممتاز، فقط لتنتظر لثانيةٍواحدةٍكى اجثوا على ركبتى، وأصب

لك فى راحة يدى نصيبك من الاسكوتش – خذ فى الأعتبار أن كلمة نصيبك أقصد بها أنه رزق مقسوم لك من الله عز وجل، وليس تفضلا منى، اعنى عفوا من أنا لكى أرزقك– حقا انك ستستطيبه يا صاحبى الهزيل،فعلى المرء الحبوب حين يشرب أن يشرب بصحبة احد الرفاق، وأنت وحدك أفضل وأخلص رفيق يا صاحبى.. فبالله عليك أن تتقدم، ولا تخف، فتلك نوعية ممتازة ليومنا الممتاز هذا، اقترب لا تخف، نعم هيا ضع بوزك في راحتى و ارتشف منه الأن –ولا اخفيك سرا يا صاحبى الإسود الهزيل

– أنه فى أول كأس يكون حاميا–

فى أغلب الاحيان–ولكنه ومع ثانى كأس، يكون قد أصبح حاميا بالأكثر، لكن مع الكأس الثالث بقى؛ يظل كذلك حاميا، لكن لا تقلق لقد خلطه بالصودا من أجل المذاق الجيد، ولأن أهدؤه بعض الشيئ..

فلكى نجعل الروح تحلق منطلقة؛ علينا أن تخدر العقل القذر، وعلينا كذلك أن نهمل الجسد الوضيع، لهذا فأنت ذى حظٍ حسنٍ اليوم يا صاحبى المشوه.. أوتعلم أن حقا حظك جميل اليوم، فكر قليلا فى الأمر فحسب.. فكم من كلب إسود هزيل ومشوه فى

تلك المدينة البائسة يستطيع أن يشرب اسكوتش ممتاز هكذا، أنه الأفضل على الأطلاق، كل رجال العالم يريدونه، هو وحده من دون بديلا.. الأن عليكان تفخر يا صاحبى، لأنك كلب إسود قطيع الذيل مشوه، ولست إنسأن مثلى روحه مشوهة كروحى تلك.

ثم القى بالزجاجة المستطيلة على بعد يديه، و ربت عليه ممسدا على ظهره، مداعبا ومودعا.. وقام ليكمل مسيرته النهائية فى نهر الطريق، فى هذا الليل الضبابى المقبض، متخذا فى اعماقه قرار ختامى لا رجعة فيه،

أن نهايته، أى نهاية الشخصية الرئيسية فى فيلم الحياة الخاص به..

قد حان وقت موتهـــا، فعلى إعتبـــار أن الحياة ما

هى الا فيلم من بطولتنا ومن إخراج الله ومكتوبه، لكنه ما أن انتهى من اخذ قراره أخيرًا الا وقد وجد ذاته واقعا فى مشكلة تقنية عويصة؛

ألا وهى انه، وفى كل الأحوال يسير وفقا للسيناريو الذى قد كُتب منذ الازل..

لكنه قد عاد ثانية، قائلا ليكن إذن، و صمم على أن ينتهى سريعا من تلك الخاتمة، وهذا المشهد الختامى.

المشهد الختامى.. كما هو متخيل (وليس كما هو مكتوب).

م/ 154
ل/خ

الشارع الطويل المظلم

شاب يرتدى الجينز و تى- شيرت عليه جاكيت، يمشى فى نهر الطريق، فى خط مستقيم (كأنه خط خيالى مرسوم على الأرض)

لكن الشاب ذاته خطواته مترنحة.

صوت الشاب/

ما يزال مذاق الملح يملأ فمى.. الم يحن الوقت بعد؟!

يضع يده اليسرى فى جيب الجاكيت، يخرج عملة فضية (نصف باوند) يوسع الكادر تدريجيا ليظهر كلب بنى.. تدخل الكاميرا

close up عليه، لقطة مقربة لعينى الكلب، لقطة مقربة لعينى الشاب، ثم لقطعة مقربة ثانية لعينى الكلب، ثم عينى الشاب مرة اخيرة.

صوت/

ضحكة صاخبة مجنونة، يتبعها صوت نباح حاد لكلب مفزوع.

يخشى الكلب منه فيهرول هاربا وهو مايزال يعوى، يلقى الشاب بالعملة المعدنية فى إتجاهه،فتقع بالقرب منه.

117

صوت/

النباح يتحول سريعا إلى عواء، يتبعه صوت ارتطام العملة الفضية بالأسفلت.

يقف الشاب مترنح، يخلع الجاكيت،ويلقى به بعيدا، فيما عربة مسرعة مقابلة له، اتية تجاهه، الشاب يخلع التى- شيرت ليقف عاريا بنصفه الأعلى.

صوت الشاب/

ما يزال مذاق الملح يملأ فمى، الم يحن الوقت بعد؟!

Close up على العربة المسرعة، تقترب الكاميرا أكثر بشكل تدريجى من سائقها،

يظهر المسيح بالرداء الأبيض وإكليل الشوك،

ويداه المثقوبتان على المقود،

لقطة سريعة من أعلى

(تكون الكاميرا فيها فى وضعية عين الالهTOP ANGLE)،

قبل التصادم، تسود الشاشة.

قطع

موسيقى صاخبة، ينزل تتر النهاية

لكن مهلا، مهلا.. الم تكن متطرفا يا رجل؟! وفيما التطرف.. المسيح يا رجل، احقا؟! بالرداء الأبيض وإكليل الشوك على هامته، الم تجد احد اخر غير المسيح لتلقى عليه خيباتك ومأسى حياتك البائسة المثيرة للشفقة تلك؟!

وما دخلك أنت؟!

ما دخلى؛

الأن تقولها لى؟! ما دخلى، هل جننت؟! فأنا هو أنت، ومن حقى أن اكيل الانتقادات لهذا المشهد السخيف البعيد عن فن السيناريو كل البعد، ثانية سأقولها لك، أنا قررت المشهــد هكــذا، أنا من اقــرر، ولست أنت، وهكــذا سأنفذه تماما.. أسمعتــك

118

تقل "تماما" هل وردت تلك المفردة حقا الآن؟! لتخرس أنت تماما إذن أيها المدعى، هه، فلم يظهر كلبك البنى المكتوب فى المشهد، بل من ظهر هو كلب إسود هزيل قطيع الذيل، وحتى هذا لم يرتعب ويهرب منكمهرولا كما كتبته، لقد اقتسمتُ معه المشروب، بل وصببت له الخمر فى راحة يدك، وسقيته منها إلى أن راح فى نوبة من السكر، وربما يكون الأن فيما نتحادث، يجامع كلبة عشيقته تحت تلك العربة المغطاة، وأنت ما دخلك؟! منحشر، هذا المشهد أنا من كتبته ولست أنت، وأنا من سينفذه هكذا أو يغير فيه ما يريد، ولست أنت،فما دخلك أيها المنحشر النذل؟ منحشر نذل ام انك المقلد عديم الموهبة؟! ظهور المسيح

بالرداء الأبيض وبإكليل الشوك ألا يذكرك هذا بمشهد من مشاهد ستانلى كوبريك.. آه يا أيها المخنث،

لقد تذكرت، أنه البرتقالة الآلية..

نعم هيا اعترف ايها السارق؟ أنا لم اسرق شيئا من أحدٍ؛ ربما أتأثر ولكن لا أسرق أبدًا، ثم أن الأمر مختلف تماما؛ الموقف فى المشهدين مختلف، نعم يتوافقا فى ظهور المسيح فيهما ولكن.... لكن ماذا؟! ظهوره بالرداء الأبيض وبإكليل الشوك فوق رأسه.. لتخرس أيها اللعين بقى، ماذا يضيرك فى الرداء وتاج الشوك؟! أأجعله يرتدى فى المشهد مثلا جاكيت بليزر تركى وجينز ازرق، ثم أن كوبريك فى البرتقالة الآلية جعل البطل يتخيل نفسه جندى رومانى فى عصر المسيح، منوط به جلده، كبديل تخيلى يعوض به البطل نفسه عن الإمتناع عن العنف والتوحش.. اما فى مشهد 154 فى فيلمى الحى الخاص بى، فالوضع مختلف، أنه هنا والآن، يقود سيارة حديثة وليس فى العصر الرومانى.. هنا فى شوارع لندن الطويلة، الأن يحدث هذا.. وليس فى شوارع و ازقة اورشليم!

المسيح يا رجل؟! الم تجد إلَّاه؟ الم تكن مانخوليا حين فكرت فى هذا الهراء؟! مُخرج خراء ولست مُخرج سينما.. بل أن المشهد

رهيب ورائع، ولا يتذوقه ابله مثلك معتز بخيبته، من رآه الشاب على المقود –قبل التصادم– كان المسيح، وهذا له العديد من الدلالات والتحليلات.. أنت فقط التقليدى، مازلت لا تريد إلا كل شيئ على طبق من فضة، كأفلام الأبيض والإسود..

أى تفاسير تلك الخبل، المغلوطة، القذرة التى تدعيها؟! بالله عليك الم تجد سوى المسيح يا رجل؟! ما كل هذا الهراء والسخف، إنك لمنحط لا يخاف عقاب الله.. المسيح جاء ثانية، وترك كل شيئ، وترك كل احد، وساق عربة فى شوارع لندن ليصدمك أنت!! أنت!!.. يالك من مُخرج وغد، لا يُخرج الا الخراء.

ففى تلك الحالات المماثلة يتحول الأمر تدريجيا إلى ما يشبه الصداع النصفى،

هل تقــرر مصيــرك؟!

ما إذ قررتـــه أو لم تقــرره من الأصل؛

فهــذا كلــه لا يتعــدى كونـــــه

تحصيل حاصل، ففى كل افتراضية تمنحها لذاتك بالمقدرة على الخلق؛ ينتهى الأمر بالمأساة، لذلك يتحول الأمر تدريجيا لأكثر صعوبة بالنسبة إلى تلك الحالات التى يكون فيها المرء ممتلكا لقدرة الخلق فعلا؛

حتى ولو كانت –كحالتنا تلك– مقدرة متخيلة محضة، وهذا ما يحدث الإضطراب، والاضطراب يتبعه المشكلات..

لأن للفيلم سيناريست ومُخرج واحد متعصبا لرؤيته، مصمما على تنفيذها للنهاية مهما كلفه الأمر، لكننا وفى تلك الحالة لدينا بعضا من الممثلات والممثلين الذين قد تكونت لديهم:

رؤى مغايرة لرؤيته، ولسوء الحظ وعسيره؛ فهم أيضا مُصرين تماما على مواقفهم، ورفضهم قاطع لما هو مكتوب فى السيناريو الأصلى.. ولهذا فهم لن يكتفوا بالمشاركة بالتمثيل وفقط؛ لكنهم كذلك لن يتوانوا عن التدخل فى إخراج العمل،

والعمل على إعادة تفاصيله،

الأمر هو فى محاولاتهم لأعادة الإخراج،

بل وحتى لإعادة كتابة السيناريو،

لكن المشكلة الرهيبة التى تواجههم، انهم وفى كل مرة يجلس احدهم لكتابة مشهد مختلف عن سلسلة المشاهد الواردة فى الفيلم الأصلى، يجد وأن كل ما قد خطته يداه؛ كان مكتوبا من الأصل فى متن السيناريو الأول، هذا ما يجعل من التنفيذ فوضاويا هكذا إلى هذا الحد، بالطبع من المفترض أن رؤية المُخرج و أوامره هى التى من شأنها وأن تنفذ وحدها؛ لكن هذا اولا حين يتواجد العقد المتفق عليه من جميع اطراف العمل، وهذا ما لا يتوافر فى فيلمنا هذا، وهنا تكمن المشكلة.

خذ عندك على سبيل المثال، مشهد

فقد اتضحت فيه المشكلة جلية، لأن المكتوب شيئ؛ والمنفذ شيئ اخر تماما.. ولو استطاع صاحبنا أن ينفذه فى فيلما سينمائيا؛ فكيف له وأن ينفذه فى فيلم الحياة تلك، لذلك كان عليه أن يتوقف متحيرا فى نهر الطريق، ففى فيلم الحياة الواقعة؛ لا يستطيع هو أو غيره التحكم فى الأمر بنسبة 100% مطلقا، حيث السيناريو المكتوب لن ينفذ والسيناريو الذى سينفذ هو المكتوب، فالحياة هى مرحلة المونتاج.. كم كان مصدوما دهشا حين خطرت تلك الفكرة على باله، مغفلا.. لقد كان مغفلا إذ أنه فى مبتدأ الأمر

كان يظنها مرحلة الإخراج، نعم أنه هنا ليس من اجل تمثيل الفيلم – الذى يرافق مرحلة الإخراج – لكننا هنا فى مرحلة المونتاج، لقد انتهى التصوير منذ الازل، يا اللهى!! هذا أيضا يعنى اننا لسنا نحن.. بل ولسنا هنا على الاطلاق، فنحن مجرد ماتيريال إذن.. اننا صور، اصوت.. اضاءة.. ومضات.. وهذا يعنى أن كل قول سأقوله كان قد قيل منذ الازل، وكل فعل سأفعله كان قد فُعلمنذ الازل.. اننا لسنا هنا، إننا مجرد صور تتحرك، و أصوات تتبعث.

120

وسط رائحة الفوشار،

وأصوات الهمهمات وقرمشات رقائق الذرة والشيبسى والمضغات واللكات،

أصوات المقاعد والتحركات..

فى الصالة العرض، نبكى، نضحك، ننفعل، نتأثر، نغضب، ونفرح..

لكن ما وأن يضاء النور حتى نصدر تلك التنهيدة التلقائية؛ التى تخرجنا من حالة الوهم بأن كل ما كان يحدث أمام اعيننا و رأيناه؛ كان يحدث هنا والآن، وبما اننا قد انتهينا من مرحلة التصوير منذ الازل، فعلينا أن نهدأ إذن؛ فنحن الأن فى مرحلة العرض، فحتى اننا لم نكن فى مرحلة المونتاج كما ادعيت منذ قليل.. إذن لأهدء قليلا، فعلىّ أن ادرك أخيرًا أن لا مقدرة لى، علىّ إذن أن اتعامل مع هذه الحياة على اننى اتابع فيلما سينمائيا فى صالة عرض –عظيمة– مخصصة لذلك على خير وجه.

عضوى متصلب، يريد وأن يفرغ المثانة قبل وأن تنفجر.. لكن يا لــوعملتهــا وانفجرت فعلا؛ ياله من منظر عجيب اكاد أن اراه بأم عينى حالا وتوا، فى البداية تحدث بها بعض الثقوب التى تلقى بخيوط البول الرفيعة، ومن ثم يحدث شرخ أكبر، فيلقى بالمزيد ثم بعد قليل من الامتناع والتوقف، يرجع البول ليتساقطويخرخر من كل مكان حيث الثقوب المتعددة تملأ مثانتى عن اخرها، خرومٍ متعددةٍ كالنافورة تلقى بمزيد من الخيوط الرفيعةٍ من بولى، يحدث الانفجار العظيم أخيرًا، يستمر تدفق البول دائما وإلى الأبد..

حتى وحين يأتى المسعفون ليرفعون جثمانى من على الأرض، حين اكفن، وقبل أن ادفن، وحتى حين ادفن، يستمر البول فى الظهور،وفى المقبرة كذلك يستمر البول فى النشوع؛ إلى أن يُسقط جدرانها بعـــد حوالى اسبوعين من القاءهم بى بداخلها.. ليستمر ويستمر البول فى النشوع إلى يوم الدين و إلى ابد الآبدين.

لكن ما علىّ من كل هذا،

ولماذا أقف مكتوف الايدى هكذا جاعلا من مثانتى بركانا على وشك الإنفجار؟!

لأفعلها الآن.. فى شوارع لندن الطويلة، وليجرى البول فيها كيفما أراد له القدر، ليصل حتى إلى أبعد الحقول الخضراء، فى الريف الإنجليزى ليرويها، أريد له بالأخص لو أن يروى شجرة ورد.. ذات ورودٍ ارجـــوانيـــةٍ لها رائحةٍ زاعقةٍ، كرائحة بولى تماما، لأفعلها الآن، ولا ادع مثانتى لتنفجر.. فأنا أحب مثانتى، ارجوكِ الا تنفجرى وتذهبى بعيدا عنى مبتعدة، يا مثانتى.. أوه، ارجوكِ أيتها القطعة اللطيفة المباركة منى الا تنفجرى، وتزولى، وتتركينى ههنا وحيدا، لتنتظرى قليلا فحسب..

لقد اوشكت على تفكيك أزرار بنطالى الآن،

انتظرينى قليلا فأنا أعمل على هذا،

هيا، نعم ها هو الوغد المختفى يظهر متألقا،

متأنقا، كما عهدتموه تماما يا شوارع لندن الطويلة..

يريــــد، يحاول جاهدا، لا تقلقى أيتها المثانـــة

الرقيقة، لا مزيد من القلق، سيفرغك –هذا الوغد المعتد بنفسه محب الإختفاء حالا، هيا، حسنا، حاول ثانية أيها الشرير، أوه، نعم يا عزيزتى، لتنتظرى قليلا بعد، أنه يحاول من جديد..

سينجح بالتأكيد، سينجح، اوه، ما هذا القدر الرهيب من التقطيع فى مثانتى وعضوى، لا عليكِ يا صغيرتى، فلا تقلقى يا مثانتى الحبيبة، لمشكلة كتلك حلًا واحدًا وحيدًا..

الحزق، بإخلاص وشدة ورجولة، أنه الحزق وحده لا شريك له، أوه، ساعدنى يا اللهى الذى صدمتنى بسيارتك منذ قليل،

ساعدنى، أعنى، إحزق يا رجل، أنه قضيبى يكاد وأن يتمزق فى شوارع لندن الطويلة، المزيد من الحزق أيها الوغد..

ها هى العاهرة تخرج،

ها هى الحصوة إذن، يالك من صخرة، صغيرة، لعينة، وضيعة، لئيمة، مشرشرة، ابنة عاهرة..

كل تلك البزوز والسنون فيكِ، لكن ما لهذا الحرقان المميت لا يريد وأن يذهب عنى، إننى أتبول نابلم خام، دماء، بول، بواقى حصى، ورمال صغيرة، ومفتفتة، حادة كالاامواس، لابد وأن الجعة التى قد احتسيتها سابقا تلك الليلة قد قلقلت تلك الحصوة الكبيرة، أوه يا اللهى، اشكرك حقا سيدى.. كم كان صعبا علىّ التبول، لأرقص، لأغنى، لأفرح، لأتقافز حبورا و سعادة

"لقد نجحت، وتبولت، أنا نجحت و تبولت"..

"أنا أيضا انجح كل يوم واتبرز"

هكذا قال لى احد المارة السكارى، فقلت له غاضبا

"لدى حصى فى قضيبى يا رجل"

فقال لى متبسما

"لدى بواسير فى مؤخرتى كذلك".

فى هذا الشارع الطويل اللعين بالذات من لندن؛

اعتادت الحوادث أن تقع، تحدث الدراما، ويموت الناس.. فمنذ اسبوع واحد مضى؛ صدم تاكسى عجوز طاعنة فوق الثمانين، كتبت الجرائد أن الصدمة قد جعلتها تطير فى الهواء لأربعة أمتار،

أربعة امتار بحالهما،

قبل أن تسقط على الأسفلت متكسرة الجمجمة وتفارق الحياة،

يالروعة هذا التعبير على لسانى "تفارق الحياة"..

ما علينا، ومنذ شهر مضى، صدمت سيارة –من نوع السيارات الثلاجة التى تنقل البضائع المجمدة–

أم شابة ممسكة بيديها اليسرى ابنتها ذات الثلاثة سنوات،

وباليمنى تجر عربة اطفال بها مولودها الرضيع،

وفى لمح البصر أصبح ثلاثتهم من مفارقى الحياة،

أن هذا الشارع اللعين؛ شارع مُخصص لمثل تلك الحوادث من هذه النوعية.

اتمشى ها هنا مذ عدة ساعات مضت، سكران، غير متزن، اترنح، مشوش، واكتب مشهد موتى فى رأسى، إذن لما لا اموت ببساطةٍ هكذا؟! بساطة أيها المدعى؟! آوه، لا، أأنت ثانيةٍ؟! نعم أنه أنا ثانيةٍ وثالثةٍ وعاشرةٍ.. فأنا حبيبك، وأنا لا اطيقك، لتعود مِن حيث اتيت.. من أين تقصد؟ اتعتقد اننى اقبع فى مكان ما بداخلك؟! فى عقلك مثلا، ربما فى قلبك.. ممكــن فى صدرك، المظلم، أوتعلــم ربما فى مؤخرتك القــذرة

122

المليئة بالخراء..

لتخرس أيها الوغد، ماذا قد اتى بك إلىّ الآن؟!

وأين كنت مختفيا حينما كنت أتعذب متقافزًا من الحصى

الجهنمى أيها النذل الجبان؟!

هل كنت فى مؤخرتى عندئذ؟! أأعجبتك تلك اللعبة إذن؟! هيا إذن أيها الصغير، لتكمل سخريتك منى، هيا، مهلا لقد تذكرت..

الأرنب الصغير، ها قد تذكرتها أخيرًا، أليست بتلك العبارة السخيفة كانت تدللك امك الشمطاء الخرفة؟! الأرنب الصغير، أنه الأرنب الصغير، يالك من طفل مدلل، ابن امه؟! أانتهيت من شتيمتك لى، ام تريد لو أن تواصل بعد؟! ها الأن مالك وأمى أيها القذر، أن نطق لسانك العفن بكلمة زيادة عن أمى سأريك وجها لم تراه من ذى قبل.. آه نعم حقك علىّ، لقد تذكرت أن امك هى ملكة المملكة المتحدة! أتسخر من أمى ثانيةٍ يا ابن العاهرة، سأريك ماذا سأفعل بك ايها الوغد الملعون.. سأقتلع رأسك من على كتفيك أيها النتن، لتنتظر، مهلًا مهلًا أيها الرجل القوى، تذكر أنت من اهنتنى أولا، وكثيرا.. فأنت من نعتتى أولا بابن العاهرة،

لكننى أسامحك،

لأن الله يريد منا وأن نغفر لأعدائنا،

فما بالك بنحن، أنت وأنا، فنحن أكثر من مجرد عدوين كما هو جليا، ولكن من أنا؟! فأنا هو أنت، أترى كم أنك شخصا كريما ومتسامحا، أقصد من جانبا اخرا، بالطبع من جانبى أنا، لكن يا صاحبى علينا أن نتقبلنا سويا، بحب وتسامح مشترك هكذا، كما تقبل المسيح الاساءة بالصفح.. بل وبالصلاة من اجل المسيئين

إليه.. لكن مهلا، لقد قلت عنى اننى وغد ابن عاهرة، وأنا هو أنت.. إذن فأنت يا صغيرى هو الوغد ابن العاهرة، فأمك عاهرة بالفعل لأنها قد انجبت وغدا مثلك، ها أنا مقدما على أن أقتلع رأسك أيها الدنئ اللعين، سأقتلع رأسك وانظف بشعرك البنى هذا الملئ بالقشرة مؤخرتك الكبيرة الملية بالخراء.

كانتا هناك يدين خارجتين من كتفٍ واحدٍ.. لكن يد تمثله، ويد تمثله هو الآخر،

كان منظره مخيف، مجنون خطر بالفعل، كالمشردين الهائمين على وجوههم، هؤلاء الذين ما أن تقع عليهم عينيك الا وتتسائل هل كانوا يوما ما مضى مثلى ومثلك اناسا عاديين –على اعتبار اننا اناسا عاديين أعنى!–

أم انهم ولدوا هكذا وحسب،

وتشيـــح بنظرك سريعا عنهم، مرتعبا من أن تصبح يوما واحدا مثلهم، واحدا منهم، ويقشعر بدنك من التفكر فى ذاك المصير، لكن مع هذا لم يكن بكل تلك الخطورة المستشرفة من منظره، فلم يكن يوما بقادرا على ايذاء مجرد نملة، لكنه يود فقط لو أنه كان قد تمكن من ايذاء الصوت فحسب، أن يؤذيه بعنف وحقد

رهيبين، حقيقيين، الصوت الذى يكدر عليه حياته المضطربة من الأصل.. كان يشعر بأسى حقيقى، ليس على ما قد وصل إليه مع نفسه؛ بل على ما قد وصل إليه مع الصوت، فلم تكن العلاقة بينهما قديما على هذا النحو، ففى مرحلة سابقـــة من حياته

–يخيل إليه انها كانت منـــذ

123

الف عام وعام– كان الصوت فيها هو صديقه الوحيد الأوحد،

هو وحده كل ما تبقى له من تلك الحياة، كانتا يداه تضربا وجهه بشهوة رهيبة، وكراهية حقيقية.. شهوة للموت، وكراهية للحياة، مع كل ضربة كان يترنح، لكنه يعود محاولا التوازن والسير على الخط المستقيم الذى قد رسمه فى خياله..

خط اصفر فسفورى لامعٍ محاطٍ بخطين أبيضين، هكذا كان يتخيله، وبشكل عجيب يحسد عليه، نجح بالفعل فى المحافظة على السير على هذا الخط المتخيل، بالرغم من ترنحه المثير للشفقة على اثر ضرباته لنفسه التى لا تنتهى، كان منظره مزرٍ بائسٍ يجلـــب الرثاء حتى مما اعتبروه دوما عدوهم اللدود، شاب فى عز شبابه، يسير مترنحا فى شارع الحوادث الطويل

الذى لا يريد وأن ينتهى، راجيا أن تدهسه إحدى تلك العربات المتهورات المعروف بها هذا الشارع القاتل، مترنحا سائرا على خط متخيل أصفر يحيط به من الجانبين خطين بيضاوين، تحت تأثير الشراب و المرار منتظرا لميتة متمنعة عليه، فالموت هو الآخر يبخل عليه، كما هى الحياة، فهو ليس بالميت ولا بالحى، فهو فى حالة من السكر، وحالة السكر لا هى موت، ولا هى حياة، انما تبقى هكذا حالة سكر وفقط.

م/ 154

ل/خ

الشارع الطويل المظلم

شاب هزيل بنى الشعر، يرتدى تى- شيرت فوقه جاكيت، على جينز ازرق، يسير بترنح، فى خطٍ مستقيمٍ كمن يسير على حبل، يكيل اللكمات واللطمات إلى وجهه، اوراق الاشجار الصفراء تغطى الشارع الطويل.

صوت/

اللطمات على الوجنتين، ممتزجه باصوات الرياح، وحفيف اوراق الشجر الأصفر المغطى لأسفلت الطريق.

عربة مسرعة تظهر فى مقابله، Close up على السيارة، فالسائق، المسيح بالرداء الأبيض وإكليل الشوك ويديه على المقود، يركع الشاب على ركبتيه فى نهر الطريق، فيما تزال العربة على سرعتها.

صوت الشاب/

ما يزال مذاق الملح يملأ فمى، ألم يحن الوقت بعد؟!

صوت/

الركوع على الركبتين، الرياح، حفيف اوراق الأشجار المتساقطة.

تهدأ السيارة تدريجيا، إلى أن تقف نهائيا أمام الشاب، لتضئ مصابيحها أعلى كتفيه ووجهه وشعره، يترجل المسيح من السيارة، يتجه نحوه دون أن يحرك قدميه، يقف أمام الشاب الراكع مبتسما

صوت/

انطفاء محرك السيارة.. ثم يتبعه هدوء تام.

صوت المسيح/

اطمئن.

قطع

موسيقى هادئة، ينزل تتر النهاية.

125

م/ 154

ل/خ

الشارع الطويل المظلم

شاب يرتدى الجينز الأزرق، و تى- شيرت عليه جاكيت، يمشى فى نهر الطريق بخطوات مترنحة، لكن مع ذلك فى خطٍ مستقيمٍ (كأنه خط خيالى مرسوم على الأرض أمامه) الطريق مغطى تماما بأوراق الأشجار الصفراء المتساقطة، وبعض الحطب، وبعض سيقأن الأشجار الصغيرة.

صوت الشاب/

ما يزال مذاق الملح يملأ فمى، الم يحن الوقت بعد؟!

يدخل إلى الكادر من خلف الشاب كلب بنى نابح، فكلب اخر، فآخر..

إلى أن يكتمل عدد ستة كلاب بنية، ثلاثة عن يمينه، ومثلهم عن يساره.. جميعهم يسيرون فى خط عرضى مستقيم.. فيم يتسع الكادر سريعا، وترجع الكاميرا كثيرا للوراء، لتظهر سيارة مسرعة اتيه فى مقابلهم.

صوت/

خطوات الكلاب و الشاب ومن تحتهم اعواد الحطب تتحطم، وشيش رياح،

حفيف الأوراق المتساقطة.

نرى ظهر العربة المسرعة وهى ترزع الطريق رزعًا، ثم تأخذنا الكاميرا للأمام مسابقة السيارة لنرى الشاب، والكلاب على جانبيه وقد ازداد نباحها، لكنهم مايزالون معا فى صفٍ واحدٍ بعرض الطريق.

صوت الشاب/

ما يزال مذاق الملح يملأ فمى، الم يحن الوقت بعد؟!

صوت/

النباح و إذ به يتحول تدريجيا إلى عواءٍ حاد، صوت الرياح وقد ازداد رعبا، حفيف الأوراق المتساقطة، محرك السيارة المسرعة.

تتفرق الكلاب قبل وأن تصطدم العربة المسرعة المتجهة عليهم، لكن العربة لا تصدمهم؛

بل تتوقف فى الظلام على بعد عشرة امتار منهم..

يمشى الشاب أولا بخوف نحو العربة،

وتتحول مشيته المترددة إلى أسرع فأسرع شيئا فشيئ،

إلى أن يتحول أخيرًا للجرى الصريح وقد ارتسم الأصرار على ملامحه.

صوت الشاب، بغيظ صارخ/

ما يزال مذاق الملح يملأ فمى، الم يحن الوقت بعد؟!

يصل إلى حيث السيارة واقفة، يفتح بابها، فلا يرى أحدًا على المقود، تظهر الدهشة على ملامحه، يتجمد فى وقفته، ترجع الكلاب لتلتف من حوله باكية بالدموع فى نهنهات خافتة، يهرع الشاب إلى حيث الأرض، ليلتقط منها ساق شجرة قوى بعض الشيئ، يقدم على السيارة مرةٍ اخرى، ليكسر الزجاج الأمامى للسيارة، يتهشمالزجاج لكنه يبقى عالقا فى مكأنه ما بين الطبقتين البلاستيكيتين.

صوت/

تهشم زجاج البريبريز، نهنهة الكلاب الخافتة.

قطع

تسود الشاشة

موسيقى الدرامز الصاخبة، ينزل تتر النهاية.

م/ 154

ل/خ

الشارع الطويل المظلم

شاب يسير مترنحا، فى خطٍ مستقيمٍ متخيلٍ، يرتدى جينز ازرق على تى- شيرت وعليه جاكيت، فى يده اليمنى ممسكا بزجاجة سوداء، يضع يده اليسرى فى جيبه، يخرج نصف باوند فضيا، يلقى به بعيدا.

صوت/

القطعة المعدنية ترتطم بأرض الشارع، مع وشيش رياح، حفيف اوراق الأشجارالمتساقطة، ونباح إحدى الكلاب (من خارج الكادر)، محرك سيارة عاليا(اتيا كذلك من خارج الكادر).

يقف الشاب مترنحا فى نهر الطريق، يخلع عنه الجاكيت، ويلقيه بعيدا، لقطة من أعلى على ظهر العربة المسرعة، فيما تسبقها الكاميرا إلى الشاب، الذى يخلع التى- شيرت متعريا من فوق، ويلقيه بعيدا هو الآخر، ثم يلقى بظهره على الأرض ساقطا.

صوت/

انطفاء محرك سيارة، وفتح بابها.. خطوات كعب عالٍ على اسفلت الطريق.

تهرع فتاة حسناء ذات شعرا أحمر،

وبشرة بيضاء تشوبها الحمرة، إلى حيث الشاب الملقى فى نهر الطريق.. تنحنى لتضع يديها على صدره.

الفتاة/

بخير، أنت بخير.. فلا تقلق.

الشاب/

لقد انتظرت كثيرا اليوم، لما لم تصدميننى كما أردت؟

الفتاة/

كنت أعلم انك ههنا؛ كنت اسُرع حتى لا تأتى سيارة من قبلى.

تركع الفتاة على ركبتيها، وتستعدل من جسد الشاب، واضعة رأسه على فخذيها، ممسده له شعره فى حنو وعذوبة.

الفتاة/

الملح سيذوب، ومذاقه سيختفى.. لكن النهاية لم تحن بعد.. إنها فقط البداية، بداية رواية لن يكتبها احدا إلَّاك.

الشاب/

لست بـــروائـــى.

الفتاة/

اعرف انك مُخرج، لم تخرج شيئا إلى الآن، لكن صدقنى تلك هى البداية فقط، لتركب معى السيارة، وفى الطريق سأعلمك بالأمر.. ولما أنا ههنا معك.

الشاب/

أريد أن انتهى.

الفتاة/

ما النهايات الا بدايات جديدة، ربما بداية لشيئ حقيقى.

يركبا سويا السيارة، يغلقا البابين، تنزل له المزلاج وهى تبتسم له فى رقة وعذوبة.

129

صوت/

كلب يعوى (من خارج الكادر)، محرك سيارة تدور.

اختفاء تدريجى

تسود الشاشة

موسيقى من مقطوعة فيونيرل مارتش لشوبان،

ينزل تتر النهاية.

تمت.. ربما

القاهرة:

أغسطس 2013

مـــــايــــــــو 2015

***ملاحظات ختامية**

فى فصل (فى البحث عن مقهى حواديت.. نهاية متعثرة) كلام يحيى المنقبادى بالبنط الإسود العريض مأخوذ بالنص عن سيناريو فيلم أرض الخوف.

أرض الخوف:

فيلم مصرى من انتاج 1999،من تأليف وإخراج داود عبدالسيد، يحكى الفيلم عن محنة الانسانية، والمشكلة الوجودية، من خلال الضابط يحيى المنقبادى الذى يوكل بمهمة شاقة تحت مسمى أرض الخوف ليجد نفسه وقد زج به فى صراع عظيم.

جنة الشياطين:

فيلم مصرى من انتاج 1999،سيناريو مصطفى ذكرى، ومن إخراج أسامه فوزى، مستوحى عن (الرجل الذى مات مرتين) لجوج آمادو، يحكى الفيلم عن موت طبل البرجوازى الذى قرر وأن يترك حياته القديمة ليحيى حياة بوهيمية وسط المهمشين.

شكرا

شكرا للمخرج الاستاذ/ داود عبد السيد مَن فتح لنا باب الخيال ومِن يومها ونحن هكذا عالقين حائرين على اعتابه، لا استطعنا وأن نعبر وندخل، ولا نستطيعوأن نمضىإلى حال سبيلنا ونتناساه.

شكرا للمبدع الحى كالمياة الكاتب والسيناريست مصطفى ذكرى، مَن علمنى أن الشخصيات الأصلية هى تلك التى تخون نفسها، ومَن علمنى أيضا كيف و أن انسج من خيوط العناكب حبائل للخلاص، وأن فى التعرى السلامة.

شكرا لأبى، ولاستفزازه الدائم لى، ولمساندته الدائمة كذلك، شكرا لامى كونها قد احتملت كل تلك الشخوص المتصارعة بداخلى، شكرا لملاكى الحارس لمريمةٍ اختى الصغيرة وأجمل ما فى عالمى أجمع، شكرا لسامح صفوت أخى الكبير الذى دائما ما اخشى عليه كأخى الصغير، وأمى التى لم تنجبنى أمى يؤانا.

شكرا.. شكرا..

لجدول السلام م.نانى ميخائيل عمتى الصافية كنهر.

شكرا للخال مجدى فاروق عرابى الأمين، وبابى المفتوح دائما فى وجهى.

شكرا لأشعار نجيب سرور – عليه السلام – الذى سيظل عشقه يملأ صدرى طالما حييت.. شكر لمولانا السيناريست محمد حلمى هلال و لقلمه و لتوجيهه.

شكرا إلى تلك المرأة التى لم اقابلها بعد.

شكرا لك صاحبى قارئ **الصوت** على وقتك وجهدك، مع تمنياتى الخالصة لك الا تستمع إلى تلك الأصوات كما أستمع إليها أنا.

شكرا لكل التصادمات، شكرا لكل الاحباطات، شكرا لكل المواقف الصعبة التى قد مررتنى ومرت علىّ، وشكرا لكل الظالمين، شكرا لكل الذين اساءوا إلىّ؛ لأنهم ومن دون أن يدروا هذا جعلونى المرء الذى أنا عليه اليوم.

كذلك شكرا لناشرى إذ نشر هذا الجنون المحض.

وشكرا لك أنت الذى هو أنت، لأنك احتملتنى وقبلتنى على كل ما فىّ.

و أخيرًا شكرا لصاحبى الوفى السيد/ جورج أنسطاسيوس.